لُعبة الخُيولِ الخَشبية

رواية

لُعبة الخُيول الخَشبية

رواية

تأليف :

أحمد الزناتي

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2018/19804

الترقيم الدولي: 978-977-820-052-2

الطبعة الأولي : يناير ٢٠١٩

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450

بريد إلكتروني: info@kayanpublish.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublish.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابيٍ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

لُعبة الخُيولِ الخَشبية

أحمد الزناتي

رواية

«ثِــــقْ بالحـــكـــاية، لا بـالـــرّاوي».

د.هـ. لورنس

شَــذرات الــنــطــق

... فالكتابة تفتحُ الجروحَ، مثلما تكويها
خوان خوسيه مياس - العالَم

-١-

شاليه المعمورة..

الخميس.. ٢٩ أبريل ٢٠١٠.. الساعة العاشرة ليلًا..

في ظهيرة يوم صيفي بعيد، وبينما كنتُ ألعبُ مع أخي على رمال الشاطئ،عَثرنا على صندوقٍ خشبي مُطعَّمٍ بالصدف، ومُغلقٍ بحبل مِن الصوف الأحمر، المعقود بين مِقبضيْن مستديرين على الشكل رقم (٨). أزلنا الحبلَ، ورَفعنا الغطاء، فوجدناه مملوءًا بكُرَيّات زجاجية صغيرة في حجمِ البِلْي. جلسَ أبي ينظرُ إلينا في صمتٍ. توقّعَتْ أمِّي شجارًا محتمَلًا، فاقترحَتْ أن نلعبَ لُعبة رَمي البِلي داخل حُفرة. طلبَتْ إجراءَ قُرعة لنرى مَنْ سيبدأ. اتفقنا على أن يكون الفائزُ هو مَنْ ينجحُ في إدخال الكُريّات الزجاجية إلى الحفرة مِن المرّة الأولى، ولو نجح فالكُرَيات مِن نصيبِه. حَفَرنا حفرة غائرةً في الرمل، ورجعنا بضعَ خطوات لنقذِفَ بالكُرَيات داخلها، كان الحظّ يقِفُ إلى جانبي مرّةً تلو الأخرى؛ احتدَمَت المنافسة، وعلا صِياحُنا حتى كِدنا نتشابك بالأيدي. نهضَتْ أمي، وسألَتنَا إنْ كنا قد رأينا هذا الألَقَ الغريب المنبعِث مِن البِليَة الزجاجية الأكبر حجمًا، لم ننتبِه لشيءٍ وقتَها؛ كان كلُّ ما يَشغل بالَنا ألا تصلَ أمواج البحر الهادرة لتغمر الحفرة، وتأخذ منا كل شيء.

جثَــتْ أمي عـلى ركبتيهـا فـوقَ الرمـل، واقتربَـت مُشيرةً إلى كُرَيّـة ذات وجهـيْن، تتوهّـجُ بلمعـةٍ قويّـة، دَنوْنـا بـرأسـيْـنا، فرأينـا، عـلى وجــه طفـلًا يَكتـب في دفـترٍ، وعـلى الوجــه الآخَــر توأمَــه يغسـل قدمَـيْ أمِّـه بالمـاء. أمسَـكَتْ أمـي الكريّـةَ وقبضـتْ عليهـا.

غمرتـنا موجـة قويّـة، سرعـان مـا انحسرتْ جَارِفـةً معهـا كُرَيـات البِـلْي جميعهـا. طارَدْنـا الكُرَيـات، لكـن البحـرَ أخفَـى في جوفـه مـا أخَـذَ.

عُدنا إلى أمي، سألناها:

- هل أخذَ البحر الكريّةَ ذات الوجهيْن أيضًا؟

فتحــتْ أمــي قبضــةَ يدِهــا، وألقَــتْ بالكريّــة ذات الوجهــيْن إلى المــاء، وقالــت: إنهــا هنــاك.

***

رنَّ جـرس الهاتـف بينمـا كنـتُ أعيـدُ قـراءة الفقـرة السـابقة في دفـتري. الهاتــف أســودٌ عتيــق، ذو قــرصٍ دوّار. لــم تتجــاوز مــدّة المكالمــة دقيقيــتْن، جــاء فيهــا صــوتُ أبي هادئًــا، طمأنتُــه عــلى وصــولي إلى الإسـكندرية، وعـلى مقابلـة العمـل الـتي تكلّمنـا بشـأنها صباحًـا. أغلقـتُ الهاتـف ووضعتـه إلى جـواري فـوق سـطح المكتـب. مِـن خـلال المـرآة المنصوبـة أمامـي بعـرضِ الحائـط لمحـتُ جسـدَ سـارة شِـبه العـاري ينتفـضُ بقشـعريرة خفيفـة، فيمـا كانـت يداهـا تسـبحان فوق الوسـادة، باحثتَـيْن عـني. نهضـتُ ووضعـتُ الغطـاءَ فـوق جسـدها، وأطفـأتُ مصباحًــا صغـيرًا مُعلقًـا عــلى الحائــط الــذي يســتند إليــه السريــر.

جلستُ إلى المكتب مِن جديد، مُراقِبًا المَمشَى البحري مِن النافذة. المَمشى شِبه مظلِم؛ نورُ المصابيحِ الخارجية للشاليهات المجاوِرة خافت، وإضاءة أعمدة الإنارة المُصطفّة بطولِ المَمشى واهنة، لا تسمحُ سوى برؤية ظلالٍ شبحية لفردٍ أو اثنيْن يسيران بخطواتٍ هادئة.

مِن مكانٍ خَفي في الشاليه المجاور،تتردّدُ كلمات أغنية فيروز:

عندي ثقة فيك.. عندي أمل فيك.. وبيكفّيك

كلّ الجمل والحكي والكلام فيك

تململَتْ سارة في فراشها، وكأنّ صدى موسيقى الأغنية وصل إلى أذنيها. كانت تبتسم.

«سارة؟ ألا زلتِ مستيقظة؟».

على ضوء الأباجورة الهالوجين القويّة، هوامّ دقيقة، وحشرات أصغر مِن الفراشات بقليل تتراقص باندفاعٍ محمومٍ حول قبّة الأباجورة، لم يزعجني رقصُ فراشات الليل، كما كان يُطلق أبي عليها، بل عادَ بذاكرتي إلى منظر أبي في الغرفة ذاتِها، وإلى ذكرى المكتب نفسِه، حين كان يَصطنِعُ الإمساكَ بِها، ويضعها في فمِه لنغرقَ في الضحك والصراخ أنا وأخي.

هل شرعَ أبي في قراءة مسوَّدة الرواية التي أعطيتُه؟ كم صفحة قرأ؟ عشر صفحات؟ عشرين؟ مئة؟ هل يكون قد أنهَى قراءة الرواية تمامًا؟ وأيّ مسوَّدةٍ أعطيتُه؟

لم يتوقّف أبي في الفترة الأخيرة عن طلب نسخةٍ مِن مسوَّدة الرواية التي أخبرتُه بكتابتها، ولا أعرف لِمَ عاودَ التفكير في الموضوع رغمَ مماطلتي الطويلة. تذرعتُ بحججٍ مختلفة، أخبرْتُه أنّها

مسوَّدة، شذرات مبعثَرة، لا رأس لها ولا ذيل، مجرّد تراكم لأفكارٍ، ليس فيها شيء قابل للقراءة، بويضةٌ لم تُخَصَّب بعد. لم تنـدّ عنه هذه الكلمة، ففاتَحني في موضوع الزواج وكأنّه يضرب حولي حصارًا، فندِمتُ على مُصارحته بما أكتب. راوغتُه أكثر مِن مرّةٍ، فلم ييأسْ، مما دفعني إلى التفكير في اختراع حيلةٍ للهرب. ولكن أيّ حيلة مع أبي وهو في هذه السنّ المتقدِمة؟ خَطرَ ببالي أنَّ أغلب حلول مشكلاتنا تأتي في شكلِ صدفة. لا أقصد الصُدَفَ المبتذَلة، بل الصدفَ الواعية التي تتأكد بنفسها، يومًا وراء يوم، تأكيدًا ينأى بها عن بحر العشوائية، ويدنو بِها مِن أرض الحقيقة الصلبة.

اعتدتُ مهاتفة أبي كل يوم بعد عودتي مِن الوكالة، وكان ينتظرُ مني هذه المكالمةَ بفارغ الصبر، وكأنها اعتراف ضمني أنني لم أنسَه. في الشهور الأخيرة راح يهاتفني يوميًا؛ يبدأ المكالمةَ بسؤالٍ عن صحتي وأحوالي، وعن عملي الجديد، ثمّ يقفز بخفةٍ إلى موضوع مسوّدة الرواية، فكنتُ أعِدُه خيرًا دون أن أجيبَ طلبَه. في المرّة الأخيرة، وكان ذلك قبل بضعة شهور، كاد صوته يختنقُ بالدموع وهو يسألني عن مسوَّدة الرواية مِن جديد. أخذ يتشكّى مِن الوحدة ومِن انشغالي الدائم، ومِن الفراغ الذي خلّفَته وفاة أمي، وكأنّه يضع العربةَ أمام الحصان أو يزجّ بي في امتحان مكوّن مِن سؤال واحد، ولا توجد اختيارات.

قبل شهورٍ، وبينما عمّال شركة الغاز الطبيعي كانوا يمدُّون ماسورة الغاز إلى شقتي، اضطرِرْتُ لإزاحة ركامٍ مِن الأشياء المرصوصة فوق خزانة خشبية قديمة؛ كُتُب ومجلّات، أحذية رياضية كنت أنوي التبرّعَ بها، حقيبة سفر سوداء، وقبعة راعي بقر صفراء قديمة، كان أبي يرتديها في أثناء عمله بالصحراء، وطالما

ارتداهـا في أثنـاء خروجنـا معـه.

كان مِـن المفـترض أنْ تخـترقَ الماسـورةُ أعـلى نقطـةٍ في جـدار الشرفـة لتمـرَّ داخـلَ غرفة النوم، ومِنها إلى طُـرقـــة الشـقّة، وصـولًا إلى المطبخ، وبينمـا كنـت واقفًـا فـوقَ السُـلَّم الحديـد أزيـح هـذه «الكراكيـب»، لمحـتُ عُـشّـًا مَحـشـورًا في الركـن الفاصـل بـين سـقف الشُرفـة ونهاية الخزانـة الخشـبية، بـدا أنـه عُـــش جديـد تحـت الإنشـاء، ذكـرّني بشـذرات الروايـة الـتي لـم تكتمـل، أنزلـتُ العـشَّ ووضعتـه فـوق السـور.

شُـغِلتُ مـع العُـمّال وإعـداد الشـاي والقهـوة حـتى انصرفـوا بعـد المغـرب بقليـل. وفي المسـاء صنعـتُ فنجـان قهـوة سـوداء قويّـة، وأضفـتُ إليهـا قطرتـيْن مِـن الكونيـاك الأرمـني المعتَّـقِ، وذهبـتُ إلى الشرفـة، أتطلّـع لسـكون مقابـر البسـاتين، الـتي كانـت شـهودها لائحـةً في الأفـق عـلى ضـوء مصابيـح سـيارات الميكروبـاص.

لـم أكـد أجـرع رشـفة واحـدة حـتى سـمعتُ رنـين هاتفـي المحمـول، كان أبي. كنـتُ أتوقّـع المكالمـة، بـل وأحـدسُ مضمونهـا. فكّـرتُ في ردّ سريـع ومُقنِـع. وقـع بـصري عـلى العـشّ الـذي لـم يكتمـل، فأخبرتـه أنّ صفحـاتِ الروايـة متشـابكة ومضطربـة مثـل عُـش عصفـورٍ في طـور الإعـداد، وأن المسـوّدة ينقصهـا الكثـير لتكـون صالحـةً للقـراءة، وأنّـه لـن يطالـع ورقـةً، إلا وسـيجد نسـيجها مُـهـــلهلًا مِـن كـثرة الثقـوب والفجـوات الـتي تمـلأ السـردَ والأحـداث، وأنّهـا عـلى الأرجـح شـذرات عمـل لـم يكتمـل، فطلـبَ أبي المـرورَ بـه في أقـربِ فرصـة.

أبي رَجـلٌ واسـع الثقافـة، شـغوفٌ بالقـراءة، وبالكتابـة أيضًـا، ولعـلَ ذلـك كان السـبب في غرقِـه في ذلـك الصمـت الأبـدي، الـذي اسـتمرَّ معـه حـتى في أحلـك لحظـات حياتنـا. حـينَ قـرّرتُ الانتقـال إلى شـقّة

الفسـطاط الجديـدة قبـل سـنتيْن، عـثرتُ داخـل حقيبـة سـفر سـوداء قديمـة عـلى أعـدادٍ مِـن مجلـة العـربي الكويتيـة، تعـود لسـبعينيّات القـرن المـاضي، بالإضافـة إلى روايـات مترجَمـة إلى العربيـة، أغلبهـا عـن الفرنسـية لبلـزاك وأندريـه جيـد وسـارتر ومارسـيل بروسـت. كنـت ألاحِـظ دائمًـا وجـودَ علامـاتِ قـراءة، وأعقـاب سـجائر، وأطـلالٍ غاربـة لعطـرٍ أنثـويّ عتيـق، لـم يفـارق صفحاتِهـا يومًـا.

***

في إجـازة الصيـف، الـتي كنـا نقضيهـا في شـاليه المعمـورة، كان يجلـس معنـا سـاعاتٍ قليلـة، ثـم ينسـحب بهـدوء إلى أحـد أركان الشـقّة وفي يده كتـابٌ أو روايـة، لـم يكـن يـنزوي في غرفتـه، بـل كان يتعمّـد الجلـوسَ معنـا في صالـة الشـقّة أثنـاء مشـاهدة أمـي وأخـي فيلمًـا أو مسلسـلًا، ومهمـا ارتفـع صـوت التليفزيـون، لـم يكـن يرفـعُ رأسـه ليطلـب خفـضَ الصـوت كي يتمكّـنَ مِـن القـراءة، كمـا لـو أن الكلمـات كانـت مثـل ندّاهـة البحـر تسـحبه بعـدَ تخديـره. إلا أنّـه كان ينسـحب أحيانًـا ليتحـدّث في التليفـون الأرضي وحـدَه، بعـد أن يكـون قـد أوصـد بـاب غرفتـه بالمفتـاح، لتسـتمرَّ المكالمـة نحـو سـاعة، وأحيانًـا سـاعتيْن. وكان ذلـك يحـدث أيضًـا أيـام الجمعـة، حيـث كان يغيـب بعـد الصـلاة مِـن كل أسـبوع، ولا يـأتي إلا عنـدَ المسـاء، وكنـت ألاحِـظ شرود أمـي العميـق سـاعتَها، كمـا ألاحِـظ دموعًـا مكتومـة تـأبَى الخـروجَ أمامَنـا.

لـم يـترك أبي كلمـة «العـشّ الأشـعث" الـتي أشرتُ إليهـا في مكالمـة الهاتـف الأخـيرة، تَـمرُّ مـرور الكـرام. ذهبـتُ إليـه قبل أسـبوع، وجلسـنا في شرفـة الشـقّة الـتي كانـت رئـةَ أبي، ومتنفسَـه ومركـزَ عالمِـه. كان

الوقت مساءً، والشرفةُ مرضاءةٌ بمصباح يتوسط السقف، يَبثُّ نورًا خفيفًا، وقد أُسدِلتْ ستائر البلاك أوت المحيطة بالشرفة، باستثناء فتحة صغيرة، يحدّقُ فيها على الدوام، لا بل يحدّق فيها مرّتين؛ الأولى حين يستيقظُ فجرًا، فيبقى هكذا ساعتيْن أو ثلاثًا، والمرّة الثانية وقتَ المغرب، فيبقى مُحملقًا هكذا وراء الشيء، الذي كان يعتقدُ أنَّ الجميع يجهل حقيقته. كان أبي جالسًا فوق مقعده مُحدَقًا إلى البقعة نفسِها، أشجار الصدأ التي كانت تتوارى وراءها فيلا صغيرة، على بُعدِ أمتارٍ مِن منزلنا. أردتُ استباق الحديث، فأخبرته أنني أمرُّ بما يُسمَّى «حبسة الكتابة»، وأنني عالقٌ في مسوّدة الرواية، ولا أستطيع المُضيّ قُدُمًا في الأحداث. اكتفى أبي بالابتسام دونَ التعليق. راح يحكي عن شركة تطوير عقاري ساهمَ في إنشائها في دولة خليجية، واستقالَ لظروف مرضِه الأخير، وقال أنّ اسم الشركة هو «النسَّاج للمساكن الذكية»، وإنّ إدارة الشركة استوحَتْ ذلك الاسمَ مِن طائرٍ مشهور يعيش في السعودية، اسمه «النسَّاج» أو «الحبّاك» weaver`s bird، اكتسبَ اسمَه مِن طريقته العجيبة في نسج عُشّه، حيث يُمكنه بناء العشِّ في أي مكان، على سفوحِ الجبال وفوقَ الأشجار، في القفار والوديان، وربما في الشرفات المهجورة أيضًا.

- يونس.. لهذا الطائر قِصةٌ غريبة، فهو يألَف الأماكنَ الجديدة بسرعة، ويحِبّ بناء العشّ بنفسه، وخاصةً الأبواب، وهو طائر هائمٌ بأنثاه، يتناوب الذَّكَر والأنثى على بناءِ العشِّ في اتفاقٍ غريزي عجيب، في الصباح يقوم الذَّكَر بجمع أوراق العشب الذابلة، وبقايا فروع الأشجار ليرصّها دون ترتيب في أثناء نوم أنثاه، وحين ينام الذَّكَر، تقوم الأنثى بإعادة تجميع الأوراق والقشِّ لبناءِ عشِّ

مُـحـكَـم، فيسـتيقظ الذكـر ليجـدَ الثغـراتِ الـتي تَركهـا في العـشِّ قـد اكتمَلَـت، ومِـن هـذه الفكـرة بـدأت الشركـة تطـور مشروعاتِهـا السـكنيةَ لتجسّـدَ مفهـوم العـشّ الصغيـر.

- أريـد أن أحـكي حكايـتي الشـخصية، لكنهـا لا تتمكـن مِـن الخـروج، وكأنهـا محبوسـةٌ داخـل قفـصٍ حديـد، مفتاحُـه ضائـع.. كل مـا كتبتُـه كان قِصّـة صديـقٍ قديـم، قَـصَّ عـليّ حكايـة، ولكنـني لـم أنسَـه يومًـا، ولـم أنـسَ حكايتَـه.

- الحكايـات كلّهـا ضرْبٌ عـلى وتـرٍ واحـد.. حكاياتـك هـي حكايتـه، كل مرِنـا يحمـل حكايـة شـخصٍ آخـر ويطبقّهـا عـلى نفسِـه.

- لا أفهم؟

-كل حكايـة خُلِقَـت لتُكمـل حكايـة أخـرى، الكتابـة هـي أن تصنـع عالمًـا مُتخيَّـلًا لـتروي أشـياءَ لـم تَحـدث كما كانـت عـلى أرض الواقع، فتجربـة كل واحـدٍ منـا أعـقـد مـن أن تـُروى في حـدث فـنيّ واحـد، الروايـة تحـاول فقـط أن تحـدث، أن تجـسَّ أرض الواقـع بأطـراف الأصابـع، دون الخـوض في حقيقـة مـا جـرى، الروايـات كلهـا ناقصة، لأنهـا مـن صنـع خيـال، والخيـال أروع مـن أن يكتمـل، يونـس.. يمكِنُـك أن تـروي مـا تريـد عـلى لسـان آخريـن وتُسـقِط حكايتـك عـلى ألسـنتِهم، وليـس مِـن الـضروري أن تكـون أنـت مَـن يـروي، امنـح فرصـة للآخـر أن يُكمـل حكايتـكَ، أو أن يزيدهـا غموضًـا.. اطمـئن.. لا فـرق.

- ولكـنّ هنـاك أشـياءَ لا يمكنـني التعبـير عنهـا، تخونـني الكلمـات.. وأخـشى إعـادةَ سردِ مـا جـرى.. أنـت أدرى مِـني.

-لا تخـــفْ.. اكتـب مـا تشـاء، ثـمّ ادفـن سِـــرَّك داخـل صنـدوق

وألقـه في البحـر.. الجمهـور لا يبحـث عـن الحقيقـة، بـل تروقـه الأكاذيـب المحبوكـة بمهـارة؛ الحقيقـة صادمـة دائمًـا، والجمهـور يكـره الصدمـات، الأفضـل أن نداعبـه، وندغـدغَ خيالـه ببعـض الأكاذيـب البريئـة، المربوطـة بخيـطٍ خـفيّ في سقـف الحقيقـة العـالي.

- ولكن قد يصير العمل ساعتَها.. غامضًا.. لا معنى له.

- هـل تعْلـم كـم قـرأتُ في حيـاتي؟ مئـات الروايـات.. كنـت أقـضي سـاعاتِ الفـراغ الطويلـة في مواقع العمـل في الصحراء، وحيدًا لا تُـسلّيني سـوى هـذه الروايـات، تعلمـتُ بمـرور الزمـن أن جمـال أيّ روايـة نابـع ممـا أُخفِـي ببراعـةٍ بـين سـطورها، والكتابـةُ الصادقـة هـي الـتي تغـوي خيـال القـارئ بالمـاء، ولا تـروي فضولَـه، فيظـلّ سـرّ الروايـة مخبـوءًا داخلهـا مثـلَ لؤلـؤةٍ بِكـرٍ داخـل محـارة.

- هل هذه مهارة في الكتابة أم في إخفاء الأسرار؟

- ليس عندي أسرارٌ كي أخفيها.

- وارِد طبعًـا.. لكـن لمـاذا تـروي لي ذلـك الآن؟ لـم أرَك يومًـا تكتـبُ شـيئًا؟!

- مَـنْ قـال لـكَ؟! لقـد مَـلأتُ دفاتـرَ بشـذرات وقصاصـات حكايـات.. كنـت أظـنّ أنـني أسـتعِد لعمـلٍ كبـير.. بقيـتُ سـنواتٍ داخـل هـذا الوهـم.. ولـم أكتـب شـيئًا.

- ولماذا لم تكمِلها؟

- إكمـال الحكايـة كشـف حسـاب مـع حيـاتي، وقـد فـات أوان الحسـاب.. الحكايـة مُكتملـة داخـل ذهـني، ويكفيـني ذلـك.

***

أخرجتُ مظروفًا بُنيًّا مِن حقيبتي الجلدية الهافان، وسحبتُ منه الدفترَ وأعطيته لأبي. لم يُبدِ أبي أي ردّ فِعل. مَدّ يدَه، وأخذ الدفتر ووضعَه إلى جِواره فوق سور الشُرفة الرخامي. نـــدَّ صفيرٌ قصير مِن ساعة اليد الرقمية، فانتبهتُ إلى أن الساعة قد تجاوزَت الثانيةَ عشرةَ ليلًا.

سألني أبي البقاء معه تلك الليلة، فأخبرته بموعد عملٍ مع مدير وكالة الأنباء صباح اليوم التالي، وضرورةِ الانصراف لإنهاء تقريرٍ مهِمّ.

وعدتُه بالمرور عليه بعد يومَيْن، أي يوم الخميس (اليوم الذي أكتبُ فيه هذه الكلمات)، بعد مغادرتي الشقّة، بقيتُ أسير قليلًا في شوارع ميدان الجامع الضيّقة. مشيتُ حتى وصلتُ الشارعَ المؤدي إلى مستشفى كليوباترا، وبقيتُ أدور في شوارع مصر الجديدة أتنسّم هواءَ نهايات أبريل، مستحضِرًا أشياءَ ولَّتْ واختفت إلى الأبد.

***

جَرَت عادتي في الكتابة على الاحتفاظ بمسوّدتيْن، والسبب تجربةٌ قاسية حدثت منذ زمن طويل، كتبتُ قصة طويلة أنفقتُ فيها ليالي، وخبأتها في دولاب ملابسي، فعَثر عليها أخي ذاتَ يوم، ومزّقَها ليصنع منها مراكبَ ورقية، صنع عشراتِ المراكب مِن أوراق دفتري، وملأ حوضَ الاستحمام بالماء وأغلق الباب وراءه، ثمَّ غابَ نحو ساعة، فلمْ ننتبِه إلى اختفائه. أخبرتُ أمي، فعنّفَته تعنيفًا شديدًا، لكنّه لم يتوقف عن الضحك رغم ما ناله مِن تقريعٍ متواصلٍ مِنها، لكنَّ مرارة ما فَعل داخلي لم تفارقني يومًا.

منذ ذلك الحين، صِرتُ أحرَّر نسختيْن مِن كل عمل، بل مِن كلّ ما أكتب، حتى الخطابات والرسائل التي كنتُ أبعثُ بها لوالديَّ أثناء

سفري -فترة الصيف- إلى خالي في هامبورج؛ أكتبُ الورقة الواحدة مرتيْن، وبمجرد أنْ أُنهِيَ صفحةً في دفترٍ، حتى أبدأ الصفحة ذاتَها في الدفتر الثاني.

في أثناء إعادة كتابة الصفحة نفسها في الدفتر الثاني كانت تطوّقِني أفكار وأحداث وشخصيات جديدة، فكنت أرخي الحبل لينطلق حصان الكتابة الجامح، واثقًا أن الحصان الجامح لن يضل طريقه أبدًا. وكنت حين أنهي الفقرة، وأعيد قراءة الصفحة، أُدهَشُ حين ألاحظ تبدّل الأحداث، ومواقف الشخصيات مِن دفترٍ لآخر، وكأنّ الحروف في انتقالها مِن دفتر إلى آخر مثل طفلٍ ينتقل مِن حضنٍ إلى حضن، فتتبدّل مشاعره، وردود أفعاله بتبدُّلِ الحاضِن، ولكنّه لا يتوقف عن البكاء إلا في حضنٍ بعينِه.

وسرعانَ ما امتلأ الدفتران، مثل عُشّ الطائر الحبّاك، بشبكةٍ مِن الشذرات والمَشاهد والحكايات، وسرعانَ ما حفرَتْ أكاذيبي البريئة مكانها الراسخ في قلب الدفتر، الأكاذيب التي كنت أضيفها يومًا بعدَ يومًا إلى الدفتريْن كليهما، فالتفَّتْ الساق على الساق.

بمرور الوقت تعلّمتُ ميزة كتابة القصة نفسِها في دفتريْن مختلفيْن؛ أدركتُ أن الكلماتِ مثل الأطفال تسأم سريعًا، وتؤثِر الانتقالَ مِن حالٍ إلى حال؛ الكلمات كل يومٍ هي في شأن. السؤال الذي طالما طرحتُه على نفسي ولم أعثر على إجابة، كيف يمكن للحدث ذاتِه أنْ يُروَى مرّتيْن بطريقتيْن مختلفتين؟ ربما أعثر في نهاية القصّة، وربما لا يحدث شيء. بعد الانتهاء مِن التدوين، كنت أضع النسختَيْن كلتيهما متجاورَيْن في دولاب الملابس، وكان السؤال الأخير الذي طرحته على نفسي قبل أنْ أحمل نسخةً مِن المسوّدتَيْن إلى أبي: أي النسختيْن أعطيه؟ الأولى أم الثانية؟ فكّرت كثيرًا وقررت

إغمـاض عيـني وسـحْبَ أول نسـخةٍ تطالهـا يـدي، وفعلـتُ.

***

صبـاحَ اليـوم، وقبـل قدومي إلى شـاليه المعمـورة مـع سـارة، مـررتُ بمـنزل أبي كمـا وعدتـه.

يسـتيقِظ أبي عـادةً قبـل الفَجـر ليجلـس في شُرفـة الشـقة، شـارِدًا، مُـتطلعًا إلى «أشـجار الصـدأ»، أو أشـجار الفيـكاس الكثيفـة. صِرتُ عـلى يقـينٍ كامـلٍ مِـن أنهـا أكلَـتْ روحَـه، كمـا التهمـتْ شـبابه. كانـت عينـاه لا تفارقـان فيـلا صغـيرةً متواريـة وراء «أشـجار الصدأ». هبطـتُ إلى الطابق الأسـفل، وأعـددت الفطـور لكلَيْنـا. الشرفـة المُلحَقـة بالطابـق الأول لمنزلنـا مسـتطيلة واسـعة، بهـا كرسـيّان مِـن البامبـو المبطّـن بوسـائدَ خفيفـة. إلى جِـوار كـرسي أبي طاولـةٌ خشـبية لهـا قـرصٌ عريـض مسـتدير مِـن الخشـب المطعّـم بالصـدف، فوقَـه بنّـورة زجاجيـة سـميكة، كان يضـع تحتَهـا صورتنـا، أخـي وأنـا جالسـيْن في حجـرِ أمـي عـلى شـاطئ البحـر. فـوقَ البنّـورة سـخّان كهربـائي صغـير الحجـم لإعـداد الشـايّ، وماكينـة قهـوة كهربائيـة لإعـداد القهـوة الـتركي، وأكيـاس شـاي أسـودَ وشـاي أخـضرَ.

جَـذبتُ الطاولـة، ووضعـت صينيـة الفطـور فوقَهـا. بدأنـا في تنـاول الطعـام بـلا كلام، ولا تبـادُل نظـرات، لـم يُـشِر أبي لموضـوع الروايـة مِـن قريـبٍ أو بعيـد، وكـأنَّ شـيئًا لـم يَحـدث. اكتفـى بلقيمـات مِـن طبـق عسـل النحـل، ثـمَّ جـذبَ علبـة البسـكويت بالشـوفان مِـن فـوق الطاولـة المجـاورة وأخـذ يغمـس قِطـع البسـكويت بعـد كسرهـا إلى نصفـيْن متسـاوييْن داخـل كـوب الشـاي باللـبن.

- هل قرأتَ حظّكَ المدوَّن على جزازة كيس الشاي «الفَتلَة»؟

- أعرِف حظّي جيدًا.. لكني لم أنتبِه يومًا إلى هذا الـ label..

- أنتَ روائي يا يونس.. والشيطان يكمن في التفاصيل.

رفعتُ كيس الشاي «الفَتلَة» مِن الكوب ونظرت إلى الورقة: «كل حكاية مقسومة إلى نصفين»؟

- لا.. ليسَ هناك سوى حكاية واحدة.

- بالمناسبة..عَمّتك «فوزية» اتصلتْ وأخبرتني بحكاية أودُّ أخْذ رأيك فيها؟

- خيرًا.

- زارها بالأمس هاني وطلعت ابنا المرحوم «عمّكَ» إبراهيم، وحاولا التوسّطَ بينكَ وبين «يحيى»؟

- تشرب قهوة يا بابا؟

- أسلوبك الجديد؟

- اعذرني.. مضطرّ للسفر إلى الاسكندرية بعدَ ساعة.. ظروف عملٍ طارئة.

- شغل يوم الجمعة؟!

- آه.. لقاء صحفي مع مدير مكتبة الاسكندرية، ضربَ لي موعدًا اليوم لأنه مشغولٌ على الدوام...

- طريق السلامة.. هل ستقضي ليلتك في شاليه المعمورة أم ستعود اليوم؟

- غالبًا سأقضي الليلة في الشاليه، وسأعود صباح السبت.

- مفتاح الشاليه معك طبعًا؟

- معي نسخة مِن المفاتيح كلها.. لا تقلق.

- لـو انقطعـت الكهربـاء كمـا كان يحـدثُ معنـا، سـتجد الشـمعدان النحـاسي فـوق مكتـبي في حجـرة النـوم الرئيسـية، تركتـه هنـاك في آخـر زيـارة مِـن سـنتيْن.

- بابـا.. ألـن تُشـذِّبَ يومًـا فـروعَ أشـجار الفيـكاس، الـتي أصبحـت أوراقهـا الذابلـة تمـلأ الشُرفـة؟

- لو قطعتها.. ماذا سيبقى لي؟

- طالما طلبَتْ المرحومة مِنك قطعَها...

- الله يرحمهـا.. مَـنْ يـدري.. ربمـا نتقابـل جميعًـا ذات يـوم.. مَـنْ يعلـم؟

- مَنْ تقصِد بـ(جميعًا)؟ أنا وأنت وهي فقط؟

خرجـتُ مِـن الشُرفـة، قاصـدًا السُـلَّم. مـررتُ بحجـرة النـوم المجاورة لغرفـة نـوم أبي. كان البـاب مغلقًـا، وضـوءٌ خافِـتٌ يتسـلّل مِـن زجـاج البـاب العُلـوي المغبّـش. وقفـتُ عـلى أطـراف أصابعـي لأنظـرَ عـبْر الزجـاجِ، فرأيـت سـوادًا يَـذرع الغرفـة ذهابًـا وإيابًـا. شـممتُ رائحـة دخـان سـجائر كثيـف يتسـلّل إلى أنفـي عـبْر ثقـب البـاب، وسـمعتُ همهمـات. أمسـكت بالمقبـض الـذي كان بـاردًا. لـم أقـوَ عـلى فتـح البـاب، إلا أني صافحتـه بلمسـةٍ خفيفـة. في أثنـاءَ هبـوط درجـاتِ السُـلَّم الرخاميـة انحنيـتُ مُلامسًـا حـوّاف السـلالم الحـادّة، مـرّرتُ بأناملي على أركان الحائـط، شـممتُ سـجادة الصـلاة، وأخـذتُ أمـرّرُ أصابعـي تحتَها، نزلـتُ بضـعَ سـلالم، مُـتحسسًا بأطـراف أصابعـي البُسُـط المفروشـة فوقهـا. عنـد الركـن الملاصـق للحائـط، اصطدَمـت كفـي بحبّـة خـرزٍ ذات وجهـيْن.

«مستحيل! ألا تزال موجودة؟».

لثمْتُ الخرزة بشفتَي، وضعتها في جيب قميصي. خرجتُ بعد أنْ أغلقتُ باب المنزل ورائي بهدوء.

***

حين وصلتُ إلى شقّتي كانت سارة قد حزَمَتْ حقيبة سفرِنا بالفعل. لمحْتُها واقفة في الشرفة تتحدث في تليفونها المحمول وهي تدخّن. خرجتْ إليَّ بعد دقيقة، وأشارَتْ إلى حقيبة بلاستيك شفافة فوق السرير، تبرز منها علبة كرتون متوسّطة الحجم.

- سنأخذها معنا.

- ما هذه؟

- اختراع انجليزي يا حُبّي.. آلة الزمن الجديدة.. قرّرتُ أخذَها إلى المعمورة.. وسيحين أوانها.

دقّت ساعة يدي الرقمية، معلنةً التاسعة صباحًا. أسرعتُ إلى دولاب ملابسي، وسحبتُ الدفترَ مِن الرفّ الأخير، ثمّ وضعته داخل حقيبة اللاب توب، وغادَرنا.

- حبيبي.. لقد أغلقتُ للتوّ مع «أماني».. ستنتظرنا في «ميدان الرماية» في أقل مِن ساعة.

***

وصلنا الشاليه في التاسعة مساءً، ما إنْ فتحنا الباب حتى انقطع التيار الكهربائي. لُذنا بضوء الشمعدان النحاسي الوحيد في حجرة النوم بالطابق الأعلى، الذي أخبرني عنه أبي صباحَ اليوم. سبقَتني سارة إلى الحمّام بعد أن خلَعَتْ ملابسها. لم تكن سارة تخشى

الاستحمام في الظلام.

أخذَتْ حمامًا، وخرَجت ملفوفة بمنشفة بيضاءَ قصيرة، كشفت نصف جسدها الأسفل. بدا جسدها جميلًا على نور الشمعدان. ابتسَمَتْ، وجلستْ على طرف السرير. راحت تجهّز ماكينة القهوة، ثمّ أخرجتْ مِن حقيبة السفر برطمانًا زجاجيًا يحوي قهوة Tchibo Feine Milde.

أضافت القهوةَ إلى الفلتر المخروطي، ووضعتْ كوبها الفخّار أسفل صنبور القهوة، متلمّسَةً موضع مقبس الكهرباء، لتوصِيله بسلك الماكينة حتى عودة التيار الكهربي.

- حبيبي.. ضبطتُ المنبّه على الثانية بعد منتصف الليل.. لم أخطّ كلمة في مشروع الرواية المطلوب مِنا إنجازها قبل نهاية مايو.. يجب أن أستيقظ لأكتب أيَّ شيء.. وربما أوقظكَ لتسبح معي.. ما رأيك؟

- وأنا أيضًا.. سأجلس قليلًا لإعادة قراءة ما كتبتُ.... ولكني لا أحِب السباحة ولا البحر.

أزالتْ المنشفة وارتدتْ قميصًا طويلًا، ثمّ ارتمَت على السرير، وغطَّتْ في نومٍ عميقٍ بمجرد أن لامس رأسُها الوسادة.

والآن.. ماذا بعد؟

أمامي الآن بضع ساعاتٍ حالما تستيقظ سارة. وقد تأخذني مراجعة مسوّدة الرواية، فأبقَى متيقظًا. مَن يدري ما ستأتي به هذه الساعات لي ولنصفي الآخر، النائم ورائي. بعدما سطرتُ هذه الكلمات، توقّفَ القلم. خامَرني شعور أنني لا أستطيع خطَّ كلمةٍ واحدة، ولا على استدعاء ذكرى واحدة، ولا التخطيط لمشهدٍ واحد.

قـرأتُ يومًـا -في أحـد المواقـع الـتي تُقَـدم نصائـح الكتابـة- نصيحـةً مفادهـا: إذا أُصِبـتَ بِحُبْسـةِ الكتابـة، فعليـك بإعـادة قـراءة مـا كتبـتَ، ربمـا تعـثر عـلى كلمـةٍ هنـا، أو مشـهدٍ هنـاك، يكشِـف لـك سـبيلًا لدفـع القصّـة إلى الأمـام. سـأعيد قـراءة مـا كتبـتُ، لعـلي أجِـد شـيئًا يُعينـني عـلى الاسـتمرار في حلَبـة الملاكمـة الـتي تكلّـمَ عنهـا أبي، فـإنْ كنـتُ قـد نسـيت شـيئًا، فـلا عزاء لي سـوى عبـارة «وجـيـه أبـو لـوزة»: ...الحكايات كلّهـا شـذرات.. مَـن ذا الـذي يملـك حكايـةً مُكتمِلـة؟

***

-٢-

عادةً ما يَحمل الإنسان القصة ويُطبّقُها على نفسِه

جون شتاينبك

تعرّفتُ إلى وجيه أبو لوزة بعد تخرّجي في الكليّة بشهريْن. كان أبي قد طلب نقلةً مِن الشركة الأمّ بجدّة إلى فرعها بالقاهرة بعد إصابته بانزلاقٍ غضروفي، اضطر معه لإجراء جراحةٍ دقيقة في العمود الفقري، وملازمة الفراش فترةً تزيد على خمسة شهورٍ، تلَتها جلساتُ علاجٍ طبيعي طويلة. وبعد تماثِله للشفاء عرَضَتْ عليه الشركة السعودية وظيفةَ مشرفٍ عام على التصميمات الهندسية للمشروعات العقارية التي تطوّرها في المدن الجديدة في مصر: الشيخ زايد وأكتوبر والتجمع الخامس. عِشنا في عمارة أشبَه بفيلا صغيرة في شارع الجيزة، وهو أحد الشوارع الجانبية في منطقة ميدان الجامع. كان المنزل في الأصل مملوكًا لجَدّي والدِ أمي، العميد بحري إسماعيل عبدالله الأنصاري، لكن جَدّي كان قد حرّرَ عقد بيعٍ مسجلًّا في الشهر العقاري -قبل استشهاده بسنةٍ في إحدى العملياتِ السرّية في البحر الأحمر- ليكون المنزلُ ملكيّةً خالصةً باسم أمي، لا سيما بعد تنازل خالي فهمي عن الميراث إثرَ هجرته إلى «هامبورج» في ألمانيا، دون عودة.

أصَرّت أمي على وضع يافطة خشبيةٍ على يمين بوابة الفيلا

مِـن الخـارج، ليكتـبَ فوقهـا: فيـلا المهنـدس سـعيد أبـو الخـير. كان المـنزل يحتـل شـارعًا جانبيًـا، يتسّـع بالـكاد لسـيارة واحـدة، ويحـوي عـددًا مِـن الفيـلات، ذات الطوابـق القليلـة، والمُشـيّدة في الخمسـينيات والسـتينيات مِـن القـرن المـاضي، ومحاطـةً مِـن كلا الجانبـيْن بأشـجار فيـكاس.

المـنزل مكـوّنٌ مِـن طابقـيْن، يتّصِلان بسُـلَّمٍ داخـلي مِن الرخـام، ذي حـواف حـادّة مدبّبـة. لـم تكـفّ أمـي يومًـا عـن تحذيرنـا مـن ألا نلعـب فـوق درجـات السـلَّم.

الطابـق الأعـلى مكـوّنٌ مِـن حجرتـيْن؛ الأولى لأبي وأمـي، والثانيـة لأخـي الأصغـر، يـحـــيى. كان للمـنزل حديقـةٌ صغـيرة لا تتجـاوز مسـاحتها عشريـن مـترًا، تُطِـل عـلى شـارع جانـبي هـادئ، لا يُسـمَع فيـه سـوى أصـوات العصافـير، وحفيـف أوراق أشـجار الفيـكاس الضخمـة المتراصة في انتظـامٍ مُمِـل، وكانـت تظلّـل الشـارعَ بـأسرِه مثـل قبّـة واسـعة، كان أبي يقـول إنّ اسـمها «أشـجار الصـدأ»، وإنّهـا أحـد أنـواع «أشـجار الفيـكاس»، المنتـشرة في مـصر.

- ولماذا تُطلِق عليها دائمًا «أشجار الصدأ» يا أبي؟

- التعوّد.

- أليسَ هناك سببٌ آخر؟

- لا.

***

كانت أمي قد اعتادت إرسالي إلى خالي في هامبورج بألمانيا في الإجازة الصيفية، فأقيم لديه ثلاثة أشهرٍ كل سَنة، تعلَّمتُ خلالها اللغةَ الألمانية على مدار عطلات الصيف الأربع، وهي فترة دراستي في كلية الإعلام. بعدَ تخرّجي في قِسم الصحافة، توسّطَ أبي لدى أحدِ أصدقائه للحصول على فرصة عمل. كانت الوظيفة «محرر تحت التمرين» في إحدى الجرائد الأسبوعية المشهورة في منطقة وسط البلد. وظيفةٌ بسيطة مؤهلها الوحيد إتقان إحدى اللغات الأجنبية، وكنت أجيد -إلى جانب معرفتي بالألمانية- الترجمةَ مِن الإنجليزية وإليها بسبب سنوات الغربة الطويلة التي قضيتها مع أسرتي، مُتنقّلًا بين الكويت ودبيَ والرياض والبحرين. عمِلَ أبي مهندسًا مدنيًا بإحدى شركات التطوير العقاري التي تنفّذ مشروعاتٍ عملاقةً في دول خليجية عديدة، فكان كثيرَ السفر والانتقال مِن بلدٍ لآخر كل سنتيْن تقريبًا، أو بحسب انتهاء مدة تنفيذ المشروع، ولم نكن نزور مصر سوى في إجازة الصيف، حيث نقضي أسبوعين أو ثلاثة في الشاليه الذي اشتراه أبي في منتصف التسعينيات في منطقة المعمورة، وكان يُطِل على البحر مباشرةً.

في أثناء إقامتنا بالخليج، التحقتُ بمدارسَ تضم تلاميذَ مِن جنسيات هندية وسندية ممن لا أستطيع حصرَه، وكان التعامل في الأغلب باللغة الإنجليزية، وهو ما صقلَ لغتي الإنجليزية مِن ناحية، ودفعني للغرق في القراءة وعالم الكتب، نتيجة التنقّل المستمرّ بين المدارس، مما استحال معه تكوين صداقاتٍ مُعمِّرة، وبعد حصولي على الشهادة الإعدادية، عدنا إلى القاهرة مع أمي، استعدادًا للمرحلة الثانوية، والالتحاق بالجامعة. في تلك الفترة، اعتاد أبي زيارتنا مرّةً شهريًا، حتى أصيب بانزلاقٍ غضروفي في

أواخـر سـنة ٢٠٠٢، وعـاد ليسـتقِر معنـا في مـصر بصفـةٍ نهائيـة.

***

كان مقـر الجريـدة الـتي التحقـتُ بهـا يحتـل طابقًـا كامـلًا في عمـارة قديمـة بأحـد الشـوارع الموازيـة لشـارع عـدلي إلى جـوار مكتـب الكرنـك - مـصر للطـيران؛ شـقة واسـعة مكوّنـة مِـن سِـت حجـرات فـسيحة، عاليـة الأسـقف، وصالـة تحريـر هائلـة المسـاحة، كانـت بمثابة الديسـك المركـزي، القسـم الـذي يتسـلم المـوادَ التحريريـة مِن سـكرتير التحرير، ويراجعهـا، ويعدِّلهـا لِيوَضـع اللمسـات الأخـيرة. الصالـة تُـفضِي إلى شرفـةٍ واسـعة، تُطِـل إطلالـة جانبيـة عـلى شـارع طلعـت حـرب. وكان رئيـس التحريـر، ومالـك الجريـدة في الوقـتِ نفسـه، الأسـتاذ فوزي دُنـيا (عرفـتُ مِـن أبي بالصدفـة أنـه تـوفي العـامَ المـاضي)، رَجـلًا مهذبًـا، بـدا للوهلـة الأولى أنّـه قـادم مِـن عهـد المَلَكيـة، متوسـط القامـة، ممتلئ الجسـد، ذا شَـعرٍ غزيـر أبيـضَ كالثلـج ومصفـفٍ بعنايـة، يرتـدي عـلى الـدوام بذلـة كاملـة، صيفًـا وشـتاءً، وسـكارف نبيـتي أو أحمـر مِـن الحريـر يلفّـه حـول عنقِـه. كان يـأتي إلى المكتـب يوميًـا في موعـد صـلاة الظهـر، أي في الثانيـةَ عـشرةَ ظهـرًا وقـت الشـتاء، وفي الواحـدة (ربمـا بعدهـا أو قبلهـا بدقائـق) حـين يتـم الإعـلان عـن العمـل بالتوقيـت الصيفـي، وكان الجميـع -عـلى اعتيادهـم- يسـتغربون حضـوره في هـذا التوقيـت تحديـدًا.

ولإثبـات الجدّيـة في العمـل، الـتي اكتشـفتُ لاحقًـا أنّـه لـم يكـن ثمّـة داعٍ لهـا، كنـتُ أصِـل المكتـبَ في وقـتٍ مبكّـر، وكلمـة مبكّـر عنـدي نسـبية، قياسًـا بتوقيـت وصـول سـائر الزمـلاء. كانـت رحلـتي مِـن مـنزلي حيـث أسـكن في مديـان الجامـع بمـصر الجديـدة حـتى ميـدان

عبدالمنعم رياض تستغرق ساعةً كاملة في الميني باص الذي يقطع الطريق مِن أمام منزلنا، مرورًا بالخليفة المأمون والعباسية وصولًا إلى ميدان عبدالمنعم رياض.

كان نظام العمل مِن أعجب الأشياء التي رأيتها في الجريدة؛ يأتي المحرّرون والصحفيون جميعهم قبل حضور رئيس التحرير إلى المكتب بدقائقَ معدودة، ولا أعرف كيف كانوا يحسبونها بهذه الدقّة، ينسلّون واحدًا تلوَ الآخَر إلى مكاتبهم مثلَ القطط، مارقين بخفةٍ من بين فتحات ستارة الخرز التي استُبدِلَتْ مكان الأبواب، وكأنهم يعلَمون على وجه الدقة متى سيدخل مِن باب الجريدة. لم يكن الأستاذ فوزي دنيا يهتمُّ كثيرًا بمن أتى ومَن غاب، فدخْلُ الجريدةِ الأساسي قائمٌ على الإعلانات، والمسابقات الأسبوعية التي كان يقدّمها رعاةٌ رسميون، أغلبهم أصدقاء رئيس التحرير.

كان أغلب المحرّرين والصحفيين يعملون بنظام casual، دون عقود عمل ولا تأمينات اجتماعية، باستثناء المراقب المالي، عادل عجايبي. وهو رَجُلٌ أنيق الهيئة، في منتصف الخمسينيات تقريبًا، سمينٌ بشكلٍ مفرِط، يشبِه مذيعَ النشرة الإخبارية الفرنسية التي كانت تتابعها أمّي على شاشة القناة الثانية في أوائل التسعينيات.

كان الأستاذ عادل ذو الرائحة العطرة على الدوام يحظى بكل الامتيازات؛ بدل انتقالات، ومكافأة خاصة نصف سنوية، ومكافأة توزيع أرباح، إلخ. إلا أن الرجُل لم يكن يهتمّ بشيء سوى متابعة شيكات الجريدة لدى الشركات المُعلِنة لدينا، والتي كانت تمثل مصدر الدخْل الأهمّ. فورَ التحاقي بالعمل، مُنِحْتُ مكتبًا خشبيًا صغيرًا عرضُه مِتران تقريبًا وطوله مِتر، وُضِع في ركنٍ خافتِ الإضاءة في أقصى يمين صالة التحرير. كان سطح المكتبِ مُقشرًا تمامًا،

وتتخلّل هذه القشورَ دوائرُ متجاورة متكلّسة.

حين قرّبت بصري قليلًا اكتشفت أنها تكوّنَت مِن أثرِ التصاق أكواب الشاي وفناجين القهوة بسطح الطاولة، ولا سيما مع وجود حبّات سُكّرٍ وبقايا قهوة ملتصقة فوق السطح، فخمّنتُ أن المكتب يخصّ مطبخ الجريدة، ونُقِل هنا في أقصى ركنٍ في صالة التحرير بعدما أصابه البلاء. كان للمجلة معاون إداري واحد يقوم بالأعمال الإدارية الاعتيادية، اسمه «وجيه أبو لوزة»، كانت مهمته الرئيسة هي مساعدة رئيس التحرير في شؤونٍ إدارية بعينِها، غير مسموحٍ لأحدٍ سواه بأدائها، تصوير المستندات الخاصة، وترتيب البريد الشخصي، وتوزيع المنشورات الدورية على المحرّرين الصحفيين، والقيام بالإيداعات البنكية الخاصة برئيس التحرير واستلام الشيكات الشخصية.

كان وجيه في أوائل الأربعينيات تقريبًا، وكنت أنا في الحادية والعشرين. أشقر، قصيرُ الشَّعر مجعّده، يرتدي على الدوام قميصًا أزرقَ أو لبَنيًا فاتحًا فوق فانلة بيضاءَ تطوِّق عنقَه، صيفًا وشتاءً، كأنّه يخفِي شيئًا تحتَها. وعلى الرغم مِن وظيفته المتواضعة، كانت له طلعةٌ مرَهيبة تفرض على أي شخصٍ احترامَه. لم يَبدُ عليه في يومٍ أنّه معاون شؤون إدارية رقيق الحال، إذ بدا لي شخصًا ذا حيثيةٍ داخل الجريدة. وكان أسلوبه يخلو مِن سذاجة وخشونة أبناء مهنته، وكان يستخدِم تعبيراتٍ مهذبةً وراقية تنمّ عن ذوقٍ وثقافة معتدلة. كان الجميع في الجريدة يقصدونه لحلّ مشكلاتهم الشخصية، والتوسّط لدى الأستاذ عادل المراقب المالي لحذفِ أي خصومات.

وبمرور الوقت بدأ يتكشف الأمر تدريجيًا؛ لاحظتُ أن وجيه كان

مرتبطًا بعلاقة صداقةٍ غامضة برئيس التحرير، كان يجلس معه يوميًا بعد أن يصنع له بنفسه قهوةَ الصباح، أو قهوةَ الظهيرة بتعبيرٍ أدق، في تمام الثانيةَ عشرةَ والنصف بعد الظهر مِن كل يوم. يَدخُل رئيس التحرير في موعده، وفي ذيلِه وجيه، يغلقان الباب لمدّة نصف ساعة قبل خروجِ وجيه حامِلًا معه مجموعةً مِن الملفات، ومِنها إلى مكتبٍ صغير في حجرةٍ مجاورة لمكتب رئيس التحرير، لمواصلة عمله.

أُشيعَ أنّه كان يقدّم تقريرًا يوميًا مفصلًا إلى السيد الرئيس حول أدق التفاصيل التي تحدث في الجريدة، وسرَتْ هذه الشائعة حتى صارت حقيقة، على الرغم مِن أن الجميع (بمن فيهم أنا) لم نرَ رئيس التحرير اتخذَ يومًا ردَّ فعلٍ على ما كان يسمعه (أو ما كانوا يزعمون أنّه يسمعه)؛ لا على تأخرّ الموظفين ولا عن تكاسل بعضهم ولا عن انصراف أغلبهم قبل انقضاء مواعيد العمل الرسمية، وكأنّه كان يكتفي بإرسال إشارةٍ إلى أنّه يعرف كلّ شيء، إلا أنّه لن يتخذ قرارًا.

فكان يتركهم هكذا، وهو ما أكسبَ وجيه مزيدًا مِن المهابة والغموض. وبالرغم مِن ذلك كان وجيه شديد الهدوء والتهذّب في تعاملِه مع الجميع. لكنّ خبرتي القصيرة بالحياة، والطويلة بالأدب والروايات كانت تقول شيئًا آخر؛ فهدوء وجيه، ولسانه العَفّ، ومسحة الحزن الغامض التي كانت تعلو وجهَه كانت توحي بأنَّ وراءه سرًا مكتومًا. استرعى انتباهي تعامُل وجيه بحساسية مفرِطةٍ مع القطط، والحقيقة أنّه لم يكن هناك سوى قطٍ أسودَ واحد بلدي. كنتُ أرى وجيه يجلب صباحَ كلّ يوم طبقَ فوم أبيض مغطى بالبلاستيك الشفاف يحوي لانشون مِن النوع الفاخر،

ويجلس القرفصاءَ ليُطعِمَه، ثمَّ يضع له فنجان لبن مِن بوفيه الجريدة.

الغريبُ أنّ هذا القِطّ لم يكن يفارق مكانَه، وبالتحديد أمامي مباشرةً، أمام المكتب الذي أجلِس عليه. لاحظتُ أنّه لا يتجوّل في المكانِ مثل القِطط العادية؛ بل يغفو، ويصحو، ويأكل، ويشرب إلى جِوارِ قوائم المكتب، راقدًا الرقدةَ نفسها وكأنّه يحرس المكتب أو يحرسني، أو ربما يحرسُ شيئًا آخر.

***

حينَ عرّفتُ نفسي إلى وجيه، ابتسمَ ابتسامةً غامضة وقال إنّه يعرفني، لأن رئيس التحرير اعتاد إطلاعَه على السِيَر الذاتية للمحرّرين تحت التمرين الذين يلتحقون بالجريدة، فخمنّتُ أنّه يعرِف صداقة أبي برئيس التحرير.

- هل تعرف أيضًا موضوع الوساطة يا أستاذ وجيه؟

- أولًا بدون أستاذ، لستُ أستاذًا.. حضرتك ابن المهندس سعيد أبو الخير، المُشرِف على تشطيبات فيلا الشيخ زايد.. هل توجد مشكلة لمعرفتي بالأمر؟

- لا إطلاقًا.. تصّورتُ أن رئيس التحرير لن يخبِر أحدًا عن موضوع الفيلا.

- لا تَقلق.. فوزي بك دنيا يمتلك شقّة أخرى دوبليكس في القاهرة الجديدة.. أنا بئر الباشا.. أهلًا بك يا أستاذ.. ربنا يوفقك.. لكن مِن الواضح عليك أنّك انطوائي.

- لستُ انطوائيًا.. لكني انتقائي.. أقصد.. صداقاتي نطاقها

محـدود.

- لاحظـتُ ذلـك.. اختلاطـك محـدود بالزمـلاء هنـا.. مثـلي تمامًـا.. وهذا أفضـل، فمصاحبـة القطـط أفضـل.. عـلى فكـرة أنـا «شِـبه» خريـج كليـة الآداب، قِسـم لغـة عربيـة.. وقـرأت كثـيرًا في عِلـم النفـس وأعـرف الفـرْق بـين الانطـوائي والانبسـاطي والانعـزالي والمنفتِـح والهسـتيري والنرجـسي.. ومـا رأيـك في العمـل في الجريـدة؟

- هـذا أول أسـبوعٍ لي تقريبًـا.. ولا أسـتطيع تكويـن فكـرة عامـة.. لكـن تمـام.. مـاشي الحـال.. وبمناسـبة القطـط عنـدي سـؤال يـحـيرني منـذ اليـوم الأول.. أليـس غريبًـا موضـوع القطـط في الجريـدة؟ لأول مـرة أرى قطًـا بلديًـا يتجـوّل بحريّـة داخـل أروقـة جريـدة!

- آه.. تقصد «باستي».. وهل اشتكى مِنه أحد؟

- اسـمه «باسـتي»! في الحقيقـة لا.. مطلقًـا، شيء عجيـب.. وكأنَّ أحـدًا لا يـراه سـواي، كمـا أنّـه قـطّ غريـب، يتخـذ وضعيـة «أبي الهـول» طـوال النهـار أمـام المكتـب الـذي أجلِـس إليـه، ولا يفتـح عينيـه إلا حـين يـرى أحـدًا يقـترب مِـن المكتـب.. أحِـسُّ أنّـه يحـرس شـيئًا.

- لا تشـغل بالـك يـا يونـس.. هـذا قِـط مسـكين، وجدتـه أمـام بـاب العمـارة منـذ سـنوات، ورقَّ لـه حـالي، جلبته ليـصيد الفـئران الفضولية.

حـينَ جلسـتُ إلى المكتـب للمـرة الأولى لفـتَ نظـري صنـدوقٌ خشـبي متوسـط الحجـم أسـفل قدمـي مبـاشرةً، كان محشـورًا بـين نهايـة قوائـم الطاولـة والحائـط. في البدايـة حاولـت إزاحـة الصنـدوق قليلًا إلى الأمـام أو إلى يمـين الطاولـة كي أتمكـنَ مِـن فـرد قدمـي، لكنـني سـمعت صـوت اصطـدام آنيـة زجاجيـة بمجـرد تحريـك الصنـدوق. تـردّدتُ في سـؤال وجـيـه عمـا يحويـه الصنـدوق كي لا أَظهـرَ بهيئـةِ المتطّفـل في

أول أسبوع عمل، فانتظرتُ حتى بداية الأسبوع الثالث.

حضرتُ في هذا اليوم مبكرًا، وأقصِد بـ»مبكرًا" الساعة الثامنة والنصف. حينَها كان وجيه يشرب الشاي في شرفة الجريدة المطلّة على ميدان طلعت حرب إطلالة جزئية، بحيث يُرى جانبٌ واحد فقط مِن شارع قصر النيل وشارع عدلي. أعددتُ الشاي في كوب زجاجي مِن الأكواب المغسولة فوق حوضِ بوفيه المطبخ، وقصدتُ الشرفة. كان الرجُل مشغولًا في الدندنة بلحنٍ بدا لي موّالًا دينيًا. هشّ وجهه حين رآني بدون سببٍ واضح، فشجعني على الحديث بشأن الصندوق الكائن أسفل المكتب، فسألني مندهشًا وهو يدخّن وينظر إلى المارّة في الشارع:

- وهل هذا مكتب؟

- يعني.. تجاوزًا.. على قدّي.

- لا العفو.. لا أقصد ما فهِمتَ.

قال إنّه يخبئ تموين البوفيه: الشاي والقهوة والسكّر، لأنَّ الأستاذ عادل المراقب المالي، يخصّص له أسبوعيًا مَبلغًا ثابتًا لشراء حِصة محددة لتموين البوفيه، الذي يوضع في المطبخ مجانًا لموظفي الجريدة. لكنه اكتشَف أنَّ حِصة البوفيه تنفد في أول يومين.

«أبو بلاش كتّر منه يا أستاذ.. فيه صحفية صغيرة وبطّاية كده.. بتحطّ على كوباية الشاي الواحدة.. نصف كيلو لبن كل يوم.. تخيّل يا مؤمن على الكوباية الواحدة، وتقولنا محتارة في الريجيم، ربنا يديها الصحّة».

- وهل هناك مشكلة لو حرّكنا الصندوق مِن مكانه أسفل

الطاولة.. لا أستطيع الجلوس يا وجيه وظهري «هايتقطم» بسبب هذه الجِلسة المُرهِقة.

- لا زِلتَ صغيراً على آلام الظهر.. ولو حدث لك مكروه لا قدّر الله، سأبعث بك لأولاد عمّي جودة، في القطيف في السعودية، وتعمِل أقوى مَساج وحمّام مغربي.. حمّام أبو لوزة على اسمِنا.

بطرف عينِه، لمحَ وجيه اهتمامي بحكاية «حمّام أبو لوزة»:

«يبدو أنّك تحِب الحكايات.. وأنا أقدِّر مَن يحِب الحكايات».

أخبَرَني عن قِصة الحَمَّام. قال إنّه حَمَّامٌ أثري يقع في قرية البحّاري في محافظة القطيف في المنطقة الشرقية بالسعودية، وإنّه أُقيمَ بالقرب من «عين أبي لوزة» التي كانت تستخدم مياهها لعلاج الأمراض الجلدية وآلام الظهر والمفاصل.

- ممكن أسألك عن موضوع أبو لوزة؟ أقصد اسم ولا لقب؟

- لا اسم ولا لقب.. حدوتة.. أولًا هذه البقعة محاطة بأشجار لوزٍ كثيفة تظلّل المنطقةَ بأسرِها.. كما أنَّ القمة المشيّدة على بناء الحمّام على شكل نصف لوزة.. بالمناسبة كنتُ أمازحك.. الموضوع انتهى منذ زمن.. الحمّام مغلق منذ سنوات طويلة بسبب الصدوع والتشققات التي أصابت المكان، فقرّرت البلديةُ إغلاقه، أنا اسمي وجيه.. وجيه عبدالغفار الدمسيسي، مِن قرية ميت دمسيس بالدقهلية.

***

يحدث أحيانًا أنْ نلتقي بغرباء، نشعر نحوَهم بانجذابٍ غامض، وبدافع خفيّ يقربنا إليهم، دون أنْ نبادِلهم كلمة واحدة. كان

ذلـك هـو مـا جـرى مـع وجيـه أبـو لـوزة. ولا أعـرف كيـف توطَّـدت أواصِر صداقـتي بوجـيـه. كنـت أصِـل الجريـدةَ في الثامنـة والنصـف صباحًـا، فألمحـه واقفًـا في الشرفـة وقـد أعـدَّ الفطـور. كوبـان مِن الشـاي بالحليـب، يضعهمـا فـوق سـور الشُرفـة الحجـري الممتـدّ إلى الخـارج بمسـافة آمنـة، وإلى جِوارهمـا طبـق مملـوء بالكعـك المحشـوّ بالعجـوة، وأحيانًـا كان يجلـب معـه سندوتشـات فـول وفلافـل مِـن محـل «الجحـش» بالسـيدة زينـب، وهـي مسـافة بعيـدة مـن شـقّته بغمـرة حيـث يسـكن، ملفوفـةً في ورق زبـدة لونـه بـين الأصفـر والأبيـض.

أخـبرني أنـه يعرِفأنـني أنـزل مِـن البيـت في وقـتٍ مبكّـر، وأنـني لا أجِـد وقتًـا لتنـاول الفطـور مثلـه، فـكان يجلـب الفطـور لكلينا. وقبـل أن يضع لقمـةً في فمِـه، كان يُطعِـم القِـطّ البلـدي الأسـود مِـن لفافـة «اللانشـون الفاخـر» الـتي يقطِّعهـا شرائـحَ صغـيرة، وكنـت أتعجّـب دومًـا مِـن رقّـة حالـه، ومِـن أيـن لـه أن يشـتري ربـع كيلـو لانشـون حلـواني يوميًـا لقِـطِّ شـوارع، ويكتفـي هـو بـأكل الفـول، أو قُـرَص الفـرن المحشـوّة بالعجـوة.

- تعـوّدتُ منـذ كنـت طفـلًا في القريـة عـلى الاسـتيقاظ مبكـرًا، في الخامسـة تحديـدًا، وبعدمـا جئـتُ إلى القاهـرة وسـكنتُ شـقّة «غمـرة»، اعتـدت شراء «كعـب الغـزال» مِـن فـرن قريـب مِـن مـنزلي، فـإذا لـم أجِـد كعـب الغـزال، أذهـب إلى محـل الجحـش في السـيدة زينـب لـشراء الفـول، الفـول عنـده حكايـة يـا يونـس.. كانـت أيـام واللهِ في السـيدة زينـب.. شـقّة الأسـتاذ أحمـد منيـب الله يرحمـه.

- هل كنتَ تعرِف أحمد منيب؟

- حبيبي.. طبعًا.. أيام وراحت.

بمـرور الوقـت، اكتشـفتُ أنّـه لا جـدوى مِـن التفكـير في مسـألة توَطـد

الصداقة، وأنَّ هذا التفكير قد يكون راجعًا لأسباب اجتماعية تافهة، لا تليق بجامعي مستنير مثلما كنت أرى نفسي. وكنت كلما عاودتُ التفكير في سرّ هذه الصداقة، كان شيء ما داخل عقلي يُرجِعها إلى عجزي عن تكوين صداقاتٍ ممتدّة، بسبب ترحال أسرتي المتواصلِ بين الدول العربية لظروف عمل أبي، فكان هدوء وجيه، وسِعة صدرِه في الاستماع، سببًا أدْعَى لنشوء هذه الصداقة وتطوّرها.

كانت الغرابة في هذه الصداقة أنني كنت أصدّق كلامه. قال -مثلًا- إنه لم يكمل دراسته في كلية الآداب بجامعة المنصورة بسبب ظروفٍ ماديةٍ قاسية، ألمّت بأسرته بعد وفاة أبيه، واضطرته للنزوح إلى القاهرة بحثًا عن أي وظيفة للإنفاق على نفسه، وأنَّ تكرّر رسوبِه في السنة الثانية بكلية الآداب كان السبب وراء صدورِ قرارٍ بفصله نهائيًا، مُكتفيًا بشهادة الثانوية العامة، وعلِمتُ أنَّ له أخًا أكبرَ توفي منذ زمنٍ إثرَ حادثٍ بشِع، وكان وجيه شديد المَحبة والارتباط بأخيه، فتسببّ ذلك الحادث في انصرافه عن الدراسة وإهمال المحاضرات، بعد احترافه كتابة الزجل والشِّعر العامي الحرّ وبيعِ قصائده لطلبة الكليات الأخرى، وكان يتقاضَى مِنهم مَبالغ رمزية يقتات منها. لكن الحقيقة التي كان يتهامس بها الأستاذ عادل عجايبي أحيانًا، على استحياء مع الثرثارة «شوزانا رفقي»، سكرتيرة التحرير، هي أنّ وجيه قد فُصِلَ مِن الكلية بسبب واقعة غِشّ، تلاها ضرْبُ وجيه لرئيس اللجنة ضربًا عنيفًا، تسبّب في إحداث عاهةٍ مستديمة للرجُل، الأمرُ الذي استوجب فصْل وجيه نهائيًا دونَ حبسِه للحفاظِ على مستقبل الطالب الطائش.

لمْ آتِ يومًا على ذِكر هذا الموضوع، واعتبرتُ ما قاله كذبةً بريئة، وهي الكلمة التي كانت سارة تصِف هذا النوع مِن الأكاذيب

الـتي نقبَلهـا بصـدرٍ رحـبٍ ممّـن نسـتريح إليهـم. كان ذلـك معروفًـا للجميـع في الجريـدة، وكنـت أنـا آخـر مَـن يعلـم، وبمحـض الصدفـة. وعـلى الرغـم مِـن ذلـك لـم أفقـد يومًـا ثقـتي في كلام وجـيـه، رغـم كذبِـه وإخفائـه أشـياءَ أخـرى كانـت تتكشـف بمـرور الوقـت، كمسـألة تأكيـده الغريـب عـلى مسـألة انتظامـه في الصـلاة رغـم علمِـه أنـني غـير مهتـمّ، وموضـوع توخِّـي الدقّـة في حسـابات البوفيـه مـع أنَّ الأمـر لا يعنيـني في شيء.

وكانـت هـذه هـي مشـكلتي مـع وجـيـه، أننـا صِرنـا صديقـيْن، والصداقـةُ تقتـضي القبـول والتصديـق، فلـم أجـد أمامـي سـوى أن أصدقّـه. وربمـا كان السـبب الحقيقـي هـو أنـني لـم أكـن عـلى ألفـةٍ حقيقيـة مـعَ الزمـلاء بالمكتـب، الذيـن كانـوا يتعاملـون معـي دائمًـا بمنطـق الأسـتاذ والتلميـذ؛ عقليـة بدائيـة سـخيفة، رفضَتهـا طبيعـتي الشـخصية.

لـم يسـتمرّ عمـلي بالمجلـة أكـثرَ مِن سـنتيْن، كان مكسـبي الوحيـد مِنها هـو صداقـة وجـيـه أبـو لوزة، الـتي انتهـت بشـكلٍ سريعٍ وغامـضٍ، كما بـدأتْ. امتـدت أحاديثنـا صبـاحَ كل يـوم أثنـاء تنـاول الفطـور، وشُرْبِ الشـاي في شرفـة الجريـدة. في نهايـة العـام الثـاني والأخـير لعمـلي، حدّثتُـه عـن شـغفي بالكتابـة، وعـن رغبـتي في تـركِ العمـل هنـا، والتفـرّغِ للعمـل الأدبي وحـدَه، خاصـةً بعدمـا نـشرتُ بضـعَ قصـصٍ قصـيرة عـلى صفحـات مجلـة «إبـداع» و«الثقافـة الجديدة»، وكان وجـيـه يشـجعني عـلى الـدوام عـلى الاسـتمرار في الكتابـة والإخـلاص لمشروعـي، وألا أكـرّرَ ما فعلَـه.

- لا أفهـم يـا وجـيـه مـاذا تعـني بكلمـة.. «ألا أكـرّر مـا فعلتَـه».. هـل كنـتَ تكتب؟

- هـل لديـكَ وقـتٌ اليـوم يـا يونـس؟ أعـرِف أنّـك لا تخـرج في أيـام الأسـبوع العاديـة.. لكـن اليـوم الخميـس.. سـأدعوك اليـومَ للغـداء والشيشـة في مقهـى شـعبي، لكنـه سـيروق لـك.

كانـت السـاعة السادسـة مسـاءً. قـال إنّـه يعـرِف مقهـى شـعبيا في أحد أحيـاء مـصر الجديـدة، يقـدّم أحـلى شيشـة تفـاح في مـصر، وإلى جـواره أقـوى محـل سندوتشـات في مـصر الجديـدة يقـدّم وجبـات شـاورما وشـيش طـاووق فاخـرة، ونظيفـة أيضًـا.

«لا تقلـق يـا فنـان.. أعلـم أنّ سـكان مـصر الجديـدة «حنبليـين جـدًا» في موضـوع الأكل».

وافقـتُ، وفي أعمـاق عقـلي شيءٌ مـا كان يـصرخ أنَّ وجـيـه لديه حكاية مختلفـة. كان لوجـيـه أسـلوب عجيـب في اجتـذاب البـشر وإقناعهـم بمـا يريـد، مزيـجٌ مِـن خفّـة الظـل، والطيبـة المنقوعـة بخبـثٍ قـروي وثقافـة جيّـدة؛ فكّـرتُ أن مزيجًـا فريـدًا مِـن هـذا النـوع، المغمـوس في كأس شـقاء الحيـاة لـن يُخِـرج سـوى «قمـاش» خـام، يَصلـح لقـصّ ثـوبٍ روائي فاخـر.

في أثنـاء ركوبِنـا الميـني بـاص المتجّـه إلى مـصر الجديـدة، لمحتـه يمـرَّر -أكـثرَ مِـن مـرّة- بكـفّ يـده اليُمـنى عـلى نهايـات شَـعره المجعّـد مِـن ناحيـة القفـا، وكأنّـه يقيـس مـدى طـراوة الشَّـعر، وقـال إنّـه يريـد الذهـاب إلى الحـلّاق، وأنّ محـل الحلاقـة يقـع مبـاشرةً أمـام المقهـى الـذي أشـار إليـه.

نزلنـا في محطـة «تريومـف»، تعجّبـتُ مِـن معرفـة وجـيـه بهـذا المـكان رغـم أني ولِـدتُ في مـصر الجديـدة وأكاد أحفـظ شـوارعها عـن ظهـر قلـب. وازدادت دهشـتي حـين أخـذَ يسـير بي في شـوارع سـانت فاتيمـا وميـدان الإسـماعيلية وتريومـف، مُمْسِـكًا بيـدي، وكأنّ مُبـصرًا

يقـود أعمـى. كان المقهـى يحتـل شـارعًا جانبيًـا، أو إنْ شـئنا الدقّـة، مـا كان هنـاك في الأصـل شـارعٌ جانـبي، إذ كان الشـارع مغلقًـا مِـن الاتجاهـيْن كليهمـا، تسـدّه مِـن الخلـفِ -حيـث نهايـة الشـارع- مقطـورة كبـيرة واقفـة بالعـرض، ومغطـاة ببطاطـين جيـش قديمـةٍ مغـبّرة، ومـن الأمـام المدخـل المـؤدي إلى المقهـى ومحـل السندوتشـات. أمـامَ المقهـى مبـاشرةً صالـون الحلاقـة الـذي كان يقصـده وجـيـه. كان الصالـون أشـبهَ بصنـدوق كبريـت ذي دُرجَـيْن؛ مكـوَّن مِـن طابقـيْن يتصـلان بسـلَّمٍ داخـلي. جـدران الصالـون كلهـا مِـن المرايـا، وأحِـبّ أن أوضّـح شـيئًا؛ لـم تكـن الجـدران مغطّـاةً بالمرايـا، بـل كانـت الجـدران نفسـها عبـارةً عـن مرايـا، مرايـا هائلـة بطـول المحـل وعرضِـه، بـل إنـني حـينَ نظـرتُ إلى سـقفِ الصالـون، رأيـت صـورةَ وجهـي منعكسـةً بحجـمٍ طبيعـي. قبـل اعتـلاء وجيـه مقعـد الحِلاقـة المرتفـع، وبينمـا كان «عـم عبـده» الحـلاّق يجلـب المـلاءةَ السـاتان الـتي سـيطوّق بهـا عنـق وجـيـه، هـمـسـتُ في أذنِـه:

- وجـيـه.. هل كلّ هذا العدد مِن المرايات طبيعي؟

- يـا صاحـبي.. عـمّ عبـده الحـلّاق رَجـلٌ ذو ضميـر.. يحِـب أن يـرى زبونَـه خارجًـا مِـن المحـل وهـو راضٍ تمامًـا عـن الجَـوْدة.

- يـا رَجَـل!! جَـــودة؟ وهـل معـنى الجَـــودة هـذا العـدد الهائـل المريـب مِـن المرايـا؟

- طبعًـا.. يجـب عـلى الحـلّاق دائمًـا ألا يخـادع الزبـون، سـأشرح لـك.. عـادةً لا تكشِـف المـرآة الأماميـة الـتي تكـون أمـامَ الزبـون أثنـاء الحِلاقـة عيـوبَ قَصَـة الشَّـعر، بـل حـتى المـرآة الصغـيرة الـتي يريـكَ فيهـا الحـلاق قفـاك بعـد الحلاقـة، غالبًـا مـا تُظهِـر جوانـبَ وتُخفـي أخـرى، أمّـا أنْ تكـون المرايـا بحجـم الجـدران كلهـا، فهـذا هـو الاختـلاف.

- كيف؟

- لأن الزبون يرى «القَصّة» مِن كل الزوايا.. الوجه والقفا ووسط الرأسِ.. يرى دماغه على حقيقته.

كِدتُ أنفجر ضحكًا مِن تحليل أبو لوزة العبقري لموضوع المرايا، إلا أنني حين فكرت في الموضوع لاحقًا اكتشفت أنّ ما قاله كان منطقيًا. جلستُ على أحد المقاعد المقابلة، منتظرًا فراغ وجيه مِن الحلاقة. كان الصالون خاليًا تمامًا، وكان المساعِد يدخّن سيجارةً بالخارج، إلا أنّه لم يعدْ لتنظيفِ الأرض مِن بقايا شَعر الزبائن، حتى بعد انتهائه مِن التدخين. لاحظت أنَّ عم عبده الحلّاق كان ينقل بصره بيني وبين رأسِ وجيه كل بضع دقائق. تجاهلتُ الأمر في البداية، إلا أنني لمحتُه يشيّعني بابتسامةٍ باردةٍ، تحمل معاني كثيرة، فتشاغلتُ بتصفّح الجريدة الوحيدة التي كانت مُلقاةً على الأرضِ إلى جِواري.

بعد أنْ انتهي وجيه، سألني عم عبده:

- مِش ناوي تنفّعَنا يا أستاذ؟

- الله يخليك.. لكن شَعري قصير.

- حلاقة ذقن مثلًا.

- ماشي.

هبطَ وجيه مِن مقعد الحلاقة. حين جلستُ فوق المقعد مرتفِعًا انتابني للوهلة الأولى شعورٌ غامضٌ بأنني مُراقَب مِن قِبل نفسي. كانت المرايا تحيطُني مِن الجِهات الأربع، وحتى حين نظرت إلى موطئ قدمَي، رأيت شريحةً معدنية لامعة تضوي بشدة عندَ نهاية المقعدِ المرتفع. أحنيت رأسي قليلًا، فاكتشفت أنني أرتدي

جوربـيْن مِـن لونـيْن مختلفـيْن، أسـود وأزرق. فكّـرتُ أنَّ الإنسـان حـين يشـعرُ أنّـه مراقَـب فـإن أول حـلٍ يلجـأ إليـه هـو ألا يفكّـر بـأي شيء سـوى الهـروب مِـن هـذه المراقَبـة بممارسـة أي فِعـل؛ الغنـاء بصـوتٍ خفـيّ.. الصفـير، ثـمّ مـا تلبـثْ أن تطفـو ذكريـاتٌ غريبـة في ذهنـه. هـل أخـذَ البـاقِ مِـن سـائق التاكـسي أم نـسِي وتركـه وسـط الزحـام؟ لمـاذا كانـت «يُمـنى» عصبيـة المـزاج وقليلـة الـذوقِ هـذا الصبـاح؟ لمـاذا لَـمْ تـرُد عليـه «صبـاح الخـير» بدرجـة المـرحِ ذاتهـا الـتي تقولهـا بهـا كلّ يـوم؟ هـل بسـبب «الـدورة» ؟ أم ربمـا أُعجِبـتْ بزميـلٍ آخـر؟ ومَـن قـال لـك إنهـا معجَبـةٌ مِـن الأسـاس؟ هـل «صبـاح الخـير» الحلـوة اللطيفـة دليـل إعجـابٍ يـا غشـيم؟

- انتهينا.. فوطة سخنة يا أستاذ يونس؟

- لا شكرًا.

بعـدَ حلاقـة ذقـني هبطَـتْ عـلى رأسي إجابـات لـكلّ الأسـئلة الـتي طرحتهـا عـلى نفـسي أثنـاء الحلاقـة، وكانـت الإجابـات مُرضيـةً تمامًـا. «يـارب أتذكرهـا فقـط حـين أصِـل إلى المـنزل».

رفـضَ عـم عبـده تقـاضي أجـرة حلاقـة الذقـن. وقـال إنّـه نـذرَ نـذرًا أن يحلـقَ لأول زبـون يدخـل مـع صديـقٍ مجانًـا، بـشرطِ أن يعِـده الزبون بالعـودة مـرةً أخـرى. أصررتُ عـلى دفـعِ ثمـن الحِلاقـة، إلا أنّ وجهـه فـاحَ بغضـبٍ، بـدا مِـن احمـرارِ وجهـه الأبيـضِ المنمّـش، فشـكرته وانصرفنـا.

- شيش طاووق ولا شاورما؟

- الغداء على حسابي يا وجـيـه.. يكفي أجرة حلاقة الذقن.

وقفنـا نطلـب الغـداءَ مِـن مطعـم «الماجيـك»؛ لـم يكـن مطعمًـا

بالمعنى الحرفيّ، وإنما شوّاية شاورما يقف أمامَها فتًى نوبي شديد النحافة، وشوّاية أخرى صاج يقِف عليها شابٌ سمين يتدلى كرشه المقبّب حتى كاد يلامس حافّة الشواية البارزة، يقلّب فوق سطحها الصاج شرائحَ الشيش طاووق المتبّلة بسكينٍ مفلطحة عريضة وسط تصاعدِ الدخان ورائحة الطعام المشوي. سبقَني وجيه إلى المقهى. أشار بيده في إشارةٍ تعوّدتُ عليها في الجريدة: المشروب الغازي.. زجاج ولا can، فأجبته بصوتٍ عالٍ: المعتاد يا وجيه.

بعدَ فراغِنا مِن الطعام، طلبَ وجيه فنجانَيْ قهوة مضبوطين، وحجريْ شيشة تفاح. كانت الوجبة خفيفة، لكنها مُشبِعة.

- تصدّق يا يونس.. لم أخرج مع صديق منذ نحو عشر سنوات.. أنت أول صديق حقيقي أخرج معه.

-تسلّم يا وجيه.. وأنا أيضًا.. أصدقائي أختارُهم بعناية.. كلّهم سافروا بعد التخرّج.

توقّعتُ في البداية أن يحكي وجيه قِصّة حياته. كان يدخّن الشيشة وبصرُه معلّقٌ ناحية محل الحلاقة. نظرتُ إلى ساعتي، كانت الساعة قد تجاوزت السابعةَ والنصف مساءً، والمساءُ قد ضرب أرجاء المكان بسوادٍ هادئ. نظرتُ إلى محلّ الحلاقة، كان المحل يضوي مِن بعيدٍ مثل كوكبٍ متلألئٍ وسط سواد الكون. كان ذلك بلا شك بفعل المرايا. بقي وجيه صامتًا لفترة وبصرُه لا يغيب عن محل الحِلاقة. فكّرتُ في كسرِ الصمت. خطرَ ببالي موضوع «الصندوق» الذي كان أسفل مكتبي في الجريدة، والذي كان يخزّن فيه تمويلَ البوفيه الأسبوعي.

- يقولون إنَّ بين كلّ صديقيْن ساعةَ صفا.. ألنْ تُخبِرَني بموضوع الصندوق؟

- ما به؟

- يـا صاحـبي أنـا مـشروع صحفـي، ومـشروع روائي عـلى قـدّ الحـال.. حـدْسي يقـول أنّ وراء الصنـدوق سرًّا.. كان مِـن السـهل عليـك طلـب خزانـة جديـدة مـزوّدة بقفـل ومفاتيـح لتخزيـن الشـاي والسـكّر داخلهـا، لكـنّ تمسّـكك بالصنـدوق يحمِـل سِرًا؟

- حبيـبي.. والله سـوف يكـون لـك مسـتقبلٌ باهـر يـا يونـس.. طالمـا نبشـتَ الموضـوع فسـأخبِرك بـه، أتعـرِف لمـاذا؟

- اتفضّل.

- علشـان خاطـر عيـون القـطّ «باسـتي»، علِمـتُ أنـك كنـتَ تطعِمـه الأسـبوعَ قبـل المـاضي أثنـاء إجـازتي المَرضيـة.

- غريـب! مَـن أخـبركَ؟ في الحقيقـة أنـا أشـفقتُ عليـه في اليـوم الأول لغيابـك، ظَـل رابضًـا أمـام مكتـبي طـوال اليـوم، لا يتحـرك، يغفـو ويسـتيقظ صامِتًـا، ولا يمـوء بـأيّ صـوتٍ يـدل عـلى جـوعٍ أو عطـش، طلبـتُ مِـن أمّـي وضْـع بقايـا طعـام الغـداء في ورق «فويـل»، وكنـت أجلِبـه معـي لأضعَـه ظهـرًا أمـام القِـط.

- وصباحًا كنتَ تضع له الحليب في الطبق الزجاجي.

- مستحيل.. مِن أين عَلِمتَ؟

- أكمِل.. أكمِل.

- الغريـب أنّ «باسـتي» كان يـأكل ولا يخلِّـف أثـرًا وراءه، يـترك المـكان نظيفًـا تمامًـا، حـتى ورق «الفويـل» كان يحملـه في فمِـه ويغيـب دقائـق.. تخيّلـتُ أنّـه يلقـي بـه في صنـدوق القمامـة في المطبـخ.. لا أعلـمُ مـا الـذي دفعـني لذلـك.. لـم أحِـب القطـطَ يومًـا.

- لأنّك ابن حلال.

- لكن.. باللهِ عليك.. مِن أين عرَفتَ أنني كنت أطعِمه وأسقيه؟

- مَـن غـيرك؟! أعـرِف موظفـي الجريـدة واحـدًا واحـدًا.. ضبـاع يـا عم يونس.

- نرجع لموضوع الصندوق؟

- نرجـع لموضـوع الصنـدوق.. اسـمعْ يـا يونـس.. سـأبدأ بكلمتـك: «يقولـون إنّـه بـين كل صاحبـيْن سـاعةَ صفـا».. ولكـن الـسرَّ إذا خـرج عـن اثنـيْن لا يكـون سرًّا.

- وحياة الحاج «أبو لوزة» الكبير.. السرّ في بير.

- أخبرتـك.. أبـو لـوزة اسـم وهمـي.. كاموفـلاج.. حدوتـة مصريـة.. ليبـقَ الموضـوعُ سرًا بيننـا.

- عهد العقارب يا وجيه.. أنا برج العقرب.

- طيّـب.. ورحمـة المرحـوم عمّـار الدمسـيسي.. ألـف رحمـة ونـور عليـه سـأخبرك بـكل شيء.. أنـا أيضًـا مواليـد العقـرب.. ٢٨ أكتوبـر.

- مستحيل.. أنا ٢٩ أكتوبر.

- بَـصْـرة! أكبر مِنك بيوم.

- اسمعْ يا صاحبي.. بدأت الحكاية ليلة المولِد.

- مولِد؟

- نعـم.. نعـم.. مولِـد.. أنـت تعـرف أنّـه لا تخلـو محافظـة أو مدينـة مصريـة مـن الموالِـد الشـعبية الـتي ينتظرهـا النـاس عـلى أحـرِّ مـن الجمـر، كانـت الموالِـد هـي المـلاذ الوحيـد للتطهّـر النفـسي، والتخلص مـن أعبـاء الحيـاة.. في قريـة أبي ميـت دمسـيس بالدقهليـة، انغمسـتُ أنا وأخـي «عمّـار» الله يرحمـه، في جمـعِ اللعـب والدُمـى الخشـبية والقلائـد

الفضيّة والنحاسية التي كنّا نسرِقها مِن الموالِد، كانت قريتنا تشهد في الأسبوع الثاني مِن أغسطس مِن كلّ عام مناسبتيْن: مولد سيدي محمد بن أبي بكر الصدّيق، ومولِد القديس مارجرجس، كان موقع ضريح سيدي محمد بن أبي بكر الصدّيق يجاور كنيسةَ القدّيس، فلا يفصلهما سوى شارع واحد، وكلاهما يُطِل على النيل ويُقام مولِد الوليّ قبل أسبوع وأحد مِن احتفالات القديس.. كان ذلك في شهر أغسطس مِن كل عام، وأذكر أنَّ زوّار المولد كانوا يطلِقون على القديس مارجرجس اسم أبو جرج (أبو جورج يعني)، ويختصرون اسمَ الوليّ إلى «أبو بكر»، أيامَها كان الكلّ يشارك في كلا المولديْن، المسيحيون في مولد الولي «أبو بكر»، والمسلمون في مولِد «أبو جورج».. أيام وراحت، وأحيانًا كان الاتحاد الاشتراكي يأتي ليقيم منتديات دعاية عنِدنا أثناء المولد، فيصير المولِدان ثلاثة.. مولد وصاحبه غايب.

- تسرقان لُعَب وقلائد؟

- صبرك بالله.. كان هذا منذ ثلاثين عامًا.. سنة ١٩٧٥، كان عُمري عشر سنوات.. وعُمْر أخي عمّار أربع عشرة سنة.. ورغمَ أنني كنتُ الأحدثَ سِنًّا، إلا أنني نجحتُ في إقناعه بسرقة الأشياء الخفيفة وسط زحام المولِد، في البداية رفضَ عمّار السرقةَ رفضًا قاطعًا، وقال نحن ذرّية الحاج عبدالغفار الدمسيسي، إمام مسجد «ميت دمسيس»، ومُنشد ليالي سيدنا الحسين، ومولد سيدنا محمد بن أبي بكر الصديق، وليالي رمضان، نسرق؟ «لا.. لا يمكن يا وجيه.. أعوذ بالله.. وماذا إنْ كُشِفنا؟ سُمعة عائلة الدمسيسي كلها ستغرق في الوحل، هذه جريمة، ناهيك عن عقاب الله الذي سيصيبنا، عاجلًا أم آجلًا».

المهـم.. حـاول أخـي إقناعـي بـصرف النظـر عـن موضـوع السرقـة بشـتى الطُـرق، لكـني كنـت أخاصِمـه أيامًـا طويلـة، وأهـدّده بالمقاطعة، فـكان يقـول: ألـمْ تسـمع يـا «وجيـه» أغنيـة المولـد:

خليك قنوع واوعى تبصّ للي حدا غيرَك

شمّر نفسك ترتاح مِن نفس غيرك

وانظرْ لحالك تعرف غلط غيرك..

أحبَّـني عمّـار حُبًـا جمًـا، ولا سـيما بعـد أن رحلـت أمـي وأنـا في الخامسـة، فـكان عمّـار بمثابـة الأمّ والأب والأخ الأكـبر والصديـق، بقيتُ أيامًـا أحِيـك الكـذبَ والقصـص حـول رأسـه، مُحـاوِلًا إقناعَـه أنَّ سرقاتِنـا بريئـة، لا تـضرّ أحـدًا، وأنّـه لا فـرقَ بـين العنكبـوت الـذي يصطـاد ذبابةً بريئـة بالمكـر، وبـين حامـل البندقيـة الفخـور بصيـدِ أرنـبٍ مسـكين، وبـين الصيّـاد الـذي يوقِـع سـمكةً في شـبكته، وأنَّ الجميـع في الآخـر لصـوص، حـتى كُـتَّـاب الروايـات لصـوص، يسرقـون أفـكارًا مـن حيوات الآخريـن ليكتبـوا قصصًـا لـم تحـدث لهـم، المهـم أنـني اهتديـتُ لفكـرة.. أخبرتـه أننـا بعـد أن نجمـعَ أكـبرَ قـدرٍ مِـن المسروقـات، سـوف نتـبرّع بهـا لأي نشـاطٍ خـيري، صدّقَـني عمّـار لأنـه كان يحِبـني، لـم يكـن لـه أصدقـاء سـواي، بالإضافـة إلى صديـقٍ آخـرَ اسـمه «وجـدي المليجـي"، كان في مثـل سِنّـه، ولأن الـزنّ في الآذان أقـوى مِـن السـحر كمـا يقـال، انصـاع أخـي لرغبـتي، وبـدأتُ أنـا في التخطيـط.

كان أنسـب وقـتٍ للسرقـة حـين تبـدأ مسـيرة «الزَفَّـة"، ففـي غمـرة انشـغال زائـري المَولِـد بمـرور الموكـب، سـواء موكـب سـيدي محمد بن أبي بكـر الصديـق أو موكـب مولِـد الشـهيد مارجرجـس، فـمثلًا في مولِـد الشـهيد مارجرجـس تبـدأ الزفّـة بحامـل الصليـب، الـذي يـدور ثـلاث مـرّات حـول المذبـح قبـل الخـروج مِـن الهيـكل إلى قاعـة الكنيسـة، ثـمّ

يخـرج حامِـل الشـموع والمرتّـل أو المُـنشِـدُ، حامِـلًا صندوقًـا صغـيرًا مِـن الخشـب الأبنـوس مِـن رفـات القديـس ويسـير النـاس وراءه في الزَفَّـة، وفي مولـد سـيدي «محمـد بـن أبي بكـر الصديـق»، يخـرج الموكـب الصـوفي الـذي يتصـدره شـيخ الطريقـة ممتطيًـا صهـوةَ جـوَادٍ أسـمر، ويتبعـه أتبـاع الطريقـة مُـرتَدين أوشـحةً خـضراء تحمـل اسـم الطريقـة ليطـوف بشـوارع القريـة، بعدهـا ينضـم للموكـب بعـض الذاكريـن بالدفـوف والصنـج، وقـد يحمـل بعضهـم مكـبّراتِ صـوت، أخـبرتُ أخـي أنَّ هـذا هـو أنسـب وقـتٍ للاندسـاس وسـط حشـودِ البـشرِ السـائرين في ركاب الموكـب لنـسرق الهدايـا والدمَـى الخشـبية الـتي كان يعرضهـا الباعـة الجائلـون، أو لنخطـف -بخفّـة- المشـغولاتِ الفضيـةَ والنحاسـية الـتي كانـت تُعـرَض فـوقَ طـاولات خشـبية للـزوّار، كنـت أتلـذّذ بالمـروق بـين كل أمّ تتأبـطُّ ذِراع طفلهـا أو طفلتهـا لأفصـل بينهمـا، ثـمّ أركـض ضاحـكًا.. كنـا نأخـذ أي شيءٍ تصـل إليـه أيدينـا لنخبئـه داخـل صديـري الجلبـاب، أو في الصـواني المعدنيـة الـتي كنـا نحمِلهـا، ثـمّ ننطلـق وسـط جمـوع الزائريـن، مُهلّلـين مُكَبّريـن، نهـزُّ رؤوسَـنا ونغـني لصاحـب المولِـد، مُنتَشـين بهـذا الجـوّ الكرنفـالي.

- حلوة كلمة «الكرنفالي» يا وجـيـه؟

- على فكرة.. تركتُ كلية الآداب بمحض اختياري.

- العفو.. لا أقصد.. تفضّل.

- لـم نـدرِ أول مـرةٍ مـاذا نفعل بهـذه المسروقـات.. كنت عـلى الدوام ثابتًـا هادئًـا، بينمـا كان عمّـار.. يـا حبّـة عيـني.. يتصبّـب عرقًـا، وملامحـه ترتعـد مِـن الخـوف، بقينـا نركـض تلـك المـرّة، لا نقصـد وجهـة ولا بابًـا، قادتنـا أقدامنـا إلى ركـن بعيـدٍ عـلى أطـراف القريـة، قطعـة أرضٍ مهجـورة، ومحاطـةٍ ببقايـا سـورٍ متهـدّم، عنـد نهايـة السـورِ، وجدنـا

شجرةً عجوزًا وحيدة، شجرة «فيكاس» أوراقها مطمورة بترابٍ رماديّ على الدوام. بالقربِ مِنها حفَرَنا بأظافِرنا حفرةً كبيرة، ووضعنا الدُمَى والعرائس، والقلائد الفضيّة والنحاسية داخل جرائدَ قديمةٍ لحمايتها مِن الطين، كنا نقطع الطريق بين مكان الاحتفال ومرور الموكب وبين الشجرة العجوز، نحو عشر مرات أو عشرين مرة، حامِلين فوق رؤوسنا صواني الطعام الفارغة، والمملوءة بما تصل إليه أيدينا.

- أي صوَانٍ؟

- الصبر جميل يا عمّ يونس.

- تمام.. لتبيعا المسروقاتِ بعد ذلك؟

- لا.. إطلاقًا.. لا أعرف لماذا كنت أفعل ذلك، ولماذا أقنعتُ عمّار بهذا السلوك، لم يكن الموضوع مسألة مال، فقد كان عمّار يصحبني للعملِ في مزارع الموالح التي تملأ أجا وميت دمسيس، كنا نشتغل في قطفِ ثمار حدائق الموالح.. برتقال.. ليمون.. في حدائق المُزارعين، ونعبّئها في صناديق، وكنا نجني مالًا جيدًا.

- ولماذا كانت السرقة؟

- كانت تنتابني حالة نشوةٍ لا تفسير لها وسط جموع البشر، كأنني أستمِد مِن فِعلِ السرقة طاقةً تُشعِرني برضا، كنت آخذ بثأري مِن الدنيا، أسرقها كما سرقَتْ مني أمي.. ليس كل مَن يسرق محتاجًا.. كنت آخذ جزءًا مما سلبته مِني يومًا، كنت أشعر بسعادةٍ غامِرة حين أغافل البشرَ وسط الزحام والضجيج والتهليل والعرَق.. نسرق ولا يدري بنا أحد.. نجري ولا يرانا أحد.. ونهلّل ولا يسمعنا أحد.

- تمام.. أنت مرتأكد أنكما لم تُضبَطا ولا مرة واحدة؟

- مستحيل طبعًا، حيث اعتاد أبي وأصدقاؤه إحياءَ ليالي سيدي أبي بكر والشهيد مارجرجس، فكنّا نحمِل أخي وأنا صواني مملوءة بالطعام فوق رؤوسنا.. فراخ وحمَام وأرز ومَحَاشي وفطائر وفاكهة إلى الزوّار ومرتادي الموكِب، وكان الناس يعرفوننا جيدًا، أولاد الحاج عبدالغفار الدمسيسي، أشهر مِن نارٍ على علَم، كان أبي أكبرَ تاجر خردوات وإكسسوارات منزلية في القرية، وكان في الوقت ذاتِه يؤمُّ المُصلّين في مسجد الرحمة، ويمدح الرسولَ وآل البيت في ليالي الموالد، لم يكن أحدٌ ليشُك فينا، وعند العودة مِن المولِد بالصواني الفارغة، كنّا نضع المسروقاتِ داخلها ونغطيها بالجرائد أو الملاءات القديمة.

- الله عليك.

- مريض نفسي؟

- لا على الإطلاق.. أنا أستمع فقط، وماذا بعد؟

- ثمّ جرَتْ واقعةٌ غيّرتْ كل شيء.. كنا قد دَفَنا الحليّ والقلائدَ والدمَى المسروقة ونسينا الموضوع برمّته، وفي يومٍ مِن أيام إجازة نصف العام في يناير سنة ١٩٧٦ ذهبتُ مع أخي للعمل باليومية في قطف ثمار موالح بحديقة أحدِ كبار المزارعين، كانت الحديقة تضم ثلاثين قيراطًا مزروعة بالبرتقال واليوسفي والبرسيم.. وبعد مرور ساعةٍ مِن بداية «القطف"، طلبَ مني المِعَلّم المسؤول عن «التقطيع» تسلّقَ شجرةٍ هائلة لتصفية أحدِ فروعها العالية العامرة بالبرتقال، وكان مِن عادتي خلْع نَعلَيّ حين أبدأ عملًا شاقًا، مهما كانت درجة الحرارة، فخلعتُ نعلَيّ ووضعتهما بجوار جذع الشجرة وصعدت، وحين أتممتُ القطف، نظرتُ إلى الأرض، كانت المسافة بين الفرع القويّ الذي أقف فوقَه وبين الأرض بعيدة، وبينما كنت

أتهيأ للوثْب، لمحتُ صندوقًا مدفونًا في حفرةٍ صغيرة إلى جانب جذع الشجرة، وقد عَلَتْ سطحَه أوراقٌ صفراء مهشمة، وزهور ذابلة، وثَبتُّ بسرعة فوقعتُ إلى جوارِ الحفرة تمامًا، كانت حفرةً قليلة العُمق، لم تكن تسَع الصندوقَ كاملًا، وكان الصندوق مائلًا بحيث يبرز ركنه المدبّبِ إلى الأعلى، وكان مستطيلَ الشكل ومزوَّدًا بغطاءٍ مزدوج الميْل، حين اقتربتُ مِنه لاحظت أنّ الصندوق مصنوعٌ مِن الأبنوس المطعَّم بالصدف، ولم يكن له قفل، إذ كان يُغلَق بحبل صوفٍ ملفوفٍ على شكل الرقم (٨) بين مِقبضيْن مستديرين؛ أحدهما على حافة السطح وآخر مماثل على الجانب القصير مِن الصندوق وقد خُتِمَ بشمعٍ أحمر غير مقروء، ناديتُ عمّار وأخبرته، فلمعتْ عيناه وقال: «خبئه حتى نرى ماذا سنفعل به».

رفعنا الصندوق مِن الحفرة، وحللنا أطراف جلابيبنا التي كانت مزمومةً داخل «الكلسونات» التي نرتديها لننظّف سطحَه.

- هل كان الصندوق كبيرًا؟ أقصد هل وجدتما كنزًا؟

- نقول تاني.. الصبر جميل.. كان طولُ الصندوق مترًا وعرضه متريْن، بدا أنّه غالي الثمن، كان ذلك واضحًا مِن قِطَع الصدف الأصلية التي تطعِّم سطحه وجوانبه، أنت تعلَم بالتأكيد شكلَه.

- ومِن أين أعرِف شكله؟

- وتلقِي عليه تحية العَلَم كل يومٍ.

- مستحيل؟ أتقصد أنّ هذا هو الصندوق الذي يقبع أسفل مكتبي في الجريدة؟

- هو بعينه.. لما هبطتُ أخذت في البحث عن حذائي، فلم أجِده، خمّنت أنَّ أحدًا مِن العمال قد سرَقه، طلب مني عمّار الإسراعَ بحَملِ

الصندوق إلى آخر حدود الغيط، كانت الساعة الثانيةَ عشرةَ ظهرًا، انتهزنا فرصة توقّف القطف وانصراف باقي «العمّال» للصلاة، وتناول الغداء مجتمعين حول «غدّيوة» بالقربِ مِن الطلمبة الحبشي، وشرَعنا في قطف حمولة «برسيم» كاملة مِن الحقل المجاور باستخدام منجل كنا نستخدمه لقطع فروع الأشجار التالفة، لم يستغرق الأمر سوى ربع ساعة.. بعدَها غطّينا الصندوقِ بالبرسيمِ لحين الانتهاء مِن العمل، وكانت نهاية العمل تعني بداية عملٍ آخر، فحين ينتهي «القطف» تبدأ عملية الوزن؛ وزن أقفاص البرتقال بالميزان «القبّاني» المؤلم الذي كان يُوضَع على كتفيْنا باعتبارنا دعامتيْن، ثمَّ يُعلَّق قفص البرتقال بواسطة خطّاف معدني لزنتِه؛ كان العمل شاقًا.. وأنتَ ونصيبك.. قفص حمولة ٥٠ كجم.. أو حمولة ٤٥ كجم، وكان عمّار حين يلمح الألمَ على وجهي بسبب ثقل وزن القفص، يطلب مِني الراحة، ليحمل العصا الخشبية التي يُعلَّق فيها القفص بيديه كأنّه يرفع أثقالًا.. «آه يا حبيبي يا أخويا...»، وبعد الانتهاء مِن وزن المحصول، كنا نحمِل أقفاص البرتقال إلى سيارات نصف نقل تنتظر أمامَ الغيط، كانت الحديقة كبيرة هذه المرّة، فاستمر العمل إلى ما بعد العشاء، وبعد انتهائنا مِن التحميل، مَنحَنا التاجر أجرَنا، وانصرفنا مع الجميع، الحقيقة أننا تَظاهَرنا بالانصراف، سِرنا نحو الطلمبة الحبشي واغتسلنا.. كان الماء يَخرج باردًا كالثلج، شرِبنا، ثمّ أخرجنا حبّاتِ برتقال كنا قد قطفناها مِن الغيط وأكلنا، كان الظلام قد غطّى المنطقةَ تمامًا ولم نعدْ نسمع سوى أصوات صفير «صراصير الليل» ونقيق الضفادع، ونباح كلابٍ هنا وهناك.

- وكيف عرفَتما مكان الصندوق وسط هذا الظلام؟

- عيب عليك.. ذاكرة الفلّاح يا صاحبي.

«يا بحراوي.. وِلعة..».

نادى وجيه «القهوجي»ـ طلبَ الشاي الحِبرّ، وكرّر مشدّدًا على حرف الراء، ونغّمها «حِبْرّ مِحَبَّر»، وطلبتُ نسكافيه باللبن. استمر وجيه في تدخين الشيشة محدِّقًا نحو محل الحلاق ذي المرايا اللانهائية، كأنما يستدعي ذكرياتِه مِن ألقِ أضواء النيون المنعكسة على المرايا. كانت حفلة اندماج جماعية؛ اندمج وجيه في حكي التفاصيل، واندمجتُ أنا في الإنصات إليه، وربما كان عامِل تغيير الفحم يرهف سمْعَه من آنٍ لآخر لحوارنا.
- المهم حمَلنا الصندوق معًا، صحيحٌ أنَّ الصندوق لم يكن ثقيًلا ليحمله اثنان، إلا أنَّ هاجسًا راودَ رأسيْنا في الوقتِ ذاته، لا بدّ أن يحمل كل مِنا طرَفًا مِن الصندوق، طالما أنَّ السرّ واحد، فالحِمل واحد، والمصير واحد. في أثناءَ سيرنا ووسط هدوء الليل الموحِش سمِعنا صوتَ ارتطامٍ خفيف داخل الصندوق، شيء يتحرك مُصطَدِمًا بأحدِ أركان الصندوقِ كلما انعطفنا يمينًا أو شمالًا. سألتُ عمّار: هل نفتحه الآن ونرى ما داخله؟ سحبَ عمّار أنفاسًا سريعةً متلاحقة مِن السيجارة، ثمّ سحقها بإصبعَيه وألقى بها بعيدًا وهو يقول: لا.. لا.. لمّا نوصل.

لم تكن المسافة بعيدة، كان الغيط قريبًا مِن الطريق الزراعي الرئيسي، حيث شجرة «الفيكاس» العتيقة، التي ندفِن سِرّنا أسفلها. أخرجَ عمّار علبةَ ثقابٍ مِن جيب جلبابه وأشعلَ عودًا ليضيءَ البقعةَ التي نحفر فيها. تربّعتُ فوق الأرض وهممت بمعالجة الحبل المعقود على حرف ٨، حللتُ الحبل، بينما راح عمّار يقرّب عودَ الثقاب المشتعل مِن فتحة الصندوق، ولمّا رفعتُ الغطاء

فاحت مِن الصندوق رائحة عَفِنة أزكمَتْ أنفي:

«يا ابن أمي.. أنتَ أشجعُ مني.. مدَّ يدك».

مَدَّ عمّار يده حتى قاعِ الصندوق، وغمغمَ بأسى وهو يُخرج يده. كانت يمامة نافقة مِن نوع المطوّق، كنا نعرِف الفرقَ جيدًا بين الحمَام واليمَام بسبب الوقت الطويل الذي كنا نقضيه مع أولاد عمي «جودة» أثناء تربية الحمَام واليمَام قبل سفرهم إلى القطيف في السعودية، لكننا لم نعرِف إنْ كان الجسد لذَكرٍ أم لأنثى، يصعب التفريق الشكلي بين الذَّكَر والأنثى بسبب تقارب الحجمِ والشكل، ولكن ما الفرق؟ الموت لا يفرِّق بين ذَكَرٍ وأنثى. ويبدو أنّ اليمَامة قد وُضِعَت داخل الصندوق بالأمس أقصى تقدير، إذ لم يكن قد أصاب جسدها تحلّلٌ، ولم تفح منها رائحة. تَفحَّص عمّار رأس اليمامة وصدرها، لم يجد أثر رصاصة بندقية صيد.

انطفأ عود الثقاب، فأشعل عمّار واحدًا آخر، أبصرْنا على ضوئه المشهدَ المفزع: خيطٌ بلاستيك مزيّن بقِطَع مِن الخرزِ الملوّن مشدود بعنفٍ وإحكامٍ حول عنق اليمامة عدة مرات، حتى كاد الرأس ينفصل عن الجسد تمامًا، فيما كانتْ رِجل اليمامة قابضةً على بيضةٍ صغيرة مكسورة، يَخرج مِنها رأسُ فرخٍ ميتٍ بطبيعة الحال. مَن الذي يحزّ عنقَ طائرٍ وديعٍ هكذا ليضعه داخل صندوقٍ خشبي ثمين مُطَعمٍ بالصدف في غيط موالح؟

هذا أكيد شخص مختل مِن أبناء أصحاب الأراضي كان يلهو.

أو ربما شخصٌ يدرِّب نفسه على القسوة يا وجيه.

نهضَ عمّار وابتعد خطوات، ثمّ راح يحفر حفرةً ثانية أصغرَ قليلًا، وضع أمامها حجرًا قديمًا من بقايا السور المتهدّم الذي

كان يحـــيط بنـا. عـلى مرمـى السـمْع، تـَزايـد نبـاح الـكلاب، وتعـالَى نقيـق الضفـادع الـتي تسـكن قنـوات الـريّ في الغيطـان المجـاوِرة. لـَفَّ البقعـةَ صمـتٌ هائـل وسـط هـذا الـبرد. بقيـتُ مُـراقبًا عمّـار بصمـتٍ، بينمـا كان عقـلي يضـجّ بصخـبٍ. تلمّـسَ عمّـار جيوبَـه بحثًـا عـن شيء، ثـمَّ أخـرجَ «مُـدْية قـرن غـزال» كان يلفّهـا حـول وسـطه بحبـل دوبـارة في «دكّـة الكالسـون» تحَسبًـا لأيّ اعتـداءٍ ليـلي، وشـقَّ طرفًـا مِـن جلبابـه. فطِنـتُ إلى مـا يرمـي إليـه فأخـذتُ المُـدْية مِـن يـدِه وفعلـتُ مثلـه، شـققتُ طرفًـا مِـن جلبـابي. كانـت الخِرقتـان هُمَـا كفـن اليمامـة. رفعنـا اليمامـةَ مِـن فـوق سـطح الصنـدوق، لدفنِهـا في الحفـرة الـتي صنعهـا عمّـار وأهَلْنـا الـترابَ فوقهـا.

بقينـا نحـدق إلى بعضنـا بعيـونٍ غائبـة وسـطَ ظـلام الغيطـان، ربمـا كانـت السـاعة وقتَهـا قـد تجـاوزت الثانيـة بعـد منتصـف الليـل. كان الطقـس بـاردًا، شـهر ينايـر في الريـف قـاسٍ مثـل حـدّ المـوسي. لـم نشـعر بـبرد. أخذتنـا غفـوةٌ طويلـة أو قصـيرة، لا نعلـم، مسـتندَيْن بظهريْنـا إلى الشـجرة العجـوز.

لـم نحسِـب كـم مـضى مِـن الوقـتِ، حـتى أفقنـا عـلى صـوتِ أذان الفجـر مِـن المسـجد الواقـع أول الطريـق الزراعـي المـؤدي إلى ميـت دمسـيس. بعـد ظهـور أول خيـوط النهـار، أدركْنـا ضرورة الانـصراف مِـن المـكان قبـل اسـتيقاظ الفلاحـين، وكلّهـم يسـتيقظون قبـل الفجـر. بـدأ عمّـار يومَـه بسـيجارة، أعطـاني واحـدةً فدخنّـتُ لأول مـرةٍ في حيـاتي.

- أعتقد أننا حلُمْنا الحُلْم ذاتَه يا عمّار.

- وبِمَ حَلُمْـتَ؟

- أننـا نغسـل قدميّ «أمِّـنا» بمـاء النيـل، وهي تـطعِمنا خـبزًا، ونحن نطلـبُ مِنهـا السـماحَ والغفـران.. لأنّ ولديهـا صـارا لصّـيْن.

- نعـم يـا وجـيــه.. علينـا أن نُخــرِجَ كل مـا سرقنـاه لنضعـه داخـل هـذا الصنـدوق، وندفِنـه إلى الأبـد.

- لن ندفنه.. علينا أنْ نلقي به إلى النهر.

- عهد.. ألا يقترب أحد مِن هذا الصندوق إلى حين يموت أخوه.

- بعـد الـشرّ يـا عمّـار.. ربنـا يجعـل يومـك قبـل يومـي.. عهـد يـا ابـن أمـي.

رُحنـا ننبـش بسرعـةٍ مـكانَ الحفـرة القديمـة. اكتشـفنا وكأننـا نلاحِـظ ذلـك للمـرة الأولى أننـا سرَقنـا دُمَـى ولُعَبًـا وخيـولًا خشـبية وقلائـد فضيّة ومشـغولاتٍ نحاسـية لا حـصر لهـا، كان حجمهـا صغـيرًا، إلا أنّهـا كانـت كثـيرة، تجرعّـت مـرارةً مـا بعدهـا مـرارةً يـا يونـس، حـين تنبهـتُ إلى أننـا لـم نبِـع شـيئًا منهـا قـطّ، ولا قطعـة واحـدة، وكأنَّ السرقـة كانـت بهدفِ المتعـة، كذبًـا بريئًـا، مضمونـه أنـني لسـت أقـلَّ مِنهـم، أخـذَتْ الدنيـا أمـي، فأخـذتُ مِنهـا مـا تطولـه يـدي، أنـا أيضًـا أسـتطيع خِداعهـا، كمـا أنـني لسـت أقـلَّ مِـن النـاس في شيء، هُـم لديهـم أمهاتهـم وسـعداء، وأنـا يمكنـني الحصـول عـلى مـا في أيديهـم بطريقـة أكـثرَ متعـةً وبهجةً.. ذنـبي أنــني ورطّـتُ أخـي في السرقـة.. كان عمّـار أخــي يقـرأ مـا يـدور بـرأسي، إلا أنّـه ترفّـقَ بحـالي وقـال:

- وجـيــه يـا حبيـبي.. هـذا الصنـدوق شـاهِدٌ عـلى سرقاتنـا، أو كذبِنـا الـبريء كمـا تُـسمَّـيــه، ربمـا لـم يشـعر أحـد بهـا، إلا أنهـا سرقـة في نهايـة الأمـرِ، أخذنـا مـا ليـس مِن حقّنـا، طالمـا أردتُ منعـكَ مِـن مواصلـة السرقـة، إلا أنّـكَ كنـتَ تغضـب، وأنـا لا أقـدِر عـلى إغضابـك، وصيّـةُ أمِّنـا الله يرحمهـا قبـل أن يأخذهـا نهـر النيـل مثـل العـروس، صحيـحٌ أنـني كنـتُ أسـتمتع وأنـا أراك سـعيدًا بنشـوة الانتصـار، حامِـلًا المسروقـاتِ وسـط ضجيـج المولِـد، إلا أنَّ الصنـدوق ينبغـي أن يَظَـل

شاهدًا-واللّه على كل شيءٍ شهيد- على أنني لم أفعل ذلك إلا لسببٍ واحد، لإرضائكَ فقط، وأُشْهِد اللهَ مِن جديد أنني لم أفعل ذلك إلا تنفيذًا لوصيّة أمّنا رحمها الله، ألا أغضِبكَ أبدًا، وربنا يسامحني على ما فعلتُه، ويهديك وينوّر بصيرتك يا وجيه، ورحمة الغالية في نومتها.. ضميري يؤنبني كلما تذكّرتُ كفي وهي تلمس ريش اليمامة النافقة.. يجب أن نكفَّ عن ذلك يا وجيه، ونرد هذه المسروقات إلى أهلها.

- وهل نعرفهم يا عمّار؟

- خلاص.. نترك نصفها على باب مسجد، والنصف الآخر أمام الكنيسة.

نبّهَنا صاحِب المقهى أنَّ الساعة قد تجاوزت الواحدةَ بعد منتصف الليل، وأنه يريد إغلاقَ الحساب وإعادة رصَّ الكراسي داخل المقهى. لم أصدِّق أنَّني بقيت أصغي إلى حكاية وجيه لمدة خمس ساعات متواصلة، لم تكن الحكاية طويلةً إلى هذا الحد، لكنني قاطعته عدّة مرات، وقام هو إلى دورة المياه عدة مرات أيضًا، ربما بسبب عدد أكواب القهوة التي شربَها، وكنتُ أحيانًا ألمحُ عينيه تلمعان مِن أثر ذكرياتٍ عائدة بقوّة.

اقترحتُ توصيله إلى منزله في «غمرة». كان التاكسي هو الوسيلة الوحيدة بعد أن انتصفَ ليل القاهرة، خاصةً أننا كنا في منتصف شهر يناير، أي في ذروة الشتاء. قَبِلَ وجيه طلبي على الفور كأنه كان ينتظره أو يأمل في حدوثه. تخيّلتُ أنّه سيرفض بسبب تأخّر الوقت، فشحذَ ذلك رغبتي في معرفة نهاية القصّة. حين اقتربَ التاكسي مِن كوبري غمرة، طلبَ وجيه مِن السائق مواصلة الطريق حتى ميدان التحرير. كان الطقسُ شديد البرودة في الخارج، وقطرات

مطـرٍ خفيـف قـد بـدأتْ تنقِـر زجـاج السـيارة الأمامـي والجانـبي. نظـرَ سـائق التاكـسي نحونـا في المـرآة المسـتطيلة الـتي أمامـه ومـطَّ شـفتيه بضيـقٍ قائـلًا: «كنـتُ مـروّح.. مـاشي.. كلـه بحسـابه».

سـألتُ وجـيـــه عـن سـبب طلبـه المفاجـئ، فأخـبرني وهـو يـداري وجهـه في زجـاج النافـذة المجـاورة أنّـه نـسي شـيئًا مهمًـا في الجريـدة وعليـه إحضـاره، وأنّـه سـيكون ممتنًـا لـو ذهبـتُ معـه.

- ألا يحتمل هذا الشيء التأجيلَ ليومِ الأحد؟

- علشان خاطري يا صاحبي.

قطـع التاكـسي المسـافةَ إلى ميـدان التحريـر في عـشر دقائـق لـزِمَ خلالهـا وجـيـــه الصمـتَ، مُـولِـيًا وجهَـه نحـو نافـذة التاكـسي وكأنّـه يتأمـل القاهـرة للمـرة الأولى. كانـت في حـوزة وجـيـــه نسـخةٌ مِـن مفاتيح المكتـب بسـبب طبيعـة عملـه. حـين وصلنـا العمّـارة كان الظـلام حالـكًا، كانـت بوابـة العمـارة الـتي تقـع فيهـا الشقـة موارِبـةً، دلفنـا مِـن البـاب وصعدنـا في المصعـد العتيـق ذي الأبـواب الخشـبية.

فتـحَ وجـيـــه بـابَ الشـقّة، واجتـازَ البـاب ويـده تسـبق جسـدَه إلى مفتـاح المصبـاح الكهربـائي. فتـحَ مقبـس النـور وخَطَـا نحـو الطاولـة، وألقـى نظـرةً سريعـة مُدرّبـة عـلى الصنـدوق.

لمحـتُ «باسـتي»، قِطَّـ وجـيـــه الأسـودَ، نائمًـا أمـام الصنـدوق، متخـذًا وضـع «أبي الهـول» كعادتـه. فتـحَ عينيـه بمجـرد أنْ جلـس وجـيـــه القرفصـاءَ أمامـه وربـتَ عـلى رأسـه وكأنـه يشـكره. غاب وجـيـــه بضـع دقائـقَ في المطبـخ، وعـادَ حاملًا طبقًـا مملـوءًا باللـبن، ووضعـه أمـام «باسـتي»، الـذي راح يرشـف اللـبن مِـن الطبـق رشـفاتٍ هادئـةً مثـل عجـوز ترتشـف قهوتهـا في ليلـة شـتوية. خمّنـتُ منـذ البدايـة أنّـه

قـد أتى مِـن أجـلِ الصنـدوق. اطمـأنَّ عـلى سِـــرّه، كمـا كان يفعـل كل يـوم.

الآن بـدأتُ أفهـم سرَّ الاهتمـام الغامـض بي؛ كنـت أجلـس إلى جـوارِ صندوقـه الأثـير، وكان عليـه أنْ يحمـي سِرّه.

تركَـني وجـيـــه، قاصـدًا المطبـخ. كنـتُ أراقبـه مـن مـكاني. أوقـدَ المصبـاح، وأخـذَ كنكـة القهـوة المعلّقـة في طـرفِ المصفـاة الألومنيـوم فـوقَ الحـوضِ وبـدأ في إعـداد القهـوة. غـاب بضـعَ دقائـقَ ليـأتي بفنجانَي قهـوة.

- سـنصاب بقرحـة معديـة مِـن كثرة تنـاول الشـاي والقهوة والنسـكافيه هـذه الليلـة يـا عـم وجيه.

- سَـلِّمْـها لله.

- الليل وآخره يا صاحبي؟

أسندتُ ظهري إلى المقعد، وقلتُ له:

- كلامـك يذكِّـرني بروايـة «في قبـوي» لدوستوفسـكي، ثمّـة عبـارة كانـت تقـول إنَّ إنسـان القبـو قـادرٌ عـلى أنْ يمكـث صامتًـا في قبـوه أربعـين سَـنة، ولكنـه إذا خـرج مِـن جحـره انطلـق خارجًـا مِـن صمتـه، ليتكلـم ويتكلـم.

بوجـهٍ مرهَـقٍ أضـاء وجـيـــه أباجـورة نحاسـيةً طويلـة في أحـد أركان ردهــة مقـرّ المجلـة. جلسـنا عـلى مقعديْـن متجاوريْـن في ردهــة الاسـتقبال تحـت «بـورد» كبـير يحمِـل صـورةً جماعيـة لموظفـي الجريـدة متحلّقـين حـول رئيـس التحريـر. عـلى الطاولـة الـتي وَضَـع عليهـا فنجـانَي القهـوة، لمحـتُ عـددًا مِـن الفناجـين الفارغـة، وبقايـا أكيـاس شـاي لِبتـون، وعـددًا مِـن عُلَـب السـجائر المحطمـة، وشـاحن

محمـول نوكيـا، ومنفضـة سـجائر كريسـتال ضخمـة تمتـلئ بأعقـاب السـجائر.

- حبيـبي.. أكيـد لـن أخـرج مِـن هنـا بعـد هـذا المشـوار الطويـل مِـن عـشرات فناجـين القهـوة والسـجائر والسـهر حـتى مطلـع الفَجـر دون قصّـةٍ محبوكـة.

- شـذرات قصّـة يـا يونـس.. كل مـا نملكـه هـو شـذرات.. مَـن ذا الـذي يملـك قِصـةً مُكتَمِلة؟

- لِي سـؤال قبـل الحكايـة.. لمـاذا تركـتَ كليـة الآداب؟ لمـاذا لـم تُكمِـل دراسـتك؟ ثقافتـك قويّـة وأسـلوبك في الحـكي رائـع.. يـا رَجـل في وسـعك أن تكـون رئيـس مجلـس إدارة الجريـدة، وليـس...

- معاون خدمة؟

- عفـوًا يـا صاحـبي.. لا أقصـد إسـاءةً طبعًـا.. أقصـد أنـك «خسـارة» في هـذه الوظيفـة.

تجاهـلَ وجـيـه كلامـي تمامًـا وواصـل حـكي قِصّتـه، وكأنّـه في مهمـة رسـمية مقدَّسـة وعليـه أنْ يُنهيهـا:

- كان الصبـح قـد تنفّـسَ وبـدأ ضـوء الشـمس يغمـر المـكان، لاحظـتُ أنَّ غطـاء الصنـدوق لا زال مفتوحًـا، ذهـبَ «عمّـار» إلى الاغتسـال في ميضـة المسـجد القريـب.. دفعـني الفضـول للتفتيـش داخلـه قبـل أن نضـع فيـه «الـسرّ»، هـززتُ الصنـدوق عـدّة مـرّاتٍ، فسـمعت صـوتَ اصطـكاك يشـبِه اصطـكاك حبّـات خـرزٍ أو كريسـتال صغـيرة. لمحـت ورقـة جرائـد قديمـة مُـلـــقاةً إلى جـواري، فأخذتهـا، نفضـتُ الـتراب الـذي كان يعلوهـا، وقـلـبْـتُ الصنـدوق لأفـرغَ محتوياتـه فـوق الورقـة، فانهمـرَ أمامـي شـلّالٌ مِـن كريّـات الخـرز الملوّنـة بألـوانٍ زاهيـة لـم

أرَ مثلها في حياتي.. أبيض ناصع، وأزرق صافٍ، وأخضر فيروزي، وأصفر كهرماني، وأحمر قانٍ.. كل الألوان بكل الدرجات.. كانت أشبهَ بحبات البِلْي، لاحظتُ أنّها مثقوبة مِن المنتصف كأنها مُعَدَّة كي تَنتظم في خيط واحد لتصنع قلادةً أو عِقدًا.. مِن بين ما سَقَط مِن الصندوق خيطٌ أبيض قصير انتظمتْ داخله حباتٌ خرزٍ فيروزية لتكتبَ كلمة «أنا»، بعد حرفِ الألف، لمحتُ ودَعَةً صفراءَ وحرف «وأنت»، خمّنتُ أنّ الوَدَعَة عبارة عن فاصلة، لتبدأ بعدها عبارةً لم تكتمل.

كان أسلوب تطريز حبّات الخرز ينمّ عن ذوق فني عالٍ. فكّرتُ ساعتَها: كيف لشخص يملك هذا الحسّ الفني أن يخنق يمامةً على هذا النحو البشع؟ هل يُخفي كلّ فنانٍ داخلَه وحشًا مقنّعًا؟ كيف يضمّ الخيطُ الواحد الحملَ والشياطين؟

- هأَنَا أُرْسِلُكُمْ كَغَنَمٍ فِي وَسْطِ ذِئَابٍ، فَكُونُوا حُكَمَاءَ كَالْحَيَّاتِ وَبُسَطَاءَ كَالْحَمَام.

- ثانية واحدة يا يونس.. هذه العبارة مِن العهد الجديد أم القديم؟

- العهد الجديد.. واللهِ أنت خسارة في هذا المكان.

للمرة الثانية يستطرد وجيه كلامه كأنه لم يسمع شيئًا:

- رفعتُ ورقة الجرائد المرصوص فوقَها الخرز بحرصٍ وأعدتُ حبّات الخرز مكانَها داخل الصندوق. راقَ لي عقدُ الخرز المطرَّز بكلمة «أنا»، كان خيط العقد طويلًا فأخذته ولففته حول عُنقي وأدليته ليختفي تحت الصديري القماش الذي كنت أرتديه تحتَ الجلباب. عضّني الجوع ورحت أبحث عن شيء آكله، لم تمضِ

ثـوانٍ حـتى فوجئـتُ بكـفّ عمّـار أخـي تربـت فـوق كتفـي، أعطـاني برتقالـةً مقـشّرة وقـال: «افطـر»، فالتهمتهـا في ثـوانٍ. لـم أخـبره عمـا رأيتـه في الصنـدوق، ولا عـن حبّـات الخـرز.. بعـد دقائـقَ بـدأ يتناهى إلى سـمْعنا صـوت مـروق سـيارات نقـل الفاكهـة والخـضروات عـلى الطريـق الزراعـي السريـع القريـب مِنـا، فعرَفنـا أنَّ وقـتَ الانـصراف قـد حـان. طلـبَ عمّـار الإسراع في وضـع الأشـياء المسروقـة داخـل الصنـدوق. فرَزنـا المسروقـاتِ، وضعنـا القلائـد الفضيّـة والمشـغولات النحاسـية القيّمـة أولًا، كان عمّـار يـفـرزها، ثـمّ يناولـني إياها لرصِّـها بعنايةٍ داخل الصنـدوق حـتى امتـلأ عـن آخـره. أمّـا بقيّـة الأشـياء فكانـت كمـا قلـتُ لـكَ دُمَـى خشـبية وعرائـس وخيـولا خشـبية صغـيرة، دُفِنَـتْ إلى جـوارِ مقـبرة اليمامـة المغـدورة.

- وكيـف اسـتطعتما المـرور بمثـل هـذه الأشـياء عـلى كِـبَر حجمِهـا دون أن يلحظكمـا أحـد؟

- سـاعة المولـد هِيَـاج يـا يونـس.. أنـت لا تعـرِف الموالـد.. المولـد صاحبـه دائمًـا غائـب.

مِـن شِـقّ ضيّـق بـين الحائـط وإفريـز نافـذة ردهـة الشـقّة، تسـلّلَ ضـوء الفَجـر الواهـن ليكشـفَ وجهًـا آخـر لوجـيـه لـم أره قبـل ذلـكَ قـطّ. وجـه شاخـت ملامحـه كثـيرًا عـن ليلـة البارحـة (البارحـة؟! هـل مـضى بالفعـل يـومٌ كامِـل؟!)، وكأنَّ البـوح وإنْ كان يخفّـف ثقـلَ الصـدور، إلا أنّـه يقرِّبنـا مِـن النهايـة، نهايـة كلّ شيء. فـركَ وجـيـه براحـة يـده اليُمـنى عينيـه ليطـرد أيّ إحسـاسٍ بالنعـاس أو الوهـن، ثـمّ سـعلَ سـعلة قويّـة وواصـل كلامـه:

- لمـا انتهينـا مِـن مراسـم الدفـن، وقفنـا دقيقتـيْن أمـام شـاهد قـبر اليمامـة، لمـحَ عمّـار حبّـة خـرزٍ فيروزيـة لامعـةً إلى جِـوار قدمِـه اليُمـنى،

وسرعان ما التقى بصره بقدميّ، فسألني عن حذائي، فأجبته: «أكيد ضاع يا عمّار في الغيط.. لا تشغل بالك.. تعوّدتُ المشي حافيًا».

ذكّرَني عمّار بموعدِ المرور على مدرستنا، مدرسة أجا» الثانوية بنين لمعرفة جدول الدراسة في النصف الثاني مِن العام. خلعَ نعليه وأعطاني إياهما وقال: «الجوّ بارد جدًا يا أخي.. ارتَدِ حذائي.. سأسيرُ حافيًا حتى تُقَلَنا أي سيارة أجرة، وسأشتري لكَ حذاءً جديدًا حين نصل «أجا»، وأسترِد حذائي».

كان ينبغي لنا عبور نهر الطريق إلى الناحية الأخرى، لنستقِل أيّ سيارة أجرة متجهة إلى مركز أجا، وقفنا على جانب الطريق نترقّب خُلوَّه مِن سيارات النقل السريع، خطوْنا خُطوتيْن حذِرتيْن، كنت أمسِك بيدِ عمّار اليسرى، بحيث كان عمّار إلى الجانب الأيمن في اتجاه السيارات. مِن أقصى اليمين، لمحنا سيارة نصفَ نقل تقترب نحونا بسرعةٍ جنونية مثلَ فأرٍ هاربٍ مِن حقلٍ مشتعِل، دفعني عمّار بقوةٍ كي أسبقه، في اللحظة ذاتها سَمِعته يصرخ بآهةٍ قويّة، وينظر إلى قدمه، يبدو أنَّ شيئًا حادًا اخترق باطن قدمِه الحافية، انتبهتُ إلى قطرات دماءٍ غزيرة تفور مِن باطن قدمه لتغرِقَ تراب الطريق، لا أعرف كيف فكّرَ عمّار ساعتَها، رأيته يرفع ساقه اليُمنى لينظر مكان الجُرح، لكن القدرَ كان أسبقَ مِنا جميعًا، في أقلِّ مِن ثانية دفعني بيده اليسرى دَفعةً قويّة كاد ظهري ينشق لها نصفيْن، فارتميت بكل جسمي على الجانب المقابل فوقَ التراب، تاركًا يدَ أخي...

- دهسَته السيارة؟

- أطاحت بجسده ليسقط على بعد أمتار، كانت السيارة مُحمّلةً بكمية هائلةٍ مِن الطوب الأحمر، لم تكتفِ بدهسِ جسده فقط،

فحينَ توقّفتْ السيارة فجأةً، سقطَتْ حمولة الطوب الأحمر كلّها فوقَ رأسِ عمّار، فاختلط رماد الطوب الأحمر بحمرة دمائه.. كان في وسعي جذْب يدِ أخي لأنقذه، وكان القرار في يدي ألا نأتي لهذا المكان أبدًا.. آه لو كنت رفضتُ ارتداء حذائه.

- «لم ينجب أبي سوى أنا وعمّار.. وأمي تركتني وأنا في سنّ الخامسة».

- نعم؟

- «لم ينجب أبي سوى أنا وعمّار.. وأمي تركتني وأنا في سنّ الخامسة».

كرّر وجيه العبارة نفسها مرتيْن. كان وجيه في عالمٍ آخر، لاحظت أنّه كان يفعل ذلك كلما أتى الحديث بشكل مباشر على ذِكر أخيه، فسألته:

- ألف رحمة ونور عليه.. لكنكَ قفزتَ في سرد الأحداث قليلًا.. ماذا فعلتَ ساعتَها؟

- بقيت جالسًا فوقَ التراب لمدة ربع ساعة محدّقًا في ركام الطوب الأحمر الذي يعلو جسدَه، لم أستطع تحريك ساقي، لم أُصَب بشللٍ، لكني لم أكن راغبًا في تصديق ما حدث.. هبطَ سائق السيارة والتّباعٍ، كانا يرتجفان وهُمَا يحاولان إزالة أكوام الطوب المهشّمة للوصول إلى جسدِ أخي، كان أقرب مستشفى، وهو مستشفى نوسا الغيط العام، يبعد عنا مسافة نصف ساعة، كنتُ أعلمُ يقينًا أنَّ عمّار يلفظ أنفاسه الأخيرة، أو ربما لفظها بالفعل.

- الله يرحمه.. وماذا فعلتَ بعدها؟

- شيء غريب دفعني لأنْ أعود، وأرى ما الذي جرحَ باطن كفّ

قدمِه، وجعله يصرخ إلى هذا الحدّ.. حين رجعت إلى آثار الدماء على أسفلت الطريق، وجدت وردةً مدهوسة وعليها آثار دماء، وقد نَمَت على ساقِها شوكةٌ حادّة، لم تنكسِر بعد.

- وردة؟ هل قتَلَتْ أخاك وردةٌ يا وجيه؟

- لا.. الشوكة هي التي قتَلَتْه، لا الوردة.

بعدَ الدفن لزمتُ الشجرةَ العجوز التي شهدتْ سرنا ليل نهار، لم أكن أذهب إلى المدرسة إلا مرةً أو مرتين أسبوعيًا، لكني لم أترك دروسي، كنت أذاكر أحيانًا، وأقرأ دائمًا، أقضي أغلب وقتي في مكتبة المنصورة العامة، صيفًا وشتاءً، قرأت كل ما تصل إليه يداي، روايات وتاريخ وشِعر ومسرحيات.. وبعدَ وفاة عمِّار بسبعة أشهرٍ لحِقَه أبي، لن أنسى هذا التاريخ أبدًا.. الجمعة ٢٧ أغسطس ١٩٧٦.. أولِّ أيام شهر رمضان، صُمتُ هذا اليوم وأتيت إلى شجرتنا التي شهدتْ مولِدَ سِرِّنا ودفْنَه، لأفطر على برتقالةٍ واحدة فقط، مثل البرتقالة التي أعطاني إياها لأفطر عليها يومَ وفاته. ومرّتْ الأيام حتى اجتزتُ امتحان الثانوية العامة بدرجات متواضعة والتحقت بكلية الآداب جامعة المنصورة، قِسم اللغة العربية.

- والصندوق؟

- لا أعلم إنْ كنت قد صنتُ عهد أخي، أم نكثت بالوعد الذي قطعته، لم ألمس الصندوقَ إلا حين قررت النزوح إلى القاهرة بعد إخفاقي في الدراسة لمدة سبع سنوات، حتى صدرَ قرارٌ بفصلي مِن الكلية لاستنفاد مرات الرسوب.

- ولكني سمعتُ أنّك فُصِلتَ لسبب آخر؟ بسبب اعتدائك بالضرب على رئيس لجنة المراقبة، لدرجة أنّك تسبّبتَ له في عاهة

مستديمة.

- مَن أخبركَ؟

- إشاعات في الجريدة؟

- أكيد حبيبي عادل عجايبي كان يتجسّس على حديثي مع رئيس التحرير.. الغيْرة وسواسٌ في قلوب الناس على رأي عمّنا «حسين السيد»، مع أني والله لم أفشِ سِرّه يومًا.

- أيّ سِرّ؟

- كان صاحبك مُدمِنًا على مشاهدة الأفلام السكس، بمجرد دخولي غرفة مكتبه فجأة، وكنت أتعمّد ذلك، كان يسارع بإغلاق شاشة اللاب توب باضطراب شديد، ويقوم بلا سبب، ويُداري انتصابَ شيئِه بالملفات، وذات يومٍ دخلتُ أستدعيه لمكتب الأستاذ فوزي، هبَّ واقفًا، فلمحتُ بُقعةً ثخينة تزيّن بنطاله، قال إنّ كوب الشاي بلبن سَقط مِن يده.. ولكن على مَن؟ ده أنا أبو لوزة.

- مِن الطبيعي أن يشعر الأستاذ عادل بالغيْرة تجاهك، فهو المراقب المالي، ومِن المفترضِ أن يكون هو موضع ثقة الأستاذ فوزي دنيا، وليس أنت.. وخاصةً في الأمور المالية وشؤون الموظفين...

- عادل عجايبي يعاني مشكلاتٍ شخصية، غالبًا جنسية مع زوجته السابقة، يعاني إدمان الجنس مع أنه سريع القذف كما أُشيعَ عنه، لكنه مولع بالأفخاذ السمينة كما عرفت، كوكتيل عقد جنسية غريب.. عَلِمتُ أنّه غيَّر ملّته للطلاق مِنها، ليرتبطَ بشابةٍ تصغره بعشرين سَنة، تعرَّف عليها في فندق بيروت في مصر الجديدة، الذي يسهر فيه كل خميس.

- فندق بيروت؟ قريب مِن منزلي.. المهمّ ما الذي حدث؟

- لا شيء.. في امتحان مادة «تاريخ العرب قبل الإسلام» في السنة الثانية، وكانت مادةً ثقيلة وصعبة، في ذلك اليوم كان الجالس أمامي في لجنة الامتحان، أحد أصدقاء أخي المقرّبين الله يرحمه، أعتقِد أنني أخبرتك عنه، كان اسمه «وجدي المليجي»، وكان لا يفارق أخي، يَخرجان كل يوم إلى الغيطان ويجلسانِ على الطريق الزراعي، رأيته يرتمي فوق نعش أخي، ويبكى بكاءً شديدًا، حتى أنّهم جذبوه عنوةً لكي يدفنوا الجثمان، ولم يكن يريد دفْن الجثمان قبل يومين ليشبع منه كما قال، المهم.. التحق وجدي بكلية الآداب قَبلي بثلاث سنوات، إلا أنّه رسبَ عدّة مرات بسبب هذه المادة، كانت أسئلة الامتحان شديدة الصعوبة، رأيت قطرات العرق تتصبّب مِن وجدي لتغرقَ قميصه الأبيض، وورقة إجابته الأشدّ بياضًا، وكنت قد تهيأتُ للامتحان جيدًا، في تلك اللحظة كان رئيس اللجنة المراقِب يقف بعيدًا، مشغولًا بالحديث إلى إحدى المراقِبات الصغيرات، تعالتْ ضحكاته ففكّرتُ أنها اللحظة المناسبة، كنت قد أجبتُ على معظمِ الأسئلة بالفعل، أحنيتُ رأسي أسفل الدكّة بهدوءٍ ووضعت ورقة إجابتي على الأرضِ، ثمَّ خلعت فردة الحذاء اليُمنى، ودفعت الورقة إلى الأمام بقوّة، وناديتُ «وجدي» بصوتٍ خفيض أنَّ الورقة تحت قدميه، انحنى وجدي وأخذَ الورقة وشرعَ في نقل الإجابات، مرَّتْ نصف ساعة، لكن يبدو أنَّ أحدًا لمحني وأنا جالسٌ لا أفعل شيئًا، فارتابَ في الأمرِ، وأبلغَ رئيس اللجنة، فهُرِعَ ابن القديمة إلينا كمنْ لدغته حيّة، جذبَ الورقة مِن دكّة جلوس وجدي وقارن بين رقمِ الجلوس المُدوَّن على ورقة إجابتي وبين رقمِ الجلوس المدوَّن فوق «دكة الامتحان»، واكتشفَ اللعبة، أدركتُ في تلك اللحظة أنني

راسبٌ لا محالة، لكنني فكّرت لو رسبَ وجدي فسوف يُفصَل مِن الكليّة نهائيًا، شيءٌ ما استدعى إلى ذهني وجه «وجدي» وهو يبكي بحرقةٍ أمام نعش أخي، ورفضَه لدفن الجثمان قبل أن يشبعَ مِنه، التفتَ رئيس اللجنة نحوي وعيناه تطقّان شرارًا، جذبني مِن ياقة القميص، وبدأ في وصلة سبّ وشتائم، لزِمتُ الصمتَ لعدمِ تصعيد الموقف، كنتُ أرى في عينيه إحساسًا بالتشفي أو الشماتة غير المبرّرة كمنْ يتأهبُ لاقتناصِ فريسة، أو كمنْ ينتظر فضيحةً أو ضحية يصبّ عليها حقدًا مكتومًا، فزاد في الشتمِ والسبّ، لكنني لم أتمالك نفسي في اللحظة التي أتى فيها على ذِكر «أمي» وقال: «واللهِ لو جاءت أمّك الآن وقبّلَتْ حذائي لأعفو عنكَ، لبصقتُ في وجهها على عدم تربيتك»، صفعَني بعدَها صفعة قويّة على قفاي، شعرت لحظتَها بغضبٍ يفور داخل رأسي، مَرَّت عليّ لحظةٌ تجمّدَ فيها الزمن، وانتابتني لحظة جنونٍ وهياج أشبهَ باللحظات التي كانت تنتابني وأنا أسرق أثناءَ الموالد، لا أعرف كيف سحبتُ القلم الجاف من فوق «الدكّة»، وسدّدتُ طعنةً قويّة إلى رقبته، حتى تناثرَ الدّم وأغرق قميصي، لم أبالِ بما وقع له، بالعكس شعرت بمتعة الانتصار، وأحسست أنني ضربت عصفوريْن بحجرٍ واحد، أخذت حقي، وصرفتُ أنظار الجميع في الوقت ذاتِه عن موضوع الغشّ، وبالفعل انشغل الأغبياء بحادث الطعن والتفّوا حولي، بينما راح باقي المراقبين بذعرٍ وارتباكٍ يَجمعون أوراق الإجابات مِن الطلّاب، وفيما كان يجري ذلك، رأيت وجدي يسلّمُ ورقة الإجابة مسوَّدةً بالكامل، فحمدتُ الله في سري، ولم أبالِ بما جرى بعد ذلك.

- لكن هذه جناية؟ أقصد هل حُوِّلتَ إلى النيابة؟

- لا.. تَدخّـل كبـار رجـال القريـة مِـن أصدقـاء أبي لـدى رئيـس اللجنـة بصفـةٍ شـخصية، وسـعوا إلى حـلّ الموضـوع بشـكل ودّي، وكان الرجُـل -لـحُسن حظّـي- مِـن قريتنـا «ميـت دمسـيس»، طلـبَ مِـن أخـوالي عشريـن ألـف جنيـه للتصالـح والتنـازل عـن القضيـة، وهـو مَبلـغ ضخم سـنة ١٩٨٤، تخيّـل يـا يونـس.. عـشرون ألـف جنيـه.. كنـت أعـرِف مِـن عينيـه أنّـه «واطـي» و«حقـير».. تفتكـر يـا يونـس.. عمّـار أخـي سـوف يَدخـل الجنّـة؟ أم سـيلقَى عقابَـه مِـن الله عـلى السرقـة؟ ومـاذا عـني؟

لُذنـا بصمـتٍ اسـتمرَّ عـدة دقائـق. كان لـكلٍ مِنـا سـببُه في الصمـت. فكّـرتُ للحظـة أنَّ وجـيـه كان يحـاول التكفيـر عـن ذنبِـه في حـقّ أخيـه الأكـبر الـذي دفعـه إلى السرقـة، بينمـا كان أخـوه يحـاول إثنـاءَه عـن ذلـك، لكنـه رضـخ بسـبب حبّـه الشـديد لأخيـه الأصغـر، ووصيّـة أمّـه.

هـل كان وجـيـه يعاقـب ذاتَـه عقابًـا أبديًـا؟ هـل كان سـبب طعنِـه لرئيـس لجنـة الامتحـان هـو تألمّـه مِـن إهانـة أمّـه، أم كي يشـتّتَ أنظـار النـاس عـن موضـوع الغـشّ لينجـو صديـق أخيـه مِـن الفصـل النهـائي؟ وإنْ كان ذلـك صحيحًـا مَـن الـذي يَسـلك هـذا السـلوك مِـن أجـل صديـق أخيـه.

في الليلـة الـتي رجعـتُ فيهـا للمـنزل، دوّنـتُ حكايـة وجـيـه أبـو لـوزة في دفـتري بالتفاصيـل نفسِـها الـتي قصّهـا وجـيـه عـلى مسـامعي، لـم أزِدْ حرفًـا ولـم أنقِـصْ. لكنـني حـين أعـدتُ كتابـة القصّـة في الدفـتر الثـاني كمـا أفعـل دائمًـا، داهمَـني شـعورٌ قـوي أن وجـيـه كانت يسـيطر عليـه اقتنـاع راسـخ أن أخـاه قـد لقـي جـزاءَه الإلهـي عـلى السرقـات التي كان يقترفهـا، وربمـا اختـاره الله إلى جـواره بعـد أن كفّـر عنـه ذنوبَـه بهذه الحادثـة البشـعة، أمّـا هـو فقـد تُـركَ هكـذا بـلا عقـاب، حـرًا طليقًـا مثـل سـيزيف، يحمـل إصرَه، وحكايتـه القديمـة فـوق كتفـه كل يـومٍ،

فقـرّرَ أن يتطهّـرَ عـلى طريقتـه الخاصـة، أن يعاقـبَ نفسـه بنفسـه، وأن يـوفّي ديْنَـه قبـل أن يسـتقطعَ منـه.

هناك جريمة، ولا بد من العقاب، هكذا تكلّم وجيه أبو لوزة.

السـؤال الأهـمّ الـذي راودَني بعـد انـصرافي تلـك الليلـة؛ هـل أحَـس وجـيـه براحـة ضميرٍ حـين نـأى بنفسـه عـن أي فرصـة للنجـاح وتحقيق الـذات؟ هـل أجـبرَ نفسـه عـلى تلـك الحيـاة المتواضعـة كنـوعٍ مِـن أنـواع التطهـير الـذاتي وتكفـير الخطيئة؟هـل تكـون طريقـة تكفـيرٍ عـن الذنـوب في حـق مَـن أسـأنا إليهـم، هـي جلـد أنفسِـنا طـوال حياتنـا؟ وهـل كان وجـيـه يخـشى عقـاب الله حقًّـا؟ أم كان ضميره يؤنّبـه عـلى مـا لحِـق بأخيـه بسـببِه، قـال لي ضمـن كلامـه إن ثمـة صوتًـا داخليًـا لـم يفارقـه قَـط، يهمِـس في أذنِـه قبـل أن يضـع رأسـه عـلى الوسـادة:

«أنـت مَـن قتَلـت أخـاك.. أنـت مَـن قبِلـتَ ارتـداء حذائـه، لـو بقيـتَ حافيًـا، لعـاش الأمـين الصـادق ومـات السـارق الكـذّاب».

فبقـي طـوالَ عمـره يحـاول التكفـير عـن هـذا الذنـب، متقربًـا إلى مَـن كان يحِبهـم أخـوه، أقصِـد «وجـدي المليجـي» صديـقَ أخيـه، الـذي ضحّـى وجـيـه بمسـتقبله، مِـن أجلـه؟ صحيـح أنّ لـكل إنسـان طريقتَـه في معاقبـة نفسِـه؟ ولكـن هـل نصنـع مِـن أنفسـنا آلهـةً صغـيرةً؟ آلهـة تنصـب الموازيـن، وتحاكِـم البـشر وتضعهـم في الجنّـة والنـار بحسـبِ أهوائهـا وهواجسـها وأوهامهـا؟ هـل يراقِـب الله البـشرَ مِـن السـماء ويـترك لهـم فرصـةَ الخطـأ والاختيـار والرجـوع، بينمـا نـقلِّـدُه نحـن عـلى الأرض، بعـد أن نسـلُب منهـم فرصـةَ الخطـأ والاختيـار والرجـوع؟

أحسسـتُ في كلام وجـيـه بنـبرةٍ تطهريّـةٍ عنيفـة، رغـم أنّـه لـم يُبـدِ طـوال معرفـتي بـه أي مظهـرٍ مِـن مظاهـر التديّـن، لـم أرَه يومًـا يصلي، ولا يقـرأ قرآنًـا في نهـار رمضـان كمـا كان الجميـع في الجريـدة يفعـل

طـوال فـترة الصيـام، لـم أره يهتـم بـشيء، طـوال شـهر رمضـان، حيـث يتوقّـف عمـل البوفيـه بطبيعـة الحـال، سـوى العنايـة بتنظيـف وتلميـع سـتائر الخـرز الـتي كانـت أبـواب غـرف المحرريـن والصحفيـين. لا أعلـم. كلّ مـا أعلمـه أنَّ قلـب وجيـه طافـحٌ بإحسـاسٍ قاتـل بالذنـب، لا يسـتطيع الفـرار مِنـه.

كانـت عقـارب سـاعة الحائـط الضخمـة المعلّقـة في ردهـة الشـقة تشـير إلى العـاشرة صباحًـا، وكانـت شـمس ذلـك اليـوم قـد غمـرت شرفـة الشـقّة، وتسـلّل الضـوء مِـن فتحـة «الشـيش الخشـبي» ليصنـع شرائـحَ مسـتطيلة مِـن الضـوء الفـضّي عـلى مقاعِدنـا. نهـض وجيـه وتوجّـه إلى دورة الميـاه، لكّنـه لـم يغلـق البـاب وراءه. سـمعت صـوتَ صنبـور المـاء و«هـبّـة» سـخّـان الغـاز، ففكّـرت أنّـه يجـدد نشـاطه، اسـتعدادًا لجولـةٍ أخـرى مِـن الحكايـة. وحـين جـاء كان شَـعره القصـير مبلّـلًا بقطـرات مـاء.

أخـبرَني أنـه سـيخرج لـشراء فطـور سريـع مِـن محـل «التابعـي» في شـارع الألفـي وسـيعود سريعًـا. كانـت لهجتـه تحمـل مـا يشـبِه طلبًـا ورجـاء، وكأنّـه يريـد اسـتعطافي للبقـاء حـتى ينتهـي مِـن حكايتـه. اكتفيـت بهـزّ رأسي موافقًـا، فـأسرَع بمغـادرة الشـقّة. وبينمـا أنـا غـارقٌ في محاولـة ربـط أجـزاء حكايـة وجـيـه، اكتشـفت أنـني لـم أخـبِر أبـوَيّ بمسـألة المبيـت خـارج المنزل. نهضـت وتوجّـهـت إلى التليفـون الأرضي الموجـود بمكتـب «شـوزانـا» السـكرتيرة في أحـد أركان الصالـة لمهاتفـة أمـي. أخبرتـها أنـني اضطـررت للبقـاء في المجلـة بسـبب ظـروف عمـلٍ قهريـة، وأنـني قـد أمـرّ عليهـا بعـد صـلاة الجمعـة لتنـاول طعـام الغـداء معًـا قبـل سـفرِها مـع أبي صبـاح غـدٍ لأداء العُمـرة، ويبـدو أنّهـا قـد اطمأنـت حـين رأت رقـم تليفـون المجلـة الأرضي عـلى شاشـة

إظهـار رقـم الطالِـب عندهـا.

لـم يغِـب وجـيـه سـوى عشريـن دقيقـة، عـاد بعدهـا حاملًا حقيبـة بلاسـتيك تحـوي شـطائر فـول وفلافـل و«بابـا غنـوج» ومخلـل بلـدي، وزجاجـتيْ ميـاه معدنيـة.

ذهـبَ إلى المطبـخ وأعـدَّ كوبـيْن مِـن الشـاي وعـاد. أخرَجنـا شـطائر الفـول والفلافـل ورُحنـا نقضمهـا بصمـتٍ، وعينانـا لا تـكادان تلتقيـان.

- هل ستذهب لصلاة الجمعة يا يونس؟

- لا أعرف.. ما رأيكَ؟

- كمـا تحـبِ، ولكـن بـواب العمـارة هـو خـادم الزاويـة المجـاورة للعمـارة، وهـو كسـول، يسـتيقِظ قبـل صـلاة الجمعـة بنصـف سـاعة، لذلـك ذهبـتُ لجلـب الفطـور وعـدتُ بسرعـة، وإذا رآنـا قـد يُخـبِر الأسـتاذ رئيـس التحريـر أننـا أتينـا إلى هنـا يـومَ الجمعـة، بمعـنى «سـين» و«جيـم»!

- ولكنّك مقرّب مِن رئيس التحرير كما نفهم.

- لـكل شيء سـبب.. سـأحكي لـكَ. كان عُمـري واحـدًا وعشريـن عامًـا حـين صـدر قـرار فصـلي مِـن كليـة الآداب سـنة ١٩٨٤، بـدأتُ البحـث عـن عمـلٍ في أي مـكان وبـأيّ راتـب، لكـني تعـثرت في الحصـول عـلى أي وظيفـة بسـبب موضـوع الفصـل مِـن الكليـة.. سـاءت أحـوالي الماديـة، لـم أجـرؤ عـلى الاقـتراض مِـن أخـوالي بعـد مبلـغ التصالـح الضخـم الـذي تكبّـدوه لإنقـاذي مِـن السـجن، مـررت بأيـام ضنـك، وحـتى الطـلاب الذيـن كنـت أكتـب لهـم قصائـد وأزجـالًا ليشـاركوا بهـا في المسـابقات الشـعرية الـتي كانـت تُجريهـا الفِـرَق الثقافيـة في الجامعـة كانـوا قـد تخرّجـوا، هاتفـتُ عمـي «جـودة الدمسـيسي» وكان قـد هاجـرَ

إلى السعودية سنة ١٩٨٠ للعملِ «كنجار مسلّح» في إحدى شركات المقاولات في محافظة القطيف، ثمّ استقر هناك معَ أولاده في حيّ متواضِع، يجاور حمّام أبو لوزة الذي أخبرتك عنه، ومِن هنا جاء الاسم الذي انتشَر في القرية كلّها وصار لقب العائلة، رغم أنّهم كانوا خارج مصر، إلا أنَّ لقب «أولاد أبو لوزة» بات على كل لسان في القرية، المسافر مِنهم وغير المسافر، المهم أنني طلبت مِنه مساعدتي في الحصول على فرصة عمل، وقتَها كنت أريد ترْك مصر بأي وسيلة، وكانت الهجرة إلى الخليج موضة تلك الأيام، تجاهَلَ عمّي الأمر رغم طلبي الأمر عدة مرات، وفي يومٍ اتصل بي وقال إنه تعرّفَ على صحفي مصري أثناء تأدية العُمرة، عرَف مِنه أنه كان يعمل في الرياض منذ سنوات بإحدى الصحف، وقررَ العودة إلى مصر ليؤسّس جريدةً أو مجلّة وأنه يريد معاونًا إداريًا.. للكتابة على الآلة الكاتبة وتنظيم شؤون المكتب، على ألا يكون أجره كبيرًا.

- عفوًا يعني، لكن لو أنا شخصيًا كنت أعمل مع رئيس التحرير منذ عشرين عامًا، لكان مكاني الآن.. نائب رئيس مجلس الإدارة مثلًا، مهما كان مؤهلي.. عفوًا يعني.

- كان هذا طلبي.. أن أبقى في الظل على الدوام، للظلّ وهجه يا يونس، وكنت سعيدًا بوهج الظلّ، ساعدته في كل شيء.. في العثور على مقرّ للجريدة، في التفاوض مع صاحب العمارة على مدة الإيجار، في تجهيز المقرّ وفَرشِه بالأثاث، وفي إنهاء أوراق التراخيص، وحين اشترى فوزي بك سيارة بيجو جديدة، كنت سائقه الخاص، كنت أفعل له كل شيء وأي شيء، وبمرور السنوات وتوطّد الثقة، وخاصةً في المسائل المالية، صِرت مستشارَه في الأمور كلّها، وحرّرَ لي توكيلًا بنكيًا لصرف الشيكات، وإيداع الأموال في حسابه في بنك

القاهـرة فـرع عـدلي، وجلـبِ البـاقي إلى الأسـتاذ عـادل في الشـؤون المالية (وربمـا كان ذلـك سـبب غـيْرة عمّـك عـادل عجايـبي لأنـه المراقـب المالي، وهـو الأولَى بتلـك الثقـة) تصـدّق بـالله.. ورحمـة عمّـار الدمسـيسي في نومتـه.. كنـت أحمـل حقائـب أمـوال بـآلاف الجنيهـات، ولـم يكـن فـوزي بـك دنيـا يخـشى عـلى أموالـه، واللهِ يـا يونـس كنـت أسـتقل تاكـسي مِـن وسـط البلـد إلى الهـرم عـلى حسـابي، خوفًـا مِـن سرقـة المـال في المواصـلات.

- الهرم؟

- نعـم.. كان مقـرّ المجلـة الأصـلي يقـع في شـارع المطبعـة بالهـرم، لكننـا انتقلنـا إلى هـذا المـكان في نوفمـبر سـنة ١٩٩٢ بعـد الزلـزال مبـاشرةً، كان زلـزالًا مشـفوعًا بتوابـعَ أكـثر قسـوة.. في هـذه السـنة ألمَّـت برئيـس التحريـر مصائـب أشـدّ، طلّقَتـه زوجتـه الثانيـة غيابيًـا بعـد هروبهـا مـعَ شـابٍ صغـير.. كانـت سـكرتيرة التحريـر، وكانـت أنـثى فائـرة حائـرة، التحقـتْ بالعمـل بعـدَ توصيّـة مِـن بـواب العمـارة الـتي تقـع فيهـا الجريـدة، لا أحـد يعلَـم صلـة القرابـة بينهـا وبـين البـواب، لكـن الأسـتاذ فـوزي وافـق عـلى تعيينهـا إكرامًـا لخاطـر البـوّاب، وكان لدينـا مصـوّر صحفـي شـاب.. تصـدِّق بـالله؟ كان مُعدَمًـا حـين أتى.. واللهِ يـا يونـس.. دخـل الجريـدة للمـرة الأولى مُرتديًـا «شبشـب حمّـام»، فمنحـه رئيـس التحريـر فرصـة العمـل مصـورًا تحـت التمريـن بمكافـأة شـهرية معقولـة، لكـن «بنـت الحـلال» كانـت تـأتي لمكتـب فـوزي باشـا كل يـوم وتجلـس معـه بالسـاعات، عرَفـنا بعدهـا السـبب وراء الزيـارة اليوميـة غـير المبرّرة، وبعـد شـهورٍ همَّـتْ بالمصـوَّر وهَـمَّ بهـا، ثـمّ هَربـا بعـد أن أخـذتْ منـه نصـف «تحويشـة الغربـة»، وديعـة ضخمـة بمبلـغ ربـع مليـون جنيـه مـصري، اشـترطتْ «بنـت الأبالسـة» وضـع المبلـغ باسـمها

في البنك حين تزوّجا، فلما هربتْ مع عشيقها، أصِيب الرجُل بأزمةٍ قلبيةٍ، وخضع لجراحةٍ دقيقةٍ لزم خلالها الفراش طوال خمسة أشهر، تركَه خلالها عددٌ مِن الصحفيين بعد تأخّر الرواتب، وتوقّفِ الإعلانات بسبب الإشاعات التي انتشرت حول إغلاق الجريدة لمرضِ رئيس التحرير.. كنت أنا الوحيد الذي بقيت معه، كنت أقضي له مشاويره الشخصية جميعها، من التردّد إلى نقابة الصحفيين لاسترداد مصاريف العملية، حتى الذهاب إلى البنوك لتحصيل الفوائد التي كان ينفِق منها على نفسه، وعلى علاجه بعد أن حرّرَ لي توكيلًا بنكيًا، باشرتُ عملي بإخلاص ومثابرة، ولم ينسَ الرجُل يومًا صنيعي معه، ولم أنسَ أيضًا أنه مَن ساعدني في الحصول على فرصة عمل بعد أن لفظَتني الدنيا، ولكن «كما تدين تُدان»، والدنيا يوم لك ويوم عليك، ففي أواسط التسعينيات تقريبًا تعرّفَ رئيس التحرير، على رَجل أعمالٍ شابٍ يمتلك مصنع مسبوكات في الإسكندرية، كان نجمه قد بدأ في الصعود بسرعة الصاروخ في لجنة السياسات بالحزب الوطني الديمقراطي، فعرَض على فوزي بك سداد مديونيات الجريدة، ودفْع الرواتب المتأخرة، وضَخّ المزيد مِن الأموال، مقابل شراء حصّة صغيرة مِن أسهم الجريدة، وإتاحة الفرصة للكتّاب المؤيدين للنظامِ، لمدحِ سياسات الحزب الوطني، والتعريف بالمشروعات الجديدة، باختصار تلميع الوريث القادم، ورشَّحَ «عادل عجايبي» بصفتِه مراقبًا ماليًا.. جاسوسًا متخفّيًا.. وافقَ رئيس التحرير مضطرًا، ولم تكد تمضي شهور حتى تدفّقَت الأموال إلى الجريدة مِن جديد، واستقرت حالتنا المادية، أمّا رئيس التحرير فطَلَب مني أن أكون أولَ مَن يزور مكتبَه صباح كل يوم، نوعٌ مِن التفاؤل.. كان يعتبرني ابنَه.

- صحيح.. ألم ينجِب؟

- لا.. كان هـذا هـو السـبب وراء انفصالـه عـن زوجتـه الأولى، وخيانـة الثانيـة.. دنيـا غـرورة يـا عـم يونـس مثـل شـعلة الفحـم.. تصهلـل سـاعات وتنطفـئ سـاعات أخـرى.. لكّـن الحـق يقـال.. طِباعـه لـم تتغيّر رغـم كل مـا لحِـق بـه مِـن مصائـب.. لـم يحقِـد عـلى الدنيـا ولا عـلى البـشر، لـم يُضمِـر شرًا ولا غِـلًّا لأحـد كمـا لأي شـخصٍ في مكانـه كان أن يفعـل لـو حـدثَ لـه مـا حـدث.

- صحيـح.. مـا سرّ رقّـة قلـبِ رئيـس التحريـر الشـديدة تجـاهَ الموظّفـين؟ لـم أره يعاقِـب أحـدًا يومًـا برغـم معرفتـه بتقصيرهـم، وتأخُّـر السـواد الأعظـم منهـم، لفـتَ نظـري أن الصحفـي أو المحـرّر الـذي كان يسـير «مُـعْوَّجًـا»، يعـود إلى صوابـه بعـد أيـام بقـدرة قـادِر، لـم أره يومًـا يجتمـع بأحـد ولا يوبّـخ أحـدًا في غرفـة مغلَقـة.. كان يقابـل الجميـع بابتسـامة غريبـة.. مثـل ابتسـامة القِطـط!

- ألـم أقُـل لـكَ إنـك روائي جيّـد، كان هـذا اقتراحـي.. كذبـة بريئـة، ولـعبـــة بسـيطة اقترحتُهـا عـلى رئيـس التحريـر.. اقترحـت عليـه طبْـع صـور قِطـط صغـيرة عـلى الطابعـة اللـيزر الموجـود في مكتبـه، وأن يكتـب فـوق صـورة القِطّـة الوديعـة المبتسـمة never trust a smiling cat، وفي وقـت الظهـيرة وبمجـرد قـدوم رئيـس التحريـر، كنـت أدخـل وراءه الغرفـة، لنغلِـق البـاب وراءنـا ونتحـدث، ثـمّ أبـدأ في طبْـع صـور القطـط، ليكتـب الأسـتاذ فوقَهـا بخـطّ يـده هـذه العبـارة، ثـمّ أخـبِره بأسـماء الصحفيـين والمحرّريـن «المُـعْـوجَّـــين»، ليضـع رئيـس التحرير في بريـد كل محـرّر لعـوب أو دائـم التأخـرِ أو كسـول، صـورةَ قِطّـة.. مكتـوب عليهـا بقلـمٍ حـبرٍ ثخـين never trust a smiling cat، وكنـتُ أوزّع عليهـم البوسـطة وتكليفـات العمـل الـواردة مِـن رئيـس التحريـر

شخصيًا بيدي، أعطيه ملف البريد وأنا أبتسِم.

- وهل نفعت اللعبة؟

- عيب عليك.. طبعًا.. كانت رسالةً مهذّبة إلى كل صحفي أو محرّر أو موظف، مفادها: لستُ مغفلًا.. وعيني عليك.. صحيح أنا طيب القلب.. ولكن never trust a smiling cat.. صدقّني يا يونس.. كان الصحفي أو الصحفية يعود بعدها إلى الانضباط، لم يكن يستمرّ كثيرًا، حتى تعود «ريمة» لعادتها «القديمة»، وإنْ عدتم عدنا، فإذا لاحظتُ معاودة الصحفي أو المحرّر «للاعوجاج»، أطلبُ مِن فوزي بك وضْع صور القطط المبتسمة مِن جديد.. رئيس التحرير رَجل طيب القلب إلى أقصى حد.. لم يكن يهوى إيذاء أحد.

- وهل كان «عادل عجايبي» على قائمة المُعاقَبين؟

- لا.. كان رئيس التحرير يعلَم أن عادل لا يدين له بالولاء الكامل، بل لرجُل الأعمال «الواصل».. أمجد عزيز.. فالرجُل لم يكن مِن أبناء الجريدة القدامى، ثمّ ما معنى «مراقِب مالي»؟ كان للجريدة مراقِب حسابات قانوني يقوم بإعداد الميزانية والحساب الختامي.. أراهنك أنه لم يستمر طويلًا.. عادل طمّاع، يجري وراء «شيئِه المنتصِب» دومًا.

- نبوءة أم رؤيا؟

- رؤيا ما وراء السِتار.

تشعّبتْ مسار قصص وجيه أبو لوزة حتى شعرتُ بدوار. طلبتُ دخول دورة المياه للتفكير بهدوءٍ في مسار القصّة، وسببِ مجيئه بي إلى هنا يوم الجمعة. أثناءَ وجودي في دورة المياه، سمعتُ صوت دوَي خلّاط يتصاعد مِن مطبخ الجريدة الملاصق لدورة المياه.

حين عدتُ إلى الصالة، وجدت وجيه قد رفع بقايا الطعام، وأعَدّ كوبين «ليمون خلّاط بنزهير».

- كل هذا ولم تُخبِرني شيئًا عن الصندوق، بصراحة يا وجيه.. أريد أن أعرِف لماذا جئتَ بي إلى هنا اليوم؟

- اشربْ أولًا الليمون البنزهير حتى لا تتهمني أني سأتسبّب لك في «قرحة معدية».

- يا رَجل.. الليمون أقوى أسباب القرحة المعدية.

- روَّق دمّك.. على فكرة أنا لا أكره في حياتي سوى الكذب.. يعلَم الله أنني أحِبك كأخٍ لم تلِده أمي، تُشبِه أخي -ربنا يطول عمرك- في كل شيء، في الرجولة والتواضع والجدعنة.

كانت ثمّة نظرةٌ غريبة تشع مِن عينَي وجيه أثناء سردِ القصّة، نظرةٌ متشكّكة، نظرة مَن يحاول معرفة إن كنت أصدّق حكايته بمتاهاتها المتشعبّة، شعرتُ أنه كان يجاهِد ليُخرِج مِن فمِه كلّ كلمةٍ بصدق. أطرقتُ دقيقةً إلى الأرضِ، فتقدَّمَ وجيه في مقعده، وبات على الحافّة وهو يُدنِي رأسه مني ويقول:

- اسمع يا يونس.. بعد وفاة عمّار لم أتوقّف عن الذهاب يوميًا إلى مكتبة المنصورة العامة في الصيف لأقرأ، وكانت أول رواية قرأتها في حياتي هي «الإنسان الصرصار» لدوستوفسكي، ومنذ ذلك اليوم لم أتوقّف عن قراءتها، كنت أشعر أنني المقصود، أنا الإنسان الصرصار.. المريض.. الخبيث.. المؤمِن بالخرافات إلى أبعد حَدّ.. هناك فقرة علقت بذهني إلى اليوم، كانت تقول إن لكل إنسان منا ذكرياتٍ لا يريد أن يصرح بها للجميع، وإنما لأصدقائه فقط، ولديه أشياء أخرى يخشى أن يخبر بها حتى نفسه، وكلما ازداد الإنسان

تخلفًا، ازداد عدد هذه الأشياء في ذهنِه.. افهمني يا يونس.. كلامي معك ليس سوى محاولةٍ لأن أكون صريحًا لأبعد الحدود، وألا أخشى مِن قولِ الحقيقة كاملة، وهذا البوح مثل إزاحة الصخرة التي أحملها على ظهري.. لقد نويتُ العودة إلى «ميت دمسيس» لأستقِر هناك، وطالما أنني صارحتك بتفاصيلَ مِن حياتي الشخصية، فلن أخفيك سِرًا مهمّا، حتى مِن باب الرجولة والصداقة كي تبدأ في البحث عن فرصة عملٍ في مكانٍ آخر، سوف يبيع رئيس التحرير الجريدةَ إلى رَجل أعمال الحزب الوطني الصاعد الذي أخبرتك عنه، لكنها ستحتفِظ بالاسم نفسِه، وسيتحوّل مقرّ الجريدة إلى منبر إعلامي للحزب بسبب موقعه المتميّز في وسط البلد، وبسبب مصداقية الجريدة في أوساط المثقفين، وفي المقابل سيحصل رئيس التحرير على مَبلغ ضخمٍ نظيرَ إتمام عملية البيع، ونقْلِ ملكية الجريدة إلى رَجل الأعمال، هذا بخلاف تحمّل المُشتري دفْع تعويضات إنهاء عقود الموظفين المثبّتين وغير المثبّتين، كما أنني سأحصل على مَبلغٍ محترم.. مائتَي ألف جنيه مِن جيب رئيس التحرير شخصيًا.. مكافأة نهاية عشرين سَنة خدمة، أو كما أسماها مكافأة «الجدعنة»، أعتقِد أنه سيجتمع بالموظفين يوم الاثنين القادم لإخبارهم بشكل رسمي في حضور المستشار القانوني للمشتري الجديد، وبالمناسبة علِمتُ أنّه سيعطيك خمسة آلاف جنيه، تعويض إنهاءِ الخدمة، وهي قيمة شهريْن عن كل سَنة عمل.. يونس.. قد لا أراك مرةً أخرى، في الجريدة على الأقل، اسمعني يا صاحبي.. هذا الصندوق هو أغلى ما لديّ، ولن أعود به إلى ميت دمسيس ثانيةً، شِعتُ منه، أعطاني الكثير، ربنا أكرمَني بمكافأة رئيس التحرير، التي لم أكن أتوقعها.. سأمحو ذاكرتي وأشتري ذاكرةً جديدة.

- ذاكرة جديدة؟

- نعـم.. سـافرتُ يـوم الجمعـة المـاضي إلى ميـت دمسـيس فـورَ معرفـتي بموضـوع مكافـأة رئيـس التحريـر الضخمـة، كنـت أبحـث عـن قطعـة أرضٍ في «ميـت دمسـيس»، ولكـن في مـكان أبعـد عـن مسـقط رأسي قليـلًا، مـكان لا أعـرف فيـه أحـدًا، ولا يعرفـني فيـه أحـد، وكان هنـاك صـوتٌ مجنـون كالعـادة يَصـدح في رأسي، طفـتُ القريـةَ أسـأل عـن أصحـاب قطعـة الأرض المهجـورة الـتي دفنـتُ فيهـا سرّي مـع أخـي منـذ ثلاثـين سَـنة، ويشـاء السـميع العليـم أن تَبقـى الأرضُ عـلى حالهـا دون مُـشترٍ أو مـزارعٍ طـوال عقـود، وكأنهـا عـروسٌ بِكـر تنتظـر حبيبهـا حـتى يعـود بالمَهْـر، فاتفقـتُ مـع ورثـة صاحـب الأرض عـلى شرائهـا، ودفعـتُ عربونًـا، وحرّرنـا عقـدًا ابتدائيًـا، سـأبني فوقَهـا بيتًـا صغـيرًا، وقـد أتـزوّج، وأُرزَق بعمّـارٍ صغـيرٍ يعوضـني الله بـه خـيرًا، أزرع فيـه مـا افتقدتـه.. يونـس.. قـد لا يكـون الصنـدوق ذا أهميـةٍ بالنسـبة لـك، وقـد تعـثر فيـه عـلى أشـياءَ قـد تنـير لـك الطريـق.

- تنير الطريق؟ تقصد شموعًا؟

- الشـموع دمـوع يـا عـمّ يونـس.. لا يحـوي الصنـدوق سـوى حبّـات الخـرز الكريسـتالية المثقوبـة الـتي وجدتهـا منـذ ثلاثـين سَـنة، وتركتهـا عـلى حالهـا.

- اسـمعْ يـا وجـيـه.. لا أنكِـر أني أحبّـك وأثِـق بـك، وخاصـةً بعدمـا رويـتَ لي موضـوع تصفيـة الجريـدة وبيعهـا والتعويضـات، وهـذا يعني أنـني موضـع ثقتِـك أيضًـا، ولكـن ذلـك لا يعـني أنـني أبلـع كل شيء؟

- تبلع كل شيء؟

- ماذا أفعل بصندوق خرزٍ؟

- تفكّ به شفرةَ العالم.

- يا سلام.. هكذا تكلَّم الفيلسوف وجـيـه أبو لوزة!!

- حقـك عـليّ.. لكـن بمـا أنـك كنـتَ صادقًـا معـي، فسـأخبرك بـشيءٍ أخـير، قـد تصدّقـه وقـد تعتـبرني دجـالًا مخرفًـا.

- أكيد ستحكي لي حكاية الصندوق المسحور.

- اسـمعْ يـا يونـس.. مـن تجربـتي القصـيرة في الحيـاة تعلّمـتُ أنهـا تقسـو علينـا كثـيرًا، لكنهـا تمنحنـا في المقابـل لحظـات جنـون خاطفـة تُعيننـا عـلى مواصلـة العيـش.. ألـم تجـرب ذلـك؟ اسـتفتِ قلبـكَ.

أفحمتـني إجابـة وجـيـه، مثلمـا كانـت تفعـل دائمًـا. كانـت إجاباتـه عـلى الـدوام ذكيـةً ومُتقنـة رغـم عفويتهـا، تعـرف طريقهـا مثـلَ رصاصـةٍ مُصوَّبـة بدقـة، لتصيـب ذاكـرتي في مقتـل، نظـرتُ إلى عينيـه، كانتـا جامدتـيْن تمامًـا مثـل عيـنَي سـمكة.

- نصيحـتي يـا صاحـبي قـد تكـون غريبـة، ولكنّهـا مُـجَـرَّبة: أفضـل طريقـةٍ لمعرفـة مـا إذا كان بإمكانـك الثقـة بشـخص مـا هـي أنْ تثِـق بـه.

- هانرجع للحكايات تاني.

- اسمع منّي.

- تفضَّلْ.

- أتيـتُ إلى القاهـرة حامـلًا معـي هـذا الصنـدوق، ولازمـني طـوال عشريـن عامًـا، كنـت قـد اسـتأجرت الشـقّة نفسـها الـتي أسـكنها حاليًـا في غمـرة، بالمناسـبة في (٨) شـارع لطفـي السـيد، هـذا لـو أردتَ يومًـا زيـارتي.. المهـم.. في ليلـة لا أنسـاها، عُـدت مـن الجريـدة خائـرَ القوَى، كان الطقـس شـديد الحـرارة، فأشـعلتُ المروحـة الوحيـدة في غرفـتي، وارتميـت عـلى السريـر بملابـسي الداخليـة لأغـطَّ في نـومٍ عميـق، لا

أعلم كم ساعةً نِمتُ، استيقظت على حبّات عرقٍ لزجة تسيل فوق ظهري وتدغدِغ ما تحت إبطيّ لتُغرِق الوسادة، كانت الشقّة غارقة في العتمة، لغرفة نومي نافذةٌ صغيرة تُطِل على الشارع الجانبي، نهضتُ ووقفت على ركبتَيّ، مُداريًا نصفي الأسفلَ العاري، ونظرت مِن نافذة الغرفة.. لمحتُ جارًا واقفًا في الشرفة فسألته بإشارةٍ مِن يدي، فأخبرني أن انقطاع الكهرباء يشمل غمرة ورمسيس، وسيمتّد حتى الصباح، قمتُ لأفتح نوافذ الشقّة كلّها لدخول نسمة هواء، وأوقدتُ المصباحيْن الكيروسين اللذيْن أملكهما، وضعتُ واحدًا في حجرتي والآخَر فوق كرسي موجود بالشُرفة.. قعدتُ على الأرضِ مُتلمِّسًا برودة البلاط، ومُستندًا بظهري إلى الصندوق، خطرتْ ببالي فكرةٌ غريبة، لماذا لا أُخرِج حبّاتِ الخرزِ لألعب بها قليلًا، فغدًا الجمعة، وانقطاع الكهرباء متواصل حتى الصباح، والحَرُّ سيقضي على أيّ مشروع للنوم، على ضوء المصباح الكيروسين شرعتُ في حلّ الرباط الصوف المربوط على شكل (٨) الذي يُغلَق به الصندوق، وبدأتُ في إخراج حبّات الخرز، أفرغت الصندوقَ تمامًا مِن محتوياته التي وضعتها أنا وأخي منذ نحو عشر سنوات، ثمّ أفرغتُ بعنايةٍ حبّاتِ الخرز فوق بلاط الشُرفة، وأخذت خيطًا مِن الخيوط النايلون الطويلة التي كانت راقدةً في قاع الصندوق.

- ماذا كنتَ تنوي أن تصنعَ؟

- لا أعرف.. لم أكن أخطّط لشيء، كنت ألعب ألعابَ الوحدة، أقطع الوقت قبلَ أنْ يقطعني، فكّرت أنه بإمكاني صُنْع ستارة خرزٍ أضعها على العتبة الفاصلة بين الشرفة وحجرة نومي، وكنت أعاني مِن مشكلة ضرورة إغلاقِ ضلفة الشيش حين أريد الجلوس بدون تكلّفٍ كي لا يراني أهل بيت الشقّة المقابِلة، وكانت لهم ابنةٌ فاتَها

قطار الزواج، ولم تكن تغادر شرفة الشقّة مطلَقًا، أحسستُ أنها كانت تريد اقتناص أيّ عريس أو على الأقل إغراءَه، أو حتى إيقاعَه ولو في مشكلة، فكنتُ أخجل مِن الجلوس على «الكنبة» عاريًا كي أقرأ كما أحِب أن أفعل، أو حتى الجلوس على «الطبلية» للأكل ومشاهدة التليفزيون، فقرّرتُ صنعَ ستارة مِن الخرز، تداريني عن الناس، وتداري الناسَ عني.

- وهل تعرِف كيف تُصنَع ستارة الخرز؟

- لا.. اعتمدتُ على الذاكرة.. ذاكرة الفلاح يا صاحبي.. رأيت ذات يومٍ العمّالَ الذين كانوا يؤثِّثون مقّر الجريدة القديم في شارع المطبعة بالهرم، رأيتهم يصنعون ستائر خرز كان رئيس التحرير قد طلبَ أنْ تُصنع لتوضعَ على بابِ كل حجرة مِن حجرات الجريدة، لم يكن يحِب الغرفَ المغلقة، فاخترعَ هذه الفكرة التي هي مزيج بين الشفافية والخصوصية، كان الموضوع بسيطًا، أنت ترى أنه كرّر الموضوع نفسَه في المقرّ الجديد الذي نجلس فيه الآن.. لم أكن محتاجًا أكثرَ مِن خيوط نايلون وخرز كبير وقلم رصاص.

- طالما فكّرتَ في سرّ ستائر الخرز التي استُبْدِلَتْ بالأبواب.. المهمّ.. هل صنعتَها؟

- لا أنكِر أن الموضوع كان صعبًا في البداية، إلا أنَّني صمّمتُ على الانتهاء مِنها في هذه الليلة، لا أعرِف لماذا.. ربما الوحدة.. ربما المغامرة.. وربما ذكرى الصندوق الذي لم يُفتَح منذ زمنٍ.. كانت حبّات الخرز مثقوبةً مِن المنتصف، فلمْ أفعل سوى إدخالها إلى الخيط النايلون واحدةً تلو الأخرى، كانت الصعوبة في خفوت إضاءة مصباح الكيروسين، إلا أنني واصلتُ العمل بنشاطٍ محمومٍ وغريب لم أفهمه أنا شخصيًا، قدّرتُ المسافة مِن «البلتكانة» أعلى

إفريـز ضلفـة الشرفـة حـتى الأرض بنحـو مـتر، وكان طـول كل خيـط نايلـون يتجـاوز المتريْـن في تقديـري، قصصـتُ طرفًـا مِنـه، وأولَجـتُ حبّـاتِ الخـرز بـدون ترتيـب محـددٍ للألـوان، أُدخِـل أولَ حبـةٍ تلتقطـه أصابعـي.. أحمـر.. أزرق.. أسـود.. أخـضر.. لا يهـم، فكّرتُ أن عشـوائية انتقـاء الألـوان قـد تسـهِم في تشـتيتِ بـصرِ مَـن يريـد التلصّـصَ عـليّ، وكنـت حـين أصِـل لنهايـة الخيـط أعقِـد الخيـط مرتـين وأقصّـه، ثـمَّ أخفيـه في الخـرزات الـتي قبلَـه، وهكـذا، وبعـد نهايـة كل خيـط كنـت أرتفِـع مسـافة ٢ سـم عـن الخيـط الـذي قبلَـه حـتى أحصـل عـلى شـكلٍ زجـزاجٍ أو متـدرّج، رأيتهـم يفعلـون ذلـك في مقـرّ الجريـدة القديـم.. لـم أشـعر بالوقـت وأنـا أعمـل بقـوّة وسـعادةٍ بالغـيْن، حـتى سـمعت صـوتَ زقزقـة عصافـير، ورأيـت مِـن بعيـدٍ أشـعةَ الفجـر تغـزل هـي الأخـرى خيوطهـا، كان الخـرز كثـيرًا، فصنعـتُ سـتارتيْن مِـن الخـرز، علّقـتُ واحـدةً عـلى عتبـة الشرفـة، والثانيـةَ عنـد مدخـل غُرفـتي بعـد أن أزلـتُ بـاب الغرفـة تمامًـا.

- وهل دارتْكَ ستارة الخرز ودارَت الناسَ عنك يا وجـيـه؟

- لا.. ولكنها جلبتْ لي رؤى جميلة، لم أرَ أجملَ مِنها في حياتي.

- رؤى؟ ألم أقلْ لك.. صندوق سحري وخرز مسحور.

- تخيّـل أشـعة الشـمس وهـي تطـرق بـابَ شرفتـك صباحًـا، فتسـتقبلها حبّـات خـرزٍ بلّوريـة، فتمـتزج الألـوان كلّهـا.. سِـحر واللهِ يـا يونـس.. سِحر.. الموضـوع لعبـة يـا يونـس.. لعبـة العُمـر الجميـل.

- لن أصدّقكَ قبل أن تحكي لي حكايتها.

- اسمها رؤيا هذه المرّة، وليس حكاية.

- تمام.

- كل ما حكيته شيء، والرؤى التي كانت تراودني عندما كنت أشرد في أطياف ستارة الخرز شيءٌ آخر، لن أنسى أبدًا منظر أشعّة الشمس وهي تتسلّل مِن شرفة الشقة لتسقطَ فوق ستارة الخرز، فتتراقص بخفةٍ ودلالٍ بتأثير الهواء الخفيف القادم مِن شبّاك المطبخ، ويرتدُّ انعكاس الأشعة إلى بصري، فيُكشَف عني الغطاء، ويصير بصري حديدًا.

- احكِ.. احكِ.. قد أصاب بانهيار عصبي بعد قليل.. ولكن احكِ.

- طالما شغلتني حكاية «اليمامة الموؤدة» التي وجدناها في الصندوق الأبنوس، والسلك المعدِني الملفوف حول عنقها، والفرخ النافِق الذي كانت أرجلُه متشبثة بريشها، كنت أتساءل كل يومٍ قبل ذهابي للفراش أيّ وحشٍ قد يفعل ذلك؟ ولماذا؟ أرّقَني الموضوع كثيرًا.. وفي ليلةٍ حَلُمْت فيها بأبي وهو يوبّخني، ويصفعني على قفاي أمام أولادِ عمي جودة بسبب شيءٍ لا أذكرُه، استيقظتُ وقلبي مملوءٌ بغيظٍ وحنق، ليس على أبي فحسب، بل على العالم بأسرِه، ويبدو أن الأحلام والرؤى لم تكن تأتيني إلا ليلةَ الجمعة.. استيقظت على صوت أذان الفَجر القادم من مسجد الرحمة المجاوِر للعمارة التي أسكنها، وسمعتُ زقزقة عصافير تنقرُ على ضلفة «الشيش».. كان ضوء الفَجر الواهن قد بدأ ينفذ بهدوءٍ مِن باب الشُرفة الموارَب، وكنت ساعتَها في تلك المنطقة الرمادية المتأرجحة ما بين النوم واليقظة، تململتُ في فراشي قليلًا وأنا أنظر إلى سقف الغرفة، مفكرًا في هذا الحُلم، ربما مرَّت ساعةٌ كاملة حتى بدأ ضوء النهار يغمر الغرفة كلّها، ومِن وراء ستارة الخرزِ التي كانتْ تتألق بأنوار عجيبة بسبب انعكاس ضوء النهار فوقَها، رأيت مَشاهِد متتابعة وكأنني في فيلم سينمائي، أبصرت طفلًا في

مثل سِنّي حين رأيت حُلْم الأمس، ربما في الثامنة أو التاسعة مِن عمره، يبكي أمام جسد أمِّه الميّتة المسجّى أمامَه، ثم ما يلبث جثمان الأمّ أن يطير في الهواء ويختفي، فيقفز الطفل بقوة، رافعًا أطراف أصابعه ليجذب الجثمان للأسفل، وهو يصرخ صراخًا عنيفًا متواصلًا: «أمي.. أمي.. لِمَ تتركينني؟»، يختفي المشهد ليظهر صبيّ شديد الشبَه بأخي عمّار، وهو يربتُ على كتفِ الطفل ويضمّه إلى صدره.. ثمّ يختفي المشهد ليَظهر رَجل أشبَه بأبي وهو يعنّف الطفلَ الصغير تعنيفًا شديدًا، ويجذبه من ياقة جلبابه الأخضر القصير، ويكيل له الشتائمَ بصوتٍ جَهوري حادٍ أمام أقاربه، بسبب تبوّل الطفل في الفِراش ليلًا وهو في التاسعة، يعاير الأبُ الطفلَ، قائلًا له: واللهِ العظيم ثلاثة.. في كل مرّةٍ تبلّل فيها فراشك ليلًا سوف أفضحك أمام العائلة كي تتوقف عن هذه العادة، يجهش الطفل بالبكاء، ثم يشرع في الركضِ عبْر شوارعَ طينيةٍ ضيّقة حتى يصل إلى «برج حمَامٍ»، يصعد البرجَ ويأخذ يمامةً بيضاء، يضمّها إلى صدرِه ويقبّلها، لكن اليمامة تتبرز على جلبابه، يشرد الطفل للحظة، ويمسِك باليمامة بقسوةٍ ويركض في الغيطان، باحثًا عن شيءٍ ما، فيصادف أمامَه دراجةً هوائية قديمة مربوطة إلى عمود طلمبة حبشية بسلكٍ معدني ثخين، يجاهِد الطفل لفكّ السلك، وينظر نظرةً واحدة أخيرة إلى اليمامة؛ نظرة مفعَمة بالحزن والندم والانتقام، يلفُّ السلكَ بقوّةٍ حول عنق اليمامة، مرةً ومرتيّن وثلاثًا.. وعشرًا.. كان السلك المعدني طويلًا يسمح بعددٍ لا نهائي مِن المرّات، كان الطفل يلفُّ السلكَ المعدني مرّة تلو الأخرى وهو يبكي بحرقةٍ، حتى كاد رأس اليمامة ينفصل عن جسدها، ثمّ وضعها في صندوقٍ أبنوس.

- ثمَّ؟

- لا شيء.. يختفي كلّ شيءٍ فجأة.. كما ظهر فجأة.

- هل تعني أنّ الـ..

قاطَعَني وجـيـه بحدّة قائلًا:

- الرؤى لا تُفسَّر.. فليفهمها كلّ مِنا كيفما يشاء.

- تمـام.. ألـمْ تَعُـد تـراوِدك كوابيـس أخيـك والسرقـة والحـادث وكل هـذا الـذي كنـت تشـتكي مِنـه؟

- تحوّلـت الكوابيـس والأحـلام إلى رؤى.. أبـصرتُ بهـا نفـسي وأبـصرتُ الحقيقة.

- أيّ حقيقة؟

تَظاهَـر بـشرب بقايـا الليمـون مِـن الكـوبِ الـذي كان موضوعًـا أمامَـه، خمّنـتُ أنّـه يفكـر في حيلـةٍ للهـربِ مِـن الموضـوع.

- أخبرتـك أنـني «شِـبه خريـج» قِسـم لغـة عربيـة بكليّـة الآداب يـا صاحـبي.. أثنـاءَ صُنـعِ السـتارتيْن قفـزتْ إلى ذهـني سـطور كنـت قـد قرأتهـا في كتـابٍ حـول الأسـاطير الجاهليـة، كان مقـرّرًا علينـا في السـنة الثانيـة بقِسـم اللغـة العربيـة، وتذكّـرت كلام د. طـارق عبدالمـولى الـذي كان يـدرّس لنـا مـادة «تاريـخ العـرب قبل الإسـلام»، وهـي المادة نفسـها الـتي كان يرسـب فيهـا وجـدي المليجـي، صديـق المرحـوم عمّـار، وكانـت سـببَ فصـلي مِـن الكليـة، لـم أنـسَ يومًـا مـا قرأتـه حـول فكـرة «الخـرز» في الثقافـة الجاهليـة.

- أنهكْتَني يا وجـيـه بحكاياتك.. وماذا قال؟

- مضمـون الكتـاب أن حبّـاتِ الخـرز كانـت مثـل «أبـواب الـرؤى والرمـوز» في نظـر أهـل الجاهليـة، كانـت أبوابًـا لاختـراق المـاضي أو

المستقبل.. فمثلًا إذا لاحظت المرأةُ فتورًا مِن زوجها، تَعمَد إلى نوعٍ عجيب من الخرزات اسمه «الهنمة"، التي تحوّل حالَ الزوجة، فتصير بالليل زوجة ناعمة وبالنهار أُمًّا، وخرزة «العقرة»، وكانت تضعها النساء في الجاهلية على خصرها لمنعِ الإنجاب، وخرزة «الخصمة» وهي خرزة للدخول على الملوك دون خوفٍ، فيضعها الداخل تحت فصَّ خاتمِه، وخرزة «الكحلة» وهي خرزة سوداء للصبيان لتدفعَ عنهم الحسد.. والأهم هذه الخرزة.

عَرَّى وجيه رقبتَه، بإنزال ياقة «البلوفر» الذي كان يرتديه، وأبرزَ قِلادةً فضية تتوسطها خرزةٌ غريبةٌ ذات وجهيْن.

- وجدتُ هذه الخرزة الغريبة في الصندوق، وحين نزلتُ الحُسَين ذات مرّة، أخذت أسأل أصحاب محلّات الحليّ الفضية والقلائد عنها، عرَفتُ مِن تاجر فضيّات كهلٍ في شارع المعزّ، أن هذه الخرزة اسمها «خرزة الوجيهة»، وهي خرزة ذات وجهيْن، يتراءى فيها وجه الإنسان كالمرآة.. انظرْ.. الخرزة لها لونان.. لونٌ مثل لون العسل الأبيض الرائق، والآخر مثل لون العقيق.

- هل تصدّق هذه الخرافات؟

- لم أصدّقها، بل آمَنتُ بها.

- تمام.. فقرّرتَ صُنْع كوكتيل خرز ينفع لجميع الأغراض.

- آه واللهِ.. وغلاوتك.. نفع يا يونس، كنت أنظر إليها كلّ ليلة قبل نومي فأرى فيها ما لم أستطع يومًا مواجهة نفسي به.. صديقي.. لقد أخبرتك بالأهمّ.. سوف أعود إلى قريتي لأعيش هناك، وربما أتزوّج وأنجِب، قد نلتقي، وقد لا تراني ثانية، لكني أريد أن أهديك صندوق الخرز، احتفظتُ به هنا في المكتب، ووضعتُ عليه حارسًا

أمينًا.

- حارسًا؟ تقصد «باستي»؟

تسرّبَ إلى نفسي شعورٌ حقيقي بالخوف مِن التفكير في موضوع «تسخير» وجيه قِطًا أسودَ لحماية صندوقه، لكنني فكّرت أن الرحيلَ قبل معرفة نهاية الحكاية لعبُ صبيان.

- ولكن لماذا كنتَ تحتفِظ بصندوق الخرز في الجريدة، وليس في منزلك طالما أنه غالٍ كما قلتَ؟

- بَرَكة.. لآخذَ مِن الخرزِ بَرَكةً أهَبُها للرجُل الذي آواني، وأولاني ثقتَه بعد أن غُلِّقت أبواب الرزق أمامي، واسوَدَّت الدنيا في وجهي، كانت حياتي كلها محصورة في الجريدة، وكان البيت للنوم فقط، وعندما أنهيتُ صنْعَ ستارتَيّ الخرز، رجعت إلى كتاب د. طارق عبدالمولى، فاكتشفتُ أن أساطير الجاهلية لم تكن أساطير، بقدْرِ ما كانت رؤى وحقائقَ استقَرت في وعينا، ثمّ انتقلَتْ إلينا، فآمَنتُ بقدرة حبّات الخرزِ السحرية على أن تُرِيَني ما لم أره، «ما رأته القلوبُ يُنسَب إلى اليقين» يا يونس.. لِمَ لا تجرّب؟

- أجرّب ماذا؟ صنْعَ ستارةِ خرز!!

- مثلًا.. لتجرِّب.. لتلعب.. فالحياة محجوبة عن عيوننا.. ربما ثمّة حيوات أخرى وراء الستار.

- ولماذا لم تجرّب أنتَ؟

- جرّبتُ.. وشبِعتُ.. اسمعْ يا يونس.. سأقول لكَ كلمةً أخيرة.. قد تعتبرها فلسفةً فارغة.. قد تنساها بمجرد خروجك مِن هنا، وقد تَعلَق بذاكرتك:

«إن أفضل جزءٍ مِن ذاكرتنا، وفي حياتنا، ليس في أعماقِنا، بل

خارجنا، في الأشياء الجميلة التي نعثر عليها بمحض صدفة، أو تُوهَبُ إلينا دون انتظار مقابل.. بعد أن وصلتُ إلى منتصف العمر، صِرتُ على يقين أنّ كل إنسان منا محتاج، في وقتٍ ما من حياته، إلى ذكرى يأوي إليها، قد تكون هذه الذكرى كتابًا، أو لوحةً أو أغنيةً أو فيلمًا أو حتى شارعًا في حيّ قديم، المهم ألا تغيب عن ذكرياتكَ طويلًا، الذكريات صبورة، وغالبًا ستكون في انتظارك».

- أو في صورة حبّات خرز؟

- تمام.. أو في صورة حبّات خرز.

للمرة المليون، أشعرُ بميلٍ قوي إلى تصديق كلام وجيه أبو لوزة رغم عبثيتِه، ورغم تعارضه مع أبسط قواعد العقل والمنطق، ولكن أي منطق يحكم حياتَنا حتى أحكم أنا على غيري بعدمِ المنطق؟ ثمّ إن وجيه ليس شخصًا جاهلًا أو أميًا، فثقافته أفضلُ مِن نصف محرّري الجريدة «البصمجية» عندنا. وللمرة الواحدة بعد المليون، يتحرك شيءٌ غريب داخل عقلي يدفعني لأخذِ كلامه محمَل الجدّ. فردتُ ظهري إلى الخلف متظاهِرًا بألمٍ في عضلات عنُقي، فيما كان وجيه قد أرجَع ظهره إلى ظهرِ المقعد الجلدي حتى فَرَده تمامًا. زفرَ زفرةً هائلة وأخيرة، مؤذِنًا بانتهاء كلّ شيء.

أغلقَ وجيه عينيه وقد ارتسمتْ على شفتيه ابتسامةً غامضة، ذكّرتني بابتسامة «روبرت دي نيرو» في آخر مشهدٍ مِن مشاهد فيلم Once upon time in Amercia.. صحيح ما الذي كانت تعنيه تلك الابتسامة الماكِرة في الفيلم؟

لم أصدِّق أنني أمضيت يومَيْن كاملَيْن مستيقظًا، أنصِت فيهما إلى حكايته؛ كنت متشوقًا إلى سماع المزيد رغم الإرهاق الشديد

الـذي أصابـني. ولـم يكـن وجيـه بالطبـع أفضـلَ حـالًا؛ إذْ لمحـتُ انتفـاخ جفنيـه وتهـدّلَ شـفتيه مِـن مواصلـة الحـكي، واجـترار الذكريـات طـوال يـومٍ كامـل، لـم تَشـفع أكـواب المـاء الـتي كان يجلبهـا لنفسـه كل نصـف سـاعة، ولا فناجـين القهـوة، ولا علـبُ السـجائر الـتي استُهلِكَتْ خـلال العشريـن سـاعة الفائتـة.

كان وجـيـه راقـدًا فـوق المقعـد الجلـدي مثل سـيدةٍ وضعـتْ لتوّها، وجهـه كان شـاحبًا ربمـا بسـبب بقائـه مسـتيقظًا لسـاعات طويلـة (ومـاذا عـني؟). أشـفقتُ عليـه، تطلّـعَ إليّ بنظـرةِ أخٍ أكـبر، وقـال وكأنمـا كان يريـد غلْـقَ دائـرة الحكايـة وسَـدَّ المنافـذِ كلهـا:

- لقـد جرّبـتُ الكتابـة.. كتبـت شِـعرًا وأزجـالًا وكنـتُ أبيعهـا في الكليّة.. طالمـا أحببتُ وهجّ الظـلّ.

- وهـذا مـا لا أفهمـه تحديـدًا يـا وجـيـه.. لمـاذا؟ كان في وِسـعك أن تكـون شـاعرًا.. وأن يكـون لـكّ شـأن.. أخبرتَـني أنّـك كنـتَ تعـرِف «أحمـد منيـب» شـخصيًا، وأنّـك عرضـتَ عليـه أشـعارَك وأزجالَـك.

- اعتـبرتُ حيـاتي صدَقـةً جاريـة عـلى روح أخـي، الـذي كنـت السـببَ في وفاتـه، وربمـا سـببًا في دخولـه النـار، رغـم أنـني مَـن اسـتحَق المـوتَ.. فعـلَ مـا فعـل كي يرضيـني وينفـذ وصيـةَ أمّنـا.. كان يـسرق معـي، لأن السرقـة كانـت تسـعدني، كنـتُ أنانيًـا، أهتـمّ بمـا يسـعدني، لا بمـا يسـعدنا.. وكان عمّـار يرضيـني لأنـه كان يحِبـني.. وهـذا دوري كي أقـدّمَ شـيئًا، هـل تظنـني لـم أكـن قـادرًا عـلى تجاهـل «وجـدي المليجـي» يـوم الامتحـان، واجتيـاز سـنوات الكليـة الأربعـة بتفـوّق؟ بـل والتعيـين معيـدًا بقِسـم اللغـة العربيـة؟ هـل تظنـني لـم أكـن قـادِرًا عـلى عـرض الأغـاني والأشـعار الـتي كنـتُ أكتبهـا عـلى «محمـد منـير» مثـلًا أو «خالـد الأمـير»؟ يـا صاحـبي.. لقـد كنـت أسـهر أسـبوعيًا

مـع المرحـوم الأسـتاذ أحمـد منيـب في شـقته الصغـيرة في السـيدة زينـب، كانـت الشـقّة تقـع في شـارع متفـرع مِـن شـارع بورسـعيد، اسـمُه شـارع عطفـة المـصري، نوافذهـا تُطِـل عـلى مئذنـة مسـجد السـيدة زينـب مبـاشرةً، ومِـن تلـك الشرفـة البسـيطة كان يبـدِع، ويُخـرِج أغانيه، كنـت أزوره كل خميـس بعـد انتهـاء عمـلي بالجريـدة، ورأيـت في بيتـه: أحمـد فـؤاد نجـم، ومصطفـى تـركي، وعـادل عمـرو، وعبدالرحمـن أبـو سـنة، كانـوا يجلسـون في الشرفـة حـتى السـاعات الأولى مِـن الفَجـر.. الله يرحمـه كان فنانًـا حقيقيًـا، طالمـا أحببـتُ مراقبتَـه وهـو غـارقٌ في العـرَق ودخـان السـجائر، يدنـدِن ويلحّـن، وحـين ينتهـي كان يزفـر زفـرةً هائلـة، مُلقيًـا بآخـر عُقـبِ سـيجارة مِـن الشرفـة وهـو يمسـح العـرقَ السـائح عـلى رأسـه الأسـمر، قائـلًا: «أنـا خلّصـت يـا واد يـا أبـو لـوزة.. قـول الـلي عنـدك»، بالطبـع كان يمكنـني أن أكـون إنسـانًا ذا شـأن.. لكنـه اختيـاري يـا يونـس.. أن أعيـش عـلى الحافّـة، عـلى هامـش مـا أحِبّـه وأنتمـي إليـه، الوفـاء لأكـثر مِـن واحـدٍ خيانـة.. ويكفـي أن أكـون وفيّـا لذكـرى عمّـار.

- ولكـن مَـن يهـوى الكتابـةَ تسـكنه الشـياطين كمـا يقولـون، ولا تغادِره أبـدًا.. لمـاذا لـم تكتـب له شـيئًا؟

- فكـرّت أن أكـون شـاعرًا غنائيًـا، كتبـت أغـاني، وعرضتهـا عـلى المرحـوم أحمـد منيـب، وعَـدَني خـيرًا، وكان صادقًـا، لكـن القـدَر لـم يمهلـه، اختـاره الله إلى جـواره بعدَهـا ببضـع سـنوات، مـات سـنة ١٩٩٠.. ذهـب إلى السـماء كمـا ذهـب كل شيءٍ في حيـاتي، فنسـيتُ الأمـر، لـم تُعنِـني يومًـا الشـهرةُ ولا المال، أعـرف أنني رجُـل مسـكون بذنـبٍ أبـدي، كان يكفيـني إذا أردت إحسـاسَ شيءٍ أنْ أهـزَّ سـتارة الخـرز في شـقتي، لأرى وراءهـا مـا أرى.. سـأترك الكتابـةَ لـك.

- ثِقة مبالَغ فيها!

- لا.. بعد شهورٍ سأتِمُّ اثنين وأربعين عامًا، ستعرِف ما أشعرُ به حين تصِل إلى مثل سِنّي، سترفض تلقائيًا التورّطَ في صداقة باردة، أو التعلّق بأشياءَ زائفة.

- لا أفهم!

- حديثك معي يقول إنّك مشروع روائي، يمكنك استغلال الحكاية التي قصصتها عليك لتكتب رواية، ولك أن تضيف وأن تحذِف منها كيفما تشاء.

- ولكن كتابة رواية تتطلّب استغراقًا في عوالم الرواية وشخوصها، وأنا لم أرَ سواك؟

- أنا وأنتَ حكاية واحدة.. تنويعان على لحنٍ قديم.

تأكّدتُ بعد كلامي مع وجيه أنه بإمكاننا تحريك الجبال والأنهار مِن مواضعها، أمّا طبيعة البشر فمستحيل تغييرها. قد فات أوان الإقناع والحديث، وصار الكلام معه «حكي في المَحكِي».

كنت أحِسُّ بسخونةٍ غريبة تضرِب مفاصل قدمَيّ رغم جلوسي طوال فترة حديثِه، وشعرت بحرقةٍ في عينَي، وألَمٍ أعلى المعدة، ربما مِن أنهار القهوة والشاي الأسود التي شربتها على مدار العشرين ساعة الماضية. أخبَرني وجيه أنه سيوصلني إلى محطة عبدالمنعم رياض، وسيركب الأتوبيسَ معي حتى «غمرة». كنت قد بلغت مِن الإرهاق درجةً، لم أكن أطيق معها، الجلوسَ في وسيلة مواصلات عامّة.

- سأركب تاكسي حتى المنزل يا وجيه.. أريد النوم حالًا.. اركبْ معي وانزل في غمرة.

- والصندوق؟ ألَن تأخذه معك؟ لا قيمة لكل ما حكيت لك.. إنْ لم تأخذه.

***

كانت الساعة قد قاربَت السادسةَ مساءً. تذكّرتُ الوعد الذي قطعتُه لأمي بتناول الغداء معهم عقب صلاة الجمعة، وها قد فاتت صلاة الجمعة والعصر والمغرب، ونحن على أبواب صلاة العشاء. نهضتُ بسرعة واتصلت بها، اعتذرتُ للمرة الثانية وأخبرتها أنني فرغتُ للتوّ مِن عملي، وأنني سوف أصِل المنزل في غضون ساعة، وأنني سوف أجلِب معي «سندوتشات خفيفة» مِن محل التابعي، المجاور للجريدة لنتناول العشاء معًا.

في أثناءَ حديثي في التليفون، لاحظت أنَّ وجيه قد غاب بضع دقائق داخل المطبخ، وعاد حامِلًا في يده اليمنى حقيبة سفرٍ سوداء قديمة، وحوافّها شِبه ذائبة، ويعلوها غبارٌ كثيف، وفي يده اليسرى «خِرقة» صفراء، وراح ينفض بها الترابَ من فوق حافة سورِ الشرفة.

- ما هذه؟

- بالعقل يا يونس.. أكيد لن تَخرج مِن الجريدة حاملًا صندوقًا، وتركب المواصلات العامّة أو حتى تاكسي بهذا المنظر، سوف تلفِتُ الأنظار.

- ومَن أدراك أن الحقيبة سوف تتسع للصندوق؟

- ومَن قال لك العكس؟ لقد أتيتُ بالصندوقِ داخل هذه الحقيبة، وهي الحقيبة نفسها التي حملتها معي مِن ميت دمسيس

منذ خمسة وعشرين عامًا، الدنيا مثل الفرجار، مركزها واحد، تدور حول محورٍ واحد، وتنتهي مِن حيث بدأتْ.

***

كانت هذه هي المرّة الأخيرة التي أرى فيها وجيه أبو لوزة. ودّعته بمصافحةٍ خفيفة، معتقِدًا أنني سوف أراه الأسبوعَ المقبل بعد انتهاء الإجازة، وودّعني بعناقٍ أخوِي دافئ، لكنه قصير. فهِمتُ فيما بعد سبب هذا العناق السريع، كان رسالةً قصيرة لوداعٍ طويل، فقد اختفى شخص وجيه أبو لوزة بعد ذلك، وبقي ما تركه لي، وكأنَّ وجودَه المادي لم يكن إلا مجازًا إلى عالَمٍ آخر.

غادرت الشقّةَ في نحو السابعة مساءً، حامِلًا صندوقَ الخرز داخل الحقيبة السوداء. الأحد التالي كان الخامس والعشرين مِن يناير، عطلة رسمية بمناسبة عيد الشرطة، وكنت قد طلبت يومَيْن إضافيين مِن رصيد الإجازات السنوي. وفي اليوم الأول لعودتي بعد الإجازة، اكتشفتُ أنَ كلام وجيه قد تحقّقَ حرفيًا، واكتشفت شيئًا آخر أكثرَ أهميّة؛ أن وجيه لم يكذب عليّ قَط، وحتى وإنْ شابت حكايتَه الطويلة كذبةٌ ما، لا أدري ما هي، فقد كانت، على الأقل عندي، كذبةً بريئة.

فورَ وصولي إلى الجريدة صباح يوم الأربعاء، عَلِمت أن رئيس التحرير قد عقد اجتماعًا مع موظفي الجريدة بالأمس في حضور المستشار القانوني للمُشترِي الجديد، وأنه أطلَعهم على ما أخبرَني به وجيه يومَ الجمعة؛ تصفية الجريدة وبيعها. حين دخلتُ مِن باب الجريدة، كان مكتب الأستاذ عادل عجايبي أشبَه بخليّة نحل، بعد أن أوكِلَتْ إليه مهمّة إنهاء عقود العمل، وتحرير شيكات تعويض إنهاء خدمة الموظفين، والحصول على توقيعاتهم على

إقـرار اسـتلام المسـتحقات وإخـلاء الطـرف.

للمـرّة الأولى سـمعتُ صـوت ضحكاتـه العاليـة تتهـادَى مِـن مكتبـه، علِمـتُ مِـن «شـوزانا»، سـكرتير التحريـر أنـه عُـيّنَ مديـرًا للشـؤون الماليـة والإداريـة بمعرفـة المالـك الجديـد. وبينمـا كانـت يدي مشـغولة بمصافحـة الزمـلاء ووداعِهـم، أخـذتْ عينـاي تبحثـان عـن شـخصٍ واحـدٍ، لـم أجِـد لـه أثـرًا، وجـيـه أبـو لـوزة. انتظـرت نحـو سـاعتيْن، جالسًـا عـلى مكتـبي القديـم في آخـر الصالـة حـتى انـصراف الجميـع، ولـم يبـقَ سـوى الأسـتاذ عـادل في مكتبـه. أطللـتُ بـرأسي مِـن البـاب عـلى اسـتحياء، فوجدتـه غارقًـا بـين تـلال الأوراق، وصـور الشـيكات، وصـور بطاقـات الرقـم القومـي. نظـرَ إليّ بعينـيْن مواربتـيْن، وتجاهَـلَ حضـوري مُتابعًـا تقليـب الأوراق الـتي أمامَـه. سـألته عـن وجـيـه، فأخـبَرني بـبرودٍ دون أن يرفـعَ بـصره عـن الأوراق، أنّـه جـاء يـوم الاثنـين باكِـرًا، صافـحَ الجميـع، وانـصرف دون أن يـترك أي وسـيلة تواصـل.

- خسارة.. ممكن أبقى أزوره في بيته.

- لا أظـن.. أخبَرنـا أنـه سـيترك شـقّة «غمـرة» خـلال يومـيْن.. ربمـا يكـون قـد تركَهـا بالفعـل.

- وهل ترك عنوانًا.. تليفونًا؟ أي وسيلة اتصال؟

- لا.

- أسـتاذ عـادل.. اعـذرني آخِـر سـؤال.. هـل أخـذَ وجـيـه معـه القِـط الأسـود الـذي كان يُطعِمـه صبـاحَ كل يـوم؟

-قِـط أسـود؟! وهـل تعتقِـد يـا يونـس أن جريـدةً محترمـة كانـت ستسـمح بتجـوّل قِطـط الشـوارع في أروقتهـا؟ سـوق خضـار؟ لـم أرَ

يومًـا أي قِطـط في الجريـدة.

نبّهَـني الأسـتاذ عـادل إلى وجـود شـيك باسـمي، دفـعَ أمامـي مجموعـةً مِـن الأوراق وطلـب مـني التوقيـع عليهـا باسـتلام الشـيك، وقّعـتُ عليها دون قـراءة حـرف، دسسـتُ الشـيك في جيـب المعطـف، وانصرفـتُ.

***

-٣-

بقدرِ ما تكون الأشياءُ غريبةً عن بعضها البعض، بقدرِ ما يكون النورُ المنبثق مِن اتصالها سحريًا

لوتريامون

وصلتُ المنزل عند مطلع الفَجر.

فتحت البابَ بهدوء، حاملًا الصندوقَ داخل حقيبة «وجيه» السوداء، ودلفت بسرعة إلى حجرتي بالطابق الأرضي. وضعتُ الصندوق خلف الباب. صعَدت إلى الطابق الأعلى، ومررت بحجرة أمي. كانت تصلّي الفَجر فوقَ بساطٍ فيروزي مفرودٍ على الدوام أمامَ السُلَّم الرخامي. اختارَت هذه البقعةَ تحديدًا، لأن اتجاه القِبلة كان صوبَ نافذةٍ مفتوحةٍ وسطَ الجدار المؤدي إلى الطابق الأعلى. تُطِل النافذة على السماء مباشرةً، بحيث يُرى العالَم الخارجي رؤيةً واضحة. كان أبي لا يزال نائمًا. انتظرتها حتى فرَغَتْ مِن صلاتها، ولمّا سَلَّمتْ، سألَتني عن سبب التأخير هكذا للمرّة الأولى في حياتي. أخبرتها، فدَعَتْ لي.

«أمي.. سأغفو لمدة ساعة واحدة.. أيقظيني في السابعة.. سنكون في المطار في تمام التاسعة إنْ شاء الله».

تأكدتُ مِن إغلاق باب الغرفة جيّدًا. سحبتُ الصندوق ووضعته داخل خزانة دولاب الملابس العلوية، التي كانت بمثابة «سَحّارة»

لتخزيـن ملابـس الموسـم، حيـث كانـت أمـي تضـع فيهـا ملابسـنا الصيفيـةَ أو الشـتوية بحسـب الفصـل. دَفنتُـه وراء ركام الملابـس الصيفية، وأغلقـت الضلفـة الخشـبية بمفتـاحٍ نحـاسي ضخـم، وضعتـه في قـلادة المفاتيـح. ارتميـتُ عـلى السريـر بملابـسي اسـتعدادًا لتوصيـل أبي وأمـي للمطـار بعـد سـاعةٍ مِـن الآن.

لا أعلـم كـم مـضى مِـن الوقـت، لكـني اسـتيقظت عـلى صـوت أذانٍ يرتفـع مِـن أحـد المسـاجد المجـاورة. بقفـزةٍ واحـدة، وجـدت نفـسي عِنـد بـاب الغرفـة، كِـدتُ أسـقط عـلى الأرضِ مِـن الـدوار الـذي أصابـني لسرعـة مغـادرة السريـر. وجـدت عـلى عتبـة البـابِ ورقـةً بيضـاء مكتوبة بخـط أمـي:

«مَـرّ علينـا عـمَّـك إبراهيـم، وأقلَّنـا إلى المطـار. لـم نشـأ إيقاظـكَ بعـد سـهرة الأمـسِ الطويلـة في الجريـدة.. سـنتّصل بـك بمجـرد الوصـول إلى المدينـة المنـوّرة.. جهّـزتُ لـكَ طعامًـا يكفيـكَ أسـبوعيْن.. سيسـافر يحـيى مـع أصدقائـه إلى أسـوان لمـدة عـشرة أيـام.. تأكَّـدْ مِـن إغـلاق بوابـة المـنزل الحديـد الخارجيـة جيـدًا، ومِـن إقفـالِ رتـاج النوافـذ، ومِـن غلـقِ صمـام أمـان البوتاجـاز بعـد تسـخين الطعـام، ومِـن إخـراج القمامـةَ يوميًـا لعـمّ هاشـم، ومِـن إغـلاق محابـسَ المـاء، ومِـن فصـل قابـس الكهربـاء قبـل خروجِـكَ.. وإذا تأخّـرتَ في العمـل، أبلِـغْ عمَّـك إبراهيـم بمـكان وجـودك حـتى إذا حـدث مكـروه لا قـدّر الله».

مـرّت سـاعات النهـار بطيئـةً مُمِـلّة مثـل خيـط ثخـين يلِـج في إبـرة. قـرعَ جـرس سـاعة الحائـط الخشـبية العتيـق، العائـد إلى أزمنـة جَـدي، المحـارب النبيـل، مُعلنًـا الثانيـةَ عـشرةَ والنصـف ظهـرًا. أخرجـتُ دفترَي مِـن حقيبـتي الجلديـة، واضطجعـتُ عـلى السّـجادة المفروشـة عـلى

أرضِ الغرفـة، لأدوِّنَ تفاصيـل حكايـة وجيـه أبـو لـوزة، دوَّنـت الحكايـة مرّتـيْن كمـا اعتـدتُ. تاهـتْ عـن ذهـني بعـض التفاصيـل، أصابـني ملـلٌ قاتِـل بمجـرد انتهـائي مِـن تدويـن مـا رأيتـه بالأمـس. شـخصَ بـصري مِـن جديـدٍ إلى الصنـدوق، أخرجتُـه مِـن مَكمنِـه، وأفرغـتُ كل محتوياتـه عـلى بـلاط الغرفـة البـارد، فلمحـتُ وسـط كومـة حبـات الخـرز اللانهائيـة، شـيئًا ملفوفًـا داخـل «إيشـارب» صغـير. حـين حللـتُ عقـدة الإيشـارب وجـدتُ خـرزة الوجيهـة الـتي أراني وجيـه إياهـا بالأمـس.

هل تركَها وجيه لتكون ذكرى آخرِ لقاء؟

أسـدَلْتُ سـتائر النافـذة تمامًـا، وأغلقـت بـاب الغرفـة. رحـتُ بأطـراف أصابعـي أقّلّـب الخـرزةَ العجيبـة ذات الوجهـيْن الـتي يـتراءى فيهـا وجـه الإنسـان كالمِـرآة. وكأنـني كنـت أشـاهد فيلمًـا سـينمائيًا، نظـرتُ إلى الوجـه الأول، رأيـت فيـه ظـلالًا وحقـولًا وظلامًـا ويمامًـا، وحـين نظـرت إلى الوجـه الآخـر، الوجِـه ذي لـون العقيـق الأحمـر، رأيـتُ فيـه سُـلّـمًا رُخاميًـا ينهـار، فتنهـار الدنيـا معـه. طويـت الخـرزةَ وأخفيتهـا ثانيـةً داخـل الإيشـارب، وأعدتهـا إلى قـاع الصنـدوق.

***

كلمـا أعـدتُ التفكـيرَ في حكايـة وجيـه أبـو لـوزة، كانـت تتأكـد لـديّ حقيقـةٌ واحـدة؛أن في حيـاة كلِّ واحـدٍ مِنـا حادثتـين: تأتيـك الأولى حـتى بـاب غرفتـك، وتتعـثّر في الثانيـة بمحـضِ الصدفـة. إلا أن الحادثتـيْن كلتيهمـا تؤديـان إلى الهـدف نفسِـه؛ تـغيير مسـار حياتنـا، أو عـلى الأقـل تغيـير وجهـة نظرنـا في الحيـاة.

ثمّـة قاسِـم مشـترك آخـر، وهـو أنَّ كل حادثـة منهمـا لهـا جناحـان:

الصدفة والقدَر. وكلاهما، أيضًا، يَحدث بتأكيدٍ وثبات. وكان ذلك ينطبق حرفيًا على لقائي بوجيه أبو لوزة، وقَصِّه حكايتِه على مسامعي، وإعطائي صندوقَ الخرز لسببٍ مجهول.

غاب أبوَاي أسبوعيْن في رحلة العُمرة.

كان البقاء وحيدًا سببًا أدعى لنموّ صداقةٍ بيني وبين صندوق الخرز. في الأيام الأولى كانت العلاقة بيننا أشبهَ بالعلاقة بين تلميذيْن غريبيْن يجلسان في فصل دراسي على مقعدٍ مشترك للمرّة الأولى. كلاهما يتوجّس خيفةً مِن صاحبه، كلاهما ينظر إلى الآخَر بطرف عينيه، مُراقبًا إياه مِن بعيد، مُخمِّنًا دماغ صاحبه، ومُمنِيًا نفسَه أنْ يكون صديقًا وفيًا مُخلصًا. انقضى اليوم الثاني بطيئًا، مثل أخيه. وفي ظهيرة اليوم الثالث لم أشعر بأصابع يدي إلا وهي تمتد، مدفوعةً بلهفةٍ مكتومة، إلى صندوق الخرز، وذهني يستحضِر كلامَ «وجيه».

ولِمَ لا أجرِّب؟ انتظرتُ حلول المساء.

حملتُ صندوق الخرز وصعدت إلى الطابق الأعلى، حيث الشُرفة، ثمّ هبطت لآخذَ الشمعدان النحاسي الموجودَ فوق «خزانة الأحذية» أمامَ باب المنزل. قعدتُ فوق بلاط الشُرفة البارد، مستضيئًا بنور شمعتها الموقدة. على ضوء الشمعة الواهن انهمكتُ في صناعة الستارة، مُقتديًا بشيخ الطريقة مولانا وجيه أبو لوزة (قدَّس الله سرّه)، فكنتُ أمدُّ يدي إلى الصندوق لأسحب أول خرزة تمسِكها، وأولِجها داخل الخيط، دون ترتيب ولا تنسيق، شعرتُ للحظةٍ وأنا أعمل أن الستارة ستكون مثل مسوَّدة روايتي، شذراتٍ غيرَ مشذّبة ولا مرتَّبة، شيءٌ مهلهَلٌ مُحتاج إلى تنقيحٍ وتشذيب. في هذه الليلة بقيتُ جالسًا على الأرضِ ثلاثَ ساعاتٍ متواصلة. كنت

أوقِـد شـمعةً وراء أخـرى، مسـتضيئًا بنورهـا، وبدفئهـا أيضًـا. نظـرت إلى خيـوط البلاسـتيك، بـدَتْ طويلـةً بـلا انتهـاء، كأنهـا تسـتعدُّ لصنـعِ سـتائر خـرزٍ، تحيـط العالـمَ كلَّـه مثـل جبـلِ قـاف.

فـورَ انتهـائي، لملمـتُ بقايـا الخـرز وأعدتهـا إلى الصنـدوق. تعجبّـتُ أنّهـا لـم تنقـص خـرزة واحـدة. كان العـدد كمـا هـو، حـتى بعـد أن صنعـتُ هـذه السـتارة. وأثنـاء إعـادة حبّـات الخـرز إلى الصنـدوق، لمحـتُ مجموعـة مِـن حبّـات الخـرز، زرقـاء اللـون، كانـت زرقتُهـا تجمـع بـين الأخـضر والأزرق.

لـم تـبرح ذهـني تفاصيـلُ حكايـة وجيـه. تـردّدتُ، صعـودًا وهبوطًـا ثـلاثَ مـرّات، بـين الطابـق الأرضي والشُرفة عدّة مرات، مسـتلِهمًا ركضَـه بـين المولِـد والشـجرة العجـوز. مـرةً حامِـلًا الصنـدوق لأعيـده لمخبئـه، ومـرةً ثانيـةً الشـمعدان النحـاسي لأعيـده إلى سـطح خزانـة الأحذيـة، ومـرةً ثالثـة لتركيـب سـتارةَ الخـرز. أثـارَت هـذه الرحـلات المكوكيـة بـين الطابقـيْن الأول والأرضي دفئًـا عجيبًـا داخـلي، أزال عـني الـبرودةَ الـتي سَـكَنَتْ جسـدي بعـد جلـوسي عـلى بـلاط الشُرفـة البـارد طـوال ثـلاث سـاعات. بقيـتْ أمامـي مشـكلة خلـع بـاب الغرفـة الخشـبي، لتعليـق السـتارة مكانَـه.

لم يذكرْ «وجـيه» كيف فعلَها؟

فتحـتُ بـاب شُرفـة الصالـة، ونـاديـت عـم «هاشـم»، بـوابَ العقـار المُجـاور، كان جالسًـا عـلى دكّـة خشـبية، يسـتمع إلى قـرآن السـهرة. نقّدتـه خمسـين جنيهًـا، وطلبـت مِنـه مسـاعدتي في خلـعِ الباب الخشـبي. لـم يسـتغرق الأمـر سـوى نصـف سـاعة، وكأنَّ البـاب كان ينتظـر مبـادرة مـني لمغـادرة مكانـه. أخـذتُ الكـرسي الخشـب الـذي كان يجلـس عليـه أبي لارتـداء حذائـه مِـن أمـام خزانـة الأحذيـة، وصعـدت فوقَـه

لتعليق السِتارة. علّقتُ الستارة مكانَ الباب، مُستعمِلًا مسامير صغيرة وجدتها في الدرج الأخير للمطبخ. أرجعتُ البصرَ بعد أن تأخرتُ بضعَ خطواتٍ؛ كانت الستارة عبارة عن سِتّة عناقيدَ رفيعةٍ مُتجاورة مِن حبّات الخرزِ؛ حجم الحَبّة الواحدة مثل حبّة المطر، يفصل بينها مسافة لا تزيد على عقلة الإصبع. مررتُ عليها بأناملي مثل مَن يعزف على قيثارة، فأصدرَتْ صوتًا غريبًا حين اصطكَتْ ببعضها. حين دنوت ببصري قليلًا، أحسست أنّها لم تكن ستارةً؛ اكتشفتُ أنني صنعت بابًا آخر، كانت الستارة مُقسَّمةً إلى سِتَّة مربعات متساوية، وكأنّها نجَت مِن مقصلة العشوائية، وأسلَمَتْ نفسها إلى يد فنانٍ مُحترف. صعَدتُ للطابق الأعلى مرةً رابعة لأجلب «مِتر القياس» الذي نسيته أثناءَ عملي.

كان طول الستارة نحو ٢٧٥ سم، وعرْضها نحو ٤٥ سم. سمعتُ صوت نقرات مطرٍ خفيفة على زجاج نافذة الشُرفة. هبَّت ريحٌ شتوية باردة مُفعمةٌ برائحة العُشبِ الممزوج بعبقِ مطرِ يناير، فأزاحَتْ معها خيوطَ الستارة الملّونة. تركتُ الريحَ تلفح وجهي، وتبثُّ قشعريرةً غريبة في جسدي كلّه. وسرَى داخلي خدرٌ غريب. بحثتُ عن مصدر الهواء، فاكتشفتُ أنني قد نسيت باب شُرفة الصالة مفتوحًا على مصراعيه، حين ناديت عمّ هاشم. عُدت إلى غرفتي، وألقيتُ بنفسي فوق السرير. قضيتُ الدقائق اللاحقة في حالة نشوةٍ صوفيّة عجيبة. شعرتُ أنني أنجزتُ عملًا فائقًا.

أثناءَ تأمّل ستارة الخرز، وأنا مستلّقٍ فوق السرير، تنبهّتُ فجأةً وكأنني كنت أتجاهل الموضوع قبل ذلك، أن عليّ التفكيرَ في حيلةٍ لإقناعِ أمي بالموافقة على بقاء غُرفتي دون باب. فأميّ ابنة جنرال سابقٍ بالجيش، ذي تقاليدَ عسكريةٍ صارمة، وخاصةً فيما يتصِلّ

بنظام المنزل. فتحتُ الصندوق، وعَددْتُ ثلاثًا وثلاثين حبّة خرزٍ ملونة، كلها باللون الأزرق. أخرجتُ «خرزة الوجيهة» مِن قاعِ الصندوق، لتكون واسطةَ العقد.

أحضرتُ الخيط، وأخذت أمرَّرُه داخل كلِّ حبّة، وبعد الانتهاء مِن إدخال الحبّات، ربطتُ الخيط مِن الطرفيْن بعد أن أولجت خرزة الوجيهة، وعقدتُ قبلَها وبعدَها، الخيطَ عقدتيْن. لتكون واسطة العقد. أمسكتُ «سبحة» مِن المنتصف، رفعتها إلى الأعلى، وأخذتُ ألفّها عكس عقارب الساعة. ابتسمتُ وأنا أنظر إلى خرزة الوجيهة وهي تدور أمامَ ناظريّ، وتقلّب وجهيها.

لم تكد تمرّ دقائق، حتى غرقتُ في النومِ. حَلُمْت حُلْمًا غريبًا وقصيرًا، حُلْمًا خاليًا مِن التفاصيل، وكأن الحُلْم ينبغي له أنْ يَظَل مُختزلًا لأبعدِ الحدود كي يحتفظ بسرِّه. ولأول مرةٍ في حياتي أسمع صوتًا داخل حُلْمٍ (هل سمِع أحدٌ صوتًا داخل حُلْم؟). رأيت وجيه جاثيًا فوق ركبتيه على سُلَّمٍ ذي درجات متعدّدة، يبدأ عند ضفة نهر، وتمتد درجاته إلى قلب النهر، كان نصف جسدِه الأسفل مغمورًا داخل الماء، بينما جلس رَجلٌ شديد الشبَه بوجيه على الضفّة، مُدليًّا قدميه إلى الماء، مُسلِّمًا إياهما إلى وجيه ليغسلهما بماء نهر النيل.

- عمّار.. هل سامحتَني؟ وأنتِ يا أميّ.. هل يقبل الله توبتي؟

***

ولم تخيّب الخرزة أملي.

انتظرتُ والديَّ في المطار. وحين خرجا مِن بوابة الوصول، ضممتهما بقوّة، وأعطيت أميَّ «السبحة». فرِحَتْ بها فرحة غامرة، رغم أنها كانت قد جلبَتْ معها حقيبة كاملة مِن «السِبح»، هدايا للأقارب والجيران.

كان لعقدِ الخرز، أو السبحة التي صنعتها، تأثيرٌ أشبهَ بالسحر. حين دخلَتْ أميّ المنزل، لم تعترضْ على إزالة البابِ الخشبي، وكأن شيئًا لم يكن، أو كأن الباب كان قائمًا بالفعل ولم أستبدله بستارة الخرز.

***

بعد بيع جريدة الأستاذ فوزي دُنيا، قضيت ثلاثة أشهرٍ في المنزل، متعطّلًا دون عمل. كنت أقضي وقتي في التخطيط لروايتي الأولى، وفي القراءة، وسماع الموسيقى، ومراسلة الجرائد العربية ووكالات الأنباء، بحثًا عن فرصة عملٍ. راسلتُ وكالات أنباء وصحفٍ عربية وأجنبية، للعمل محررًا صحفيًا أو مترجمًا. وفي أواخر شهر مارس، جاءني اتّصال مِن إحدى وكالات الأنباء العربية العامِلة في القاهرة، تدعوني لإجراء مقابلةٍ شخصيّة مع مدير الوكالة. أثناء المقابلة أخبرني مدير الوكالة وكان في منتصف الأربعينيات، أنَّهم في الوكالة يطبّقون نظام Career Path محترِف، يُمكنني مِن الانتقال إلى قسم التحرير الصحفي في غضون عامَيْن، بعد أن أكون قد اكتسَبت الخبرةَ اللازمة. لكن فرحتي بالوظيفة الجديدة كانت منقوصة.

تَزامَن التحاقي بعملٍ جديد مع تزايد حِدَّة المشاجرات بين أمي ويحيى. كان يحيى قد أخفقَ في الحصول على أيّ فرصة عملٍ جيدة في مصر، وفشلَ في تكوين فِرقته الموسيقية Underground الناشئة بسبب خلافاتٍ مادية وتنظيمية مع سائر أعضاء الفِرقة، فاستولى عليه اليأس، ولزِمَ غرفتَه المغلقة ملازمةً تامّة. واستمر الأمر شهورًا، جذَبَتْ في ذيلها سنوات، حتى صارت حجرته مركزَ عالمِه.

لم يكن يحيى يغادر سريره إلا للضرورة القصوى. لا يَفتح نوافذ الغرفة إلا نادرًا، ولم يكن أحد يعلَم ماذا كان يفعل طوال هذه الشهور والسنوات، كان قاعدًا في ظلام غرفته مُحدّقًا إلى شاشة اللاب توب، ساهرًا حتى بزوغ الفَجر، ثمّ نائمًا حتى مغيب الشمس. دخان السجائر يعبق الطابق الثاني كله، ويسوّد جدرانَ الغرفة، وربما حوائط روحِه أيضًا. وباءت كل محاولات الحديث إليه بالفشل. حاول أبي مرارًا إقناعَه بالخروج مِن مقبرته، حتى ولو لتناول طعام الغداء، أو لرؤية أصحابِه القدامى، أو حتى الخروج للتمشية ولو نصف ساعةٍ أسبوعيًا. كانت أمي تحترقُ يوميًا مع كل دخان سيجارة يتصاعد مِن فتحة قفل باب الغرفة الموصَد على الدوام، تحترق على رؤية ابنِها الذي كان يذوي شبابه كل يومٍ، شيئًا فشيئًا مثل شمعة تأكل نفسها، ولا تنير إلا قبرًا معتمًا. بينما لزِمَ أبي مقعدَه في الشرفة، مُراقبًا «شجِرة الصدأ» وهي تتمدّد كل يوم، وتغزو فروعُها الرمادية شرفةَ المنزل، وهو مستسلِمٌ لِما تفعل به، أو لِما فَعلَته به.

طوّقَني يأسٌ تام مِن محاولة إصلاحِ أي شيء، كنتُ أسمع شجار يحيى وأمي يوميًا فور وصولي المنزل؛ صياحٌ متواصل لا ينقطع،

يعقبه تطاولٌ وسباب مِن جانب يحيى، ثمَّ صفقٌ لبابِ حجرته في وجهها. حاولتُ التدخّل مرارًا، لكن أميّ كانت تمنعني على الدوام، لم تكن تريد توسيع الهوّة التي انفرجتْ بيننا. خارجَ المنزل، كنت مشغولًا بالعمل في وكالة الأنباء، ثمّ بورَش الكتابة الإبداعية التي كان ينظّمها المركز الثقافي الهولندي، وبالطبع بسارة التي تعرفتُ عليها أثناءَ الورشة.

أمّا داخل غرفتي، فبقيتْ ثلاثة أشياءَ ترافقني؛ بكاء أمي المتواصل الذي لم يتوقّف عن الضغط على أذني إلى الآن، وصمتُ أبي وتحديقه المستمرِّ بحسرةٍ إلى شجرة الصدأ التي نَمَتْ فروعها الرمادية وتشعّبَتْ داخل شُرفة منزلنا، ولم يشأ هو تشذيبَها لأسبابٍ يعرفها وحدَه.

***

كانت أقسى ساعات اليومِ هي ساعة مغادرتي العمل عائدًا إلى المنزل.

تحوَّل الطابق الأول إلى صراخٍ وشجار متواصليْن، ولكنه مِن طرفٍ واحد، الطرف الأقوى: يحيى. فكنت أسيرُ في شوارع وسط البلد بعد انتهاء ورشة الكتابة، مُتسكّعًا بين الشوارع والمكتبات، بلا وجهة ولا هدف، مُراقبًا الناس والمقاهي. وفيما سوى ذلك مِن الأيام، كنت أكتفي بالتنزّه حول منزلنا في مصر الجديدة في باقي أيام الأسبوع. ذات يومٍ، وبعد انتهاء عملي في الوكالة. قرّرت التنزّهَ قليلًا حول المنزل. بقيتُ أسيرُ وذهني مشغول بأشياءَ كثيرة، فقادتني

قدماي إلى شارع ضيّق، شارع كليوباترا الذي يقع فيه المستشفى الشهير. بصعوبةٍ حاولتُ المروق بين السيارات المتزاحمة للفوزِ بأي رقعةٍ فارغة لرَكن السّيارة. سمعت صوتًا ينادي: يونس.. يا يونس.

التفتُّ شمالًا، فرأيتُ رَجلًا سمينًا ينزل مِن سيارة بيجو سماوي، تساعده على النزول فتاةٌ فارعة الطول، ترتدي ملابسَ فاضحة؛ نهدانِ ضخمان رَجراجان يُطِلّان إطلالةً حُرَّة مِن تقويرة «توب» أصفر فاقع اللون موشًّى بالخرز الرخيص، يلتصق بجسدها، وذراعاها العاريتان موشومتان بـ «تاتّو» على شكل أفعى تُخرِج لسانًا يفحّ نارًا، فوق بنطلون «ليجينز» أسود ضيّق، كانت تلوك شيئًا في فمِها وهي تنظر نحوي.

- أستاذ عادل عجايبي.. فرصة سعيدة جدًا.. حضرتك ساكِن هنا؟

- أسكن قريبًا.. كيف الأحوال؟ أين تعمل الآن؟ صحيح نسيتُ أعرَّفك.. سالي.. زوجتي.

- آه.. أهلا يا فندم.. واللهِ بقيتُ ثلاثة أشهرٍ في المنزل.. حتى جاء كرمُ ربنا، والتحقت مترجمًا بوكالة أنباء عربية.. وحضرتك؟

- كله مكتوب.. المالك الجديد لعب بِنا جميعًا.. فسخَ عقدي القديم، لأوقِّعَ على عقد عملٍ جديد براتب خيالي، أربعة أضعاف راتبي القديم.. خدَّرَني بكومة أكاذيبَ حول تعييني CFO للشبكة الإعلامية التي ينوي تأسيسَها لتكون بوقَ الحزب الوطني الديمقراطي، حتى جَمع أحشاء الجريدة في قبضته، ثمَّ فسخَ العقد قبل فترة الاختبار كي لا يدفع تعويض إنهاء الخدمة.. ابن حرام مصفّي.. كنتُ مجرّدَ طُعم.. على العموم.. بالتوفيق يا يونس.. أنت مجتهد.. وسيكون لك مستقبل جيّد في دنيا الصحافة.

همستُ في نفسي: «وجيه كان دائمًا على حقّ.. الله يمسّيك بالخير يا أبو وجيه».

ودَّعتُ الأستاذ عادل عجايبي بابتسامة بسيطة. تَقَدَّمَني، متوكئًا على ذراع زوجته العاري، قاصدًا بوابة الدخول إلى مستشفى كليوباترا. لم أتمالك نفسي وأنا أراقب اهتزاز ردفَي زوجته، التي غيَّر مِلَّتَه مِن أجلها، وتنبّهتُ إلى أن الواقفين في الشارع ينظرون، مثلي، إلى الموضعِ نفسِه.

***

تركتُ عادل عجايبي وذهني مشغول بنبوءة وجيه عنه وعن مصيره.

«سِرّ أبو لوزة باتع.. تتحقّق رؤاه كل يوم.. وبعدين؟».

واصلت السيرَ في شوارع مصر الجديدة الجانبية الهادئة، حتى وجدت نفسي عند تقاطع شارعَي الإسكندرية ودمنهور. كنت على مسافة أمتار قليلة مِن المنزل. تنبهّتُ إلى أن أعمدة الإنارة في الشارع انطفأت. الكهرباء مقطوعةٌ كالعادة في منتصف أغسطس. كان الجوّ خانقًا، ومشبعًا برطوبةٍ عالية، فلاحظتُ خروج معظم سكّان العمارات، والفيلات صغيرة الحجم إلى شرفاتهم، طلبًا لنسمة هواءٍ باردة.

على ناصية الشارع يقع «كشك مرطبّات عبد ربّه»، الذي كان أبي يصحبنا لشراء «المشروبات الغازية» مِنه، توقّفتُ لشراء علبة مياه غازية. لمحت «فَرشة كُتُب» على الرصيف المقابل، فعبرتُ الشارع. كان البائع قد شرع لتوّه في رصّ مجلدات وقواميس أجنبية

عـلى مشـمع جلـديّ فـوق الرصيـف، مُسـتنيرًا بضـوء مصبـاح غـازيّ. جلسـتُ القرفصـاء، أقلّـبُ القواميـس والكتـب المفروشـة عـلى الأرضِ، فسـمعتُ مـواء قطّـط، ينبعـثُ مِـن مـكان قريـب. عـلى بعـدِ خطـواتٍ مِـن «فَرشـة الكتـب»، لمحـتُ عجـوزًا، ذات شَـعرٍ أبيـضَ كالثلـجِ معقـوصٍ إلى الخلـف، تـشي ملامحهـا بأصـلٍ وفصـلٍ فخيـم، وجمـالٍ غابـر قديـمٍ عـلى حـدّ تعبـير وجيـه.

كانـت واقفـةً أمـام بوابـة فيـلا صغـيرة، ترتـدي فسـتانًا ورديًـا قصـيرًا بـلا أكمـامٍ يكشِـف عـن ذراعـيْن نحيلتـين بيضاويْـن، ونهديْـن ضامريْـن، تتكشِـف لبتّهمـا مِـن صـدرِ الفسـتان، وفي يدهـا اليُـسرى سـيجارة طويلـة، تدخِّنهـا بعصبيـة. كانـت تُطعِـم مجموعـة مِـن القطـط. العجيـب أن القطـط كانـت واقفـة وراء بعضهـا مطأطـأة الـرأسِ، كأنهـا في طابـورٍ مـدرسيّ. تَظاهـرتُ بـشرب علبـة الميـاه الغازيـة، وتفحّـص تليفـوني المحمـول، بينمـا كنـت أراقِـب المشـهد. كان كلَّ قِـطٍ يأخـذ نصيبـه مِـن الطعـام مِـن يدهـا، ثـمَّ ينـصرف، مارِقًـا بهـدوءٍ مِـن بوابـة الفيـلا الحديـد، نحـو كشـكٍ خشـبي منصـوبٍ فـوق عشـب الحديقـة الواسـعة، كأنّهـم يـؤدون عرضًـا عسـكريًا. لمحـتُ قِطًـا رماديًـا يَخـرج مِـن الطابـور، مُسـتبِقًا رفاقَـه، فلكزَتـه العجـوز بطـرفِ نعلِهـا، ليعـود صاغـرًا آخـر الطابـور. تنبّهَـتْ السـيدةُ أني أراقبهـا.

تفَّحَصَتـني بدقّـة مِـن أعـلى لأسـفل. شـعرتُ بحـرج، فبادرتني بالسـؤال بصـوتٍ مبحوح:

- القِـطّ الـذي يَخـرج عـن الطابـور ليـس لـه مـكانٌ عِنـدي.. هـل تحِـبُّ القِطط؟

«وما حكاية القطط معي!».

- لا واللهِ.. لا أثِـق بهـا.. أولًا أعتـذِر تمامًـا عـن التطفّـل.. لكـن المشـهد

استرعى انتباهي.

- لا.. ولا يهمّكَ.. لم يتبقَ أصدقاء لي سواهم، والمَثل الأمريكي يقول: never trust a smiling cat لكنّي جرّبتهم كثيرًا، ولم يخونوا يومًا، فقررت تصديق المَثَل المصري الذي يقول: جرَّب صاحبك قبل أن تثق به.. وجهُك مألوفٌ لديّ، وهيئتك تقول إنَّك مِن سكان الحَي.

- لأني أرتدي «شورت»؟ فعلًا.. أنا ساكن في (٨) شارع الجيزة.. الشارع الموازي تمامًا.. فيلا المهندس سعيد أبو الخير.

- أأنتَ يونس أم يحيى؟

- أنا يونس.. حضرتك تعرفينا؟

انقبضَ قلبي لسببٍ غامض، حين عادت الكهرباء فجأة وأضاءتْ مصابيح الشارع، كاشفةً عن وجه العجوز. بدت شفتاها منفوختين بشكلٍ غير طبيعي، وكان عنقها مطوَّقًا بسلسلةٍ فضّية، تتوسطّها جوهرةٌ مِن الماس، تتوهّجُ بألقٍ تحت ضوء عمود الإنارة. تتابعت إنارة مصابيح الفيلا الخارجيةً التي كانت مُسلَّطةً بالكامل على البقعة التي تقِف فوقَها، فتبيّنتُ ملامحها كاملة. كان النمش الرقيق يغطّى صدرها شبه المكشوف، مدَّتْ يدها بطريقة أرستقراطية:

- أنا مدام نِعمت علوان.. وِشّك حلو يا يونس.. الدنيا نوّرت.. طبعًا عارفاكم كويّس.. أنا.. صديقة العائلة.. معرفة قديمة.. تشرب قهوة؟

- آه.. طبعًا.. يشرفني يا فندم.

كادتُغِلت مِني ضحكة مكتومة حين سمعت كلمة «صديقة

العائلـة»، الكلمـة الـتي كانـت تتمتّـع بسُـمعةٍ سـيئة لـديّ بسـبب كـثرة مشـاهدة الأفـلام العـربي القديمـة، مـع أمـي.

«مَـن مـدام نعمـت؟ لـم أرَهـا يومًـا، ولـم تتحـدّث عنهـا أمـي يومًـا» همسـتُ في سَرّي.

دلفتُ وراءها إلى قلبِ الفيلا.

بهـوٌ واسِـع مثـل بـحـرٍ، تتناثـر عـلى جنباتـه قِطـعُ أثـاثٍ قليـل، أجواء المـنزل توحـي بأطـلال مـاضٍ طـواه الغيـاب وشـباب جرّفـته الوحـدة. كان تقسـيم الفيـلا مِـن الداخـل مشـابهًا تمامًـا لتقسـيمِ المـنزل الـذي نسـكنه، قِطـع الأثـاث الفاخـرة القليلـة مُـوزَّعة التوزيع نفسـه في الأماكن ذاتهـا كمـا في منزلنـا، حـتى الشـمعدان النحـاسي. لديهـا شـمعدان، نسـخة طبـق الأصـل، موضـوع فـوقَ خزانـة الأحذيـة. صعـدتُ وراءهـا إلى الطابـق الأعـلى. أثنـاء صعـودي، لمحـتُ صـورًا فوتوغرافيـة كثـيرة، تزيّـن الجـدران، كلهـا بالأبيـض والأسـود، تخلـو مِـن صـور زفـافٍ أو أبنـاء. تقسـيم الشُـرفـة أيضًـا مثـل شُـرفـة منزلنـا، مِقعـدان مِـن البامبـو مبطّنـان بوسـائدِ ظهْـرٍ خفيفـة. أشـعلَت سـيجارةً جديـدة، ووقَفَـتْ مسـتندةً بيدهـا عـلى حافـةِ السـور الرخامـي. أبـصرتُ شُـرفـة منزلنـا عـلى بعـد أمتـارٍ قليلـة.

- غريبة؟ عندنا الأشجار نفسِها في حديقة منزلنا!

- عـارفة.

-حضرتك صديقة أمي؟

نفثَتْ دخان سيجارتها بعصبيّة في وجهي، وقالت:

- علِمـتُ أن المهنـدس سـعيد عـادَ بصفـةٍ نهائيـةٍ مِـن الخليـج.. أراه كل يـومٍ مِـن شرفـة المـنزل.

- آها.. حضرتك معرفة أبي.

- المهندس سعيد أبو الخير هو مَن صمّمَ ديكورات هذه الفيلا من خمسٍ وعشرين سنة، الفيلا في الأساس لجَدّي، اللواء جمال علوان، قبلَها كنت أعيش في باريس مع أبي وأمي، كان أبي يعمل دبلوماسيًا بالقنصلية المصرية في باريس، وبعد وفاته، رجعنا لنستقرَّ في القاهرة في أواخر الثمانينيات، ولقتل الوقت، افتتحتُ «بوتيك» لبيع الملابس الجاهزة في أول شارع دمشق، لكنني مللتُ العمل سريعًا، فقررت التفرغ لهواية تربية اليمام.

- اليمام!!

- في الطابق الأخير مِن الفيلا، صنعتُ قفصًا ماسيًا كبيرًا لتربية اليمام، أخرج كل يوم مرّتين.. صباحًا بعدَ الفجر، ومساءً.. وقت المغيب لإطعام اليمام الجائع.. أتعرف ما الذي جعلني أربِّي يمامًا بالتحديد؟ طريقة الذَّكَر في التودّد لأنثاه.. حيث يتودّد الذَّكَر بخفض ذيله ورفعه إلى أعلى.. واو.. منتهى الرومانسية يا يونس.

- رومانسية أم خضوع؟

- خضوع؟! رومانسية طبعًا.. إذا تحلَّيتَ بالصبر في التعامل مع اليمام فإنه سيثِق بك أكثر، وإذا اتضح لك أن اليمام الذي اصطدته مشاكس وغير مُطيع، رغم كل محاولاتك لاحتوائه، فعليك نزع بضع ريشات من كل جناح.

- بالمناسبة اليمام طائرٌ سَيئ في بناء عُشّه الهشّ الضعيف، وغالبًا تؤدي هشاشة أعشاشه إلى سقوط البيض، وموت الفرخ الصغير.

- خبير طيوراتي حضرتك؟ (قالتها بضحكة عصبية حادَّة).

- ممكن أسأل.. مِن أين تعرّفتِ على أبي؟

- كنا نرتاد كل يومِ جمعة صالة «مزادات البارون» في شارع لبيب الشاهد، خلف نادي النصر، ساعَدَني في شراء قِطع الأثاث والأنتيكات.. انتقيْنا كلّ قطعة أثاث معًا، ولمّا حكيتُ له عن الملل في حياتي، جلبَ لي حقيبة مملوءةً بالروايات.. روايات بلزاك، وأندريه جيد، وسارتر، وسان سيمون، قرأتها كلها وأعدتها إليه، طالما حكى لي عن روايةٍ يتمنّى كتابتها.. والدك رَجلٌ رقيق.. واسع الثقافة.

- عارف.

- ولا أيام فرنسا، ونزهتنا في حديقة اللوكسمبورج في باريس.. يا عيني ونحن نسمع وردة: «لو كنت قابلتك مِن زمان».

- عفوًا يعني، ولكني لا أرى أي ديكورات ولا أنتيكات! الفيلا.. سامحيني على هذا اللفظ، تخلو مِن أي...

- لا تقُل تخلو مِن الذوق، وإلا كان ذلك انتقاصًا مِن ذوق والدِك الرائع.

***

كان الصدأ قد صبغ كل شيءٍ حولي، حين وصلت المنزل.

خرجَ أبي وأمي في عزاء أحد الأقارب، بينما كان يحيى رهينَ محبسه الاختياري. فكّرتُ في الصعود للجلوس قليلًا في شرفة أبي بالطابق الأعلى. أبقيتُ على أنوار المنزل مُطفأة، وفتحت نوافذَ الشُرفة الخشبية على مصراعيها. كانت ليلةً ظلماء، لا قمر فيها ولا نجوم، والطقس حار ومشبّع ببخار الماء الخانق. أطللتُ برأسي لأنظر إلى شارعنا الهادئ الغارقِ في الظلام، مُحدِّقًا نحوَ فيلا مدام «نعمت علوان»، وصداعٌ عنيف ينهش رأسي. شعرتُ أن فروع شجرة الصدأ

تحالَفَتْ مع رطوبة الصيف، لتخنقا روحي بحبلٍ واحد، حبلٍ غير مجدول، يربط أشجار الصدأ برباطٍ أسود. غادرتُ الشُرفة قاصدًا غرفتي.

أشعلت مصباحًا صغيرًا أعلى السرير، وجذبتُ كتابًا مِن الكومود المجاور. كان «ديوان ريلكه: مراثي دوينو»، الديوان الذي أهدَتني «سارة» نسخةً مِنه، في ثالث مرّة التقينا فيها في الورشة.

أغمضتُ عينَيّ وأنا أعيد قراءة هذا البيت: «لا تبحث عن إجاباتٍ يستحيل العثور عليها، لأنكَ لن تكون قادرًا على عيشها».

***

ولمّا نِمْت حَلُمْت حُلْمًا واحدًا، يتكرّرُ في التوقيت نفسِه مِن كل أسبوع، وبالتفاصيل ذاتها. كان الحُلْمُ يعاودني ليلةَ السبت مِن كل أسبوع، وحتى إذا راوغتُ الحُلْمَ وقمت بإجازةٍ يوم الأحد، كان يأتيني الأحدَ ليلًا. روتين صارم؛ شيء أشبَه باتفاقٍ أو عقدٍ محرّر بحِبرٍ سريّ، عقدٍ لا ينصّ على تعويضات، وعلى المتضرر اللجوء إلى الواقع.

سأحاولُ أن أكون وفيًا لتفاصيلِ الحُلم. يبدأ الأمر بصداعٍ خفيف، يتصاعد تدريجيًا بخبثِ حرباءٍ نحو نصف رأسي الأيمن، وكأنَّ رأسي قدْ شُجَّ، أو كأنّني وقَعتُ مِن مكان مرتفع، من سُلَّمٍ أو ما شابَه. أفتحُ درجَ الكومود المجاوِر للسرير، وأتناول مُسكِّنًا يحتوي في العادة كافيين وباراسيتامول، يحول بيني وبين الاستغراق الكامِلِ في النومِ. بعدها يبدأ التفكير. خلطةٌ كلاسيكية مِن نوستالجيا الزمن

المفقـود. يليهـا التفكـير في جـدول عمـلِ الغـد، اجتمـاع مديـر وكالـة الأنبـاء الأسـبوعي بنـا.

يقذِفُـني بعدَهـا الحُلْـمُ فجـأةً إلى عالـمٍ آخـر. يبـدأ الحُلْـم وأنـا أجتاز البوابـة الصغـيرة للمستشـفى الإيطـالي بالعباسـية، ولـم أكـن قـد زرتـه. شـعرتُ أنـني في قلـب كنيسـةٍ مِـن كنائـس العصـور الوسـطى الـتي سـبق أن زرتهـا في ألمانيـا. صحيـحٌ أن المبـاني وملحقاتِهـا الإداريـة بـدَت قديمة، إلا أنهـا كانـت نظيفـةً منظمـة.. الوقـتُ عـصرًا.. ممرضـات يَذرعـنَ فنـاء المستشـفى الواسـع، تؤكـد ملامحهـنّ أنهـن غـير مصريات؛شَـعرٌ أشـقر اختلـط بغبـار الزمـن الأبيـض، فـترك آثـاره الـتي لا تنمحـي.

يَظهـر بعدهـا أبي في الحُلْـم فجـأة، باكيًـا بحرقـةٍ، لـم أرَ مثلهـا في حيـاتي. يسـيرُ أبي وأنـا خلفَـه، أراه مِـن حيـث لا يـراني. تدنـو مِنـه إحـدى الممرضـات، ملامحهـا الأجنبيـة زاعقـة، «إيطاليـة»؟ ربمـا. يقـترب عمرها مـن الخمسـينيات، سـمينة، ترتـدي زيًّـا رماديًـا، وعـلى رأسـها قلنسـوة الراهبـات، يزيّـنُ صدرَهـا صليـبٌ أسـود اللـون متوسـط الحجـم. تقـترب مـن أبي، وتربـتُ فـوق كتفِـه برفـق. تبتسِـم بهـدوء وتقـول في عربيـة مشـوبةٍ بأعجميـة واضحـة:

- كلنـا هانمـوت.. والـرب يغفـر لنـا للأبـد.. la grazia di Dio ci per-dona sempre

ترسـم إشـارةَ الصليـب فـوق صدرهـا، وتتمتِـم ببعـض الكلمـات الخافتـة، فيقـول أبي بعـينٍ دامعـة:

my wife is dying!.. please pray for her ..Thank you, sister

تمـرُّ ثـوانٍ قليلـة، وبـصرُ أبي ينتقـل بـين الممرضـة وبـين السـماء، كأنمـا يحـاول أن ينقـل إليهـا رسـالة أو رجـاءً مكتومًـا. تـترك الممرضـةُ

أبي، وتمشي بهدوءٍ نحو بنايةٍ أشبَه بكنيسةٍ تتوسط فناء المستشفى. طلاء الكنيسة الخارجي أحمرٌ فاتح، لها بابٌ مِن الخشب البُنيّ الداكن. تفتحَ الممرّضة بابَ الكنيسة بمفتاحٍ مُعلّقٍ في صدرها، يَدخل أبي وراءها، بينما أتابع السيرَ وراءهما مثل حكايةٍ هائمة.

تصِل الممرضة إلى المذبح، حيث صورة ضخمة للسيد المسيح وهو طفل، جالسًا في حِجرِ والدته السيدة مريم العذراء، وتحيط بهما هالةٌ قوية من النور، زاد من قوتها انعكاس أشعة الشمس المتسللة إلى داخل الكنيسة من خلال الزجاج الأبيض المزركش بنقوشٍ دينية. تشير الممرضة إلى بابٍ ضخمٍ ملوّن، مُقسّم إلى مربعات متساوية. تسأل الممرضة أو الراهبة أبي:

- أنا أعرف شوية عربي.. إنتَ تحب تعترف؟

- أعترِف؟ الوقت متأخرٌ.. متأخرٌ جدًا على الاعتراف.. وهل يجوز الاعتراف لراهبة؟ امرأة؟

- لا يتأخرُ الوقتُ أبدًا للاعتراف.. أنتَ تبكي مِن أجلِ امرأة.. فما المانع مِن الاعتراف لامرأة؟

بعدها، أجدني في مكانٍ آخرٍ، منطقة فاصلةٌ بين الحُلْمِ والعِلم. تناديني «أمي» بصوتٍ رقيقٍ، وتعطيني ورقةً فارغة. لم تتحركِ شفتاها، وكأنّها كانت تنطِق بشفرةٍ لم أتعلّمها بعد. ثمَّ تعطيني «زهرة»، مثل اسمها.

أخزّنُ الشفرةَ داخل رأسي ولا أفكّر في فكّ رموزها على الفور، أترك ذلك لِما بعدَ الإفاقة. أستيقِظ دائمًا عند هذه اللحظة. لا يجود الحُلْم بأية فرصةٍ للاستفسارِ عن أي شيء. تكون أمامي عشرُ أو خمس عشرةَ ثانية كي أخزّنَ المشهدَ في ذاكِرتي. القلمُ الرصاص

ودفترايَّ جاهزان على الدوامِ إلى جِوار رأسي. أدوّن بسرعة الشذراتِ المتبقية قبل أن تتسرّب سريعًا مِن ثقوب الذاكِرة.

لم أدوّن الحُلْمَ بصيغتيْن مختلفتيْن كما كنت أفعل دائمًا، ولم أضف أية تفاصيلَ مِن خيالي. هذا هو ما يجري في كل مرةٍ بالضبطِ. دوّنتُ المشهد في الدفتريْن كليهما، بالتفاصيل نفسها.

***

الجمعة ٥ سبتمبر ٢٠٠٨

(وهو اليومُ الوحيد الذي دوّنتُ تاريخه مرّة واحدة في أحد الدفتريْن)

في ذلك اليوم الذي لا أريد أن أذكر عن تفاصيله شيئًا، وبعد عودتي مِن رحلة عملٍ في فيسبادن بألمانيا، خرجتُ إلى الشارع، وتأملّتُ منزلنا للمرّة الأخيرة، ذلك المكان الذي اتسعت جنباته لكل الأشياء الجميلة والحزينة في حياتي. لم أشأ وداعَ المكان، ولكني فعلتُ.

بمجرّد خروجي، هَبَّت ريحٌ خريفيّة تنذِر بعاصفةٍ قويّة، استغربت أوانها. تباشير الخريف؟ نظرت إلى البنايات وأوجهِ الناس كما لو كانت سرابًا، كما لو أن الشارع باتَ موحِشًا مثل قبر.

ركِبتُ ترام «النزهة» مِن محطة ميدان الجامع.

- ممكن تبلغني حين يصل القِطار إلى آخر محطة؟

- آخرنا النهاردة محطة غمرة يا أستاذ.

- كم يستغرق للوصول؟

- الله أعلم.. سَـلَّـمها لله.. إنتَ رايح فين يا ابني؟

- والله ما أنا عارف، لا.. رايح مسجد السيدة نفيسة.

- انـزل غمـرة.. واركـب أي ميكروبـاص للسـيدة عائشـة.. واسـأل هناك، لكـن أيّ مسـجد بيقفـل بعـد صلاة العشـاء.

- سأنتظر لصلاة الفَجر.

أسـندتُ رأسي إلى الزجـاج. انطلـق الـترام بهـزّة عنيفـةٍ، أغمضـتُ عيـني، وأسـلمتُ نفـسي لغفـوة، لا أدري كـم طالـت.

-٤-

كان يعرف أن السواحلَ الذهبية بعيدًا، قد أخفتْ له كنزَة الخاص
وأنتَ أيضًا اخْفِ لنفسِكَ كنزًا لا نفاذ له

بورخيس

صارت علاقتي بستارة الخرز أكثر حميميةً، بعد انتقالي إلى شقّتي الجديدة قبل سنتيْن تقريبًا. الشقّةُ في حَي «الفسطاط الجديدة»؛ وهو موقعٌ منعزل عن العمران أشبَه بالمنفَى القاحل. منطقةٌ تقع بين المعادي وعين الصيرة، بينها وبين المعادي مسافةٌ قصيرة، ولكنها ليست على الكورنيش، بل إن مدخلها يُتاخِم المقابر. الميزة الوحيدة هي قرب الشقّة مِن مسجد السيدة نفيسة، المكان الذي كانت تذهبُ إليه أمي، كلما ضاقت بها الدنيا، حاملةً على كتفها حقيبة ورديّةً مملوءةً بأرغفة خبزٍ طازج وبرتقال، كانت توصي بخبزه لدى فلاحة قريبة لنا في بلدة جدي، قرية أجا بمحافظة الدقهلية. وكثيرًا ما كنا نحضرُ (يحيى وأنا) معها مولد السيدة نفيسة، نراقبها وهي تدورُ حول المقامِ، وتهمسُ إلى صاحبته بكلماتٍ مغموسةٍ بنداءاتٍ خافتة، لم نتمكن يومًا مِن أنْ نسمعَ مِنها شيئًا. تقرأ الفاتحة بصوتٍ يتأرجحُ بين النطق والصمت، وتمرّرُ بكفيها على النحاس، وتهمس للأعمدة النحاسية المذهبّة حول المقام، ثمَّ نخرجُ مِن المسجدِ، وأكفّنا الصغيرة تعانقُ يديها، لنطعمَ معًا

الأطفـال والمسـاكين الواقفـين بالقـربِ مِـن سـاحة ركـن السـيارات، نعطيهـم خـبزًا طازجًـا، ثـمّ نـوزّعُ برتقـالًا، ولا ننـسى أن نقتسـمَ برتقالـةً نأكلهـا معًـا.

طالمـا تسـاءلتُ في نفـسي، أيّ حقيبـةٍ تلـكَ الـتي تحـوى كلّ هـذا الخـير؟ أيـن ذهبـتْ تلـك الأيـام الجميلـة؟ ذهبـتْ ولـن تعـدْ. تضـمُّ المنطقـة عـددًا مِـن العمـارات حديثـة البِنـاء، والطـرُق غـير المُعـبَّدة، والجـوّ المغـبَّر عـلى الـدوام. صحيـحٌ أنـني ولِـدتُ وعِشـتُ في مـصر الجديـدة، لكـن بـُعـدَ المنطقـة عـن العمـران، أتـاح لي عزلـةً نبيلـة، ألـوذُ إليهـا كي أنـسى مـا حـدثَ.

كان العالـمُ يبـدو كمـا هـو أمـامَ حـواسّي الخمـس؛ بالصـورة نفسِـها وبالتفاصيـل ذاتِهـا، وأمـامَ السـتارة، الـتي هـي الضفّـة الأخـرى للحـوَاس، ليـسَ عالمنـا: ليـس العالَـم نفسـه. فصـور العالـم بينمـا نتلقاهـا، نتلقّـاها كثيفـةً ثقيلـة لزجـة، ولكنّهـا حـين تمـرُّ عـبْر خيـوط السـتارة، كانـت تـَخرج ليّ مُـقـطَّـرةً صافيـة رائقـة مثـل البلّـور. بعـدَ مـا جـرى، لـم أعُـد قـادرًا عـلى البقـاء في المـنزل. البيـت لـم يعُـد بيـتي بعـد أن أخـذَ مـني كل شيء. شيء واحـد فقـط كنـت أنتمـي إليـه، وينتمـي إليَّ، الخيـوط الـتي صنعتُهـا عـلى عيـني.

استيقظتُ هذا اليوم متأخرًا.

نهضـتُ متثاقـلًا ودخلـت الحمّـام. تأملّـت وجهـي في مِـرآة الحمّـام.. تغّـيرتُ؟ كـمْ مـضى مِـن الزمـن عـلى هـذا الحُلْـمِ الـذي دوّنتـه مرتّـين بصيغـةٍ واحـدة.. سَـنَتان.. مسـتحيل؟

جذبّـت ماكينـة الحلاقـة ووضعـت الصابـون فـوق شَـعر لحيـتي الحـادِ الخشـن، وشرعـتُ في تمريـر ماكينـة الحلاقـة فـوق ذقـني. فـارت رغـوة صابـون الحلاقـة لتغمـر عينَـي. ذكّرتـني رغـوة الصابـون بأمـي وهي

إلى جـواري في أيـام الشـتاء القـارص، تزيـل «بقايـا اليـوم السـابق» عـن عيـنَي بقطعـة قطـنٍ مُبلّلِـةٍ بالشـاي، وصْفَـة قديمـة ورثَتهـا عـن جـدِّي. ثـمّ تغسِـلُ وجهـي ووجـهَ أخـى بالصابـون. في تلـك الصباحـات القديمـة، كان الجـوّ غائمًـا أيضًـا، لا أذكـر سـوى وقـوفي عـلى كـرسي حمّـامٍ بلاسـتيك صغـير كي أصِـل لحافّـة الحـوض، الجـوّ بـارد، كاليـوم تمامًـا، يحـيى يقـف عـلى الأرض حـافي القدميْن، مُنتظـرًا دورَه كي يغسـل عينيـه، ثـمّ وجهـه بالصابـون.

خرجـتُ مِـن الحمّـام مُسرِعًـا نحـو المطبـخ لإعـدادِ القهـوة. لـم يكُـفّ رأسي عـن التفكـير في القهـوة العجيبـة الـتي جلَبَتهـا «سـارة» منـذ أن انتقَلَـتْ للإقامـة معـي بشـكل شـبه دائـم.

تصـوّرتُ في البدايـة أني سـأجرّب قهـوة عاديـة، لكنـني اكتشـفت أن مـذاق القهـوة رائـعٌ، مثـل مـذاقِ سـارة.

هـل كان مـذاق القهـوّة حلـوًا لأن سـارة هـي مَـن أحضرتهـا؟ أم لأنهـا هـي الـتي صنعتهـا لأوّل مـرة وهـي تطلـب مـني المبيـت في شـقتي تلـك الليلـة متعلّلَـةً بعـدم قدرتهـا عـلى الانغمـاسِ مـع لوحاتهـا وحيـدةً في ليـالي المطـر؟ أم لأنهـا ذاقتهـا أولًا قبـل أنْ تُعطيـني الفنجـان؟

صحيـح يـا درويـش.. لا قهـوة تشـبِه قهـوةً أخـرى، لـكل بيـتٍ قهوتُـه، ولـكل يـدٍ قهوتُهـا.

تمتلِك «سارة» مفتاحَ شقتي.

تـأتي فَجـرًا وأنـا نائـم، وتتسـلّل بهـدوءٍ مِـن بـاب العِمـارة في الخامسـة تقريبًـا، وربمـا قبلَهـا. اقتنـاص الوقـت فـنّ؛ ولأنهـا فنانـة، كانـت تجيـد اقتنـاص التوقيـت المناسـب؛ اللحظـة الـتي يختفـي فيهـا بـواب العِمـارة لأداء صـلاة الفَجـر في المسـجد المجـاور للمـنزل، لدرجـة أنـني تخيّلـت

يومًا معرفتها بإمام المسجد، لم تخيّب ظنّي يومًا في موعد حضورها. هل كان إمام المسجد يخبِرها عن وقت إقامة الصلاة كل ليلة لضمان عدم وجود البوّاب؟

وكان السؤال الذي يؤرقني دائمًا، كيف كانت تتسلّل سارة إلى الشقّة وحدها في هذا الوقت المبكر جدًا أو المتأخر جدًا؟ وكانت قد باعت سيارتها المرسيدس، زاهِدةً في كلّ شيء، أو متشكّكةً في كلّ شيء.

ألم تكن تخشى عفاريت مقابر البساتين التي كانت تفزع الناسَ على حد ما سمعتُ مِن زوجة البواب؟ العفاريت التي كانت تربت على كتف كل مَن ينتظر أمام محطة الأتوبيس المقابلة للمقابرِ. حين تَدخل الشقّة، كنت أحسّها. كانت تجتاز سارة ستارةَ الخرز بهدوءٍ خشيةَ إيقاظي، لكن اصطكاك الحبّات يَفضح أيّ مارقٍ إلى قلب الغرفة، وحين تضطجع إلى جِواري في السرير قرب بروغِ الفجر، كنتُ أحِس دفئها أيضًا.

«سمّها متلازمة الدفء والفجر يا يونس».

لا أنام إلا حين تصِل الشقّة، ولكني لا أظْهِر ذلك. أراها في المِرآةِ المقابلة لوجهي وأنا مضطجعٌ على وجهي فوقَ معصمي، واقفةً تلُمُّ شَعرها إلى الخلف، تَضع كُحلًا أسودَ وتنثرُ قليلًا مِن ماء الورد فوق عنقها متجاهلةً أصناف العطور الفاخرة التي كانت تشتريها في سفرياتها السنوية إلى أسطنبول مع والدتها لزيارة التكايا الصوفية هناك، أو إلى ليفربول في إنجلترا حيث كانت تدرس.

ثمّ تنزلق إلى فِراشي مثل بنت هوى بريئة. تُلصِقُ نصفَ جسدها

بنصفِ جسدي، لتأخذ منّي دفء الفراش كلّه، لكنها تمنحني في المقابل أشياءَ أكبرَ مِن الدفء، وأنقَى مِن الأحلام.

حين كنت أخبِرها أن ملابسها كانت تفوح منها روائح الألوان، كانت تجيب وهي شاردة أن الألوانَ والأحلام والرسوم تتمازج وتختلِط كلّها، بشرطِ الإخلاص.

سارة بالنسبة لي راحةُ بالٍ وبوّابة حُلْمٍ عاجيّ، ودفء عجيب متواصل، كما لو كنتُ أجلس إلى نارٍ لا تخلو مِن بردٍ وسلامٍ في ليلة شتويّة. تفتحُ عينيها في قلب الظلام، فتومِضان كأنّهما شمعتان زرقاوان أوقدهما القمرُ في ليل قرية جدّي.أستيقِظ على شعيراتٍ طائشات مِن شَعرها البُنيّ القصير وقد تسلّلتُ إلى فمي أو إلى أنفي بعد أن أفلتتْ مِن الكحكة المعقوصة للخلف، فأفيقُ غيرَ مُتفاجئ. أحيانًا كانت تستيقِظ وتنظر نحوي بنصف عينٍ ناعسةٍ، مُشيرةً بأصابع كفّها اليمنى المضمومة، في إشارةٍ تحمِل تأويلَيْن: «سبني أنام شوية كمان» أو «اصبر عليّا لمّا أصحى». حِرتُ في إشارة يدِها. ولا هي فسّرَت يومًا إشاراتِها ولا أنا سألتها عن تفسير. كنت وهي نائمةٌ إلى جواري أهمِسُ في أذنها بصوتٍ خفيض:

- كيف يُمكِن لكائنٍ أسَرَني، وأخذني في شِباكه، أنْ يطلِقني ويفكّ أسري؟

- أنا سأحرّرك.. وسأحرّر لك.. الحكايات كلّها ضربٌ على وترٍ واحد.

- هذا كلام أبي!

- وما المانع؟ الكتابة زفرةٌ نطلِقها كي نستريح.. لمَ لا نستريح معًا؟ أتذكُر العبارةَ التي استهَلّ بها «خيري عبدالجواد»، روايتَه العاشق والمعشوق.. أول رواية قررتها علينا د.مارسيل فؤاد في الورشة؟

- أيّ عِبارة؟

- لا تصلح المَحبّة بين اثنين حتّى يقول أحدهما للآخر يا أنا.

- هـذا كلام السكَارى؟ بالمناسـبة.. مِـن أيـنَ جلبـتِ هـذه القهـوةَ الغريبـة؟ كلمـا شربتهـا...

- ماذا؟ سَكِـرت؟

- مِن أين عرَفتِ؟

- مِن «الشيخ نجدت حقاني».. الدرويش الذي أعطاني القهوة.

- درويش؟

- شيخ الطريقة المولوية في تكية جالاتا مولوي خانة، كنّا نقصده أنا وأمي كل صيفٍ لدى زيارتنا لأسطنبول لرؤية عروض المولوية، قالت أمي إنها تعوَّدت زيارته على مدار ثلاثين سَنة، حتى قبل زواجها، وكانت تشتكي له أحيانًا مِن غياب أبي المتكرّر، ومِن انشغاله الدائم عنّا، فكان يعطيها نصائحَ خفيّة، لم تَبُح لي بمضمونها يومًا، ثمّ يقبّلني ويعطيني حلوى، ويُعطي أمي برطمانًا مِن القهوة التي يطحنها بنفسِه.

- أكيد كان يضع فيها مُخدرًا.

- ربما.. في المرّة الأخيرة أثناءَ خروجنا مِن التكية، أعطاني برطمان قهوة كبيرَ الحجم، مزوَّدًا بغطاءٍ أخضر، ولمّا سألتُ أمي قالت إنها قهوة طيبة المذاق، لكنها كانت تنام بعدَ شربها، وتحْلُمُ أحلامًا عجيبة، ولمّا سألتْ الشيخ نجدت، أخبرَها أن القهوةَ اسم مِن أسماء الخمرِ عند العرب.. وأن هذه القهوة ترياق الصابرين.

***

كانـت سـارة هــي «أنـــايَّ»، الـتي تحـرّرني مِـن الأسْر مثـلَ مَـن يحـرّر سـمكةً مِـن شِـبَاكِ صيّـادٍ مُنتهِـكٍ لقانـون الصيـد، تفـكّ خيـوطَ الشـبكة واحـدةً تِلـو الأخـرى، بـكل هـدوء، دون أن تبـدي اسـتعجالًا.

تكتـب سـارةُ الشِّـعرَ، لا الشِّـعر فقـط، بـل تكتـب أحيانًـا قصصًـا قصـيرةً باللغتـيْن العربيـة والإنجليزيـة. والدهـا د. أبـو بكـر طـولان أسـتاذ جراحـة العظـام والعمـود الفـقـري بطـبّ القاهـرة، وهـو يمتلك إلى جانـب ذلـك مستشـفى خاصًـا في المهندسـين. كان والدهـا قـد اعتـادَ إرسـالها إلى عمِّهـا المقيـمِ في ليفربـول طـوال فـترة الصيـف لدراسـة اللغـة الإنجليزيـة في أحـد المعاهـد الخاصـة أثنـاء العطلـة الصيفيـة، وهـو مـا عمّـقَ شـعورها بالوحـدة، ودفعهـا إلى دخـول كليـة الفنـون الجميلـة والانغمـاس في الرسـم والألـوان. كثـيرًا مـا كلّمتـني عـن تأثرهـا العميـق برايـنر ماريّـا ريلكـه، الشـاعر التشـيكي الـذي يكتـب بالألمانيـة.

- لـم أجِـد الخـلاصَ سـوى في قصائده، وفي أوراق كراسـات الاسـكيتش الـتي أرسـم فيها.

- وقعـتُ في هـوى ريلكـه منـذ أن أخـذتُ منـكِ ديوانـه «مـراثي دوينـو» في أول تعارفنـا بالورشـة.. لكـن لمـاذا ريلكـه تحديـدًا؟

- ريلكـه لـم يتكلَّـم عـن الحُـب فقـط مثـل بـاقي الشـعراء، بـل عـاش الحُـب ومـات بسـبب الحُب. فتّشـتُ كثـيرًا في تفاصيـل حياته فاكتشـفتُ أنّـه وقـع في غـرام سـيدة مصريـة تُدعـى «نعمـت عُلـوي»، وقـد شـاعت عنـه أسـطورةٌ لطيفـة، ولكنهـا حزينـة النهايـة، كانـت تقـول إنَّ سـبب وفـاة ريلكـه بمـرض اللوكيميـا أو تسـمّم الـدم، إنمـا أصابـه مِـن جـرّاء تسـمّمٍ في جـرح أصابـه وهـو يقطّـف وردةً قدّمهـا إلى حبيبتـه نعمـت علـوي وهـو يودِّعهـا حـين جـاءت إليـه في قـصر مـيزوت تـزوره، حيـث دخلـت في إصبعـه شـوكةٌ سـامة وجرَحَتـه، وكان الجُـرحُ خفيفًـا في البداية

لكنّه ما لبث أنْ أصيب بتسمّم.

- أول مرة أسمعها.. أيقتل الوردُ يا سارة؟

- الشوكة هي التي قتلته، لا الوردة.

- كلمة وجيه أبو لوزة!

- مَنْ؟

- لا شيء.

***

تصنع سارّة قهوتها السريعة، وتدخل إلى الغرفة الثانية التي حوّلتها إلى مشغل خاصّ، هكذا دون سابق إنذار، ودون الرجوع إليّ، ولا أخْذ رأيي، حتى مِن باب الحُب. كانت تسمّي ذلك «فتّوة الحُب»، كان تعبيرًا غريبًا، لا أذكر أنني صادفتُه في الكتب؛«فتوّة الحب».

اشترَت دولابًا بلاستيكيًا مِن النوع المستخدم في الشاليهات؛ طوله متران وعرْضه متران. باب الدولاب عبارة عن سوستة تشقّ جسد الدولاب بالطول. وضعتْ فيه أطقم اللانجيري التي تعرِف أني أفضّلها، وطقمين أو ثلاثة للخروج، وملابس بيتي شتوية وزوجيْن مِن الأحذية، وحذاءً رياضيًا أبيض، وعلبة ماكياج كاملة، وبعض زجاجات العطور التي اشترتها آخر مرّة حين كانت في زيارتها الأخيرة إلى اسطنبول، وأقلام رصاص، وألوانًا زيتية، خشبية مائية، باستيل، جواش أكريليك، فحمًا ورصاصًا، وفرشًا للتلوين، سكّينًا، وكراساتِ رسم «اسكيتش» بمقاسات مختلفة، أسطوانات «توماسو ألبينوني» التي تشاركني الشغفَ بموسيقاه، عُلب شيكولاته La Madeline،

برطمانـات قهـوة Tschibo سريعـة التحضـير، والأهـمّ برطمـان قهـوة تُركيـة، عجيبـة المـذاق، ذو غطـاءٍ أخـضرَ مُغلـقٍ بإحـكام. اندمجـت سـارة سريعًـا مـع كل تفصيلـة مِـن تفاصيـل حيـاتي؛ القهـوة الممزوجـة بقطـرات مـن الكونيـاك الأرمـني المعتّـق، البيـتزا البـاردة، مراقبـة أسراب اليمـامِ القريبـة مِـن وراء النافـذة. بخصـوص الكونيـاك قالـت لي يومًا إنّ «مارسـيل بروسـت» كان مُجـبرًا في طفولتـه عـلى شرب جرعـة مِـن الكحول يوميًـا بسـبب نوبـة الربـو المزمـن الـتي لازمتـه حـتى وفاتـه.

- طفولةٌ مغدورة يا سارة.

- يونـس.. السـيدة الطفولـة المغـدورة هـي قرينـة السـيد الفـردوس المفقـود.

- تقصديـن الجحيـم.. أي فـردوسٍ ذلـك الـذي يجـبِر طفـلًا عـلى شرب الكحول؟

- عـلى فكـرة قهـوة الشـيخ نجـدت مثلهـا مثـل كحـول مارسـيل بروسـت.. كلاهمـا يمنحانِـك مـيزةَ أن تـرى وجهـيْن للعالـم، لا تسـتطيع رؤيتهمـا وأنـت مسـتفيق.

- هل تحبينني يا سارة؟

- وما الحبّ؟

- لا أعـرفُ.. روايـات الحـبّ كلهـا ليسـت سـوى «مـاذا أعـرِفُ عـن الحـبّ»؟

***

-٥-

«الحريّة.. كلّ الحريّة أن تكونَ عبدًا للحقيقة»

فيلم الاختيار - يوسف شاهين

تعرّفَـــتْ ســارة أثنــاء حضورنــا الــدورة الرابعــة مِــن دورات ورشــة الكتابــة الإبداعيــة، الــتي ينظّمِهــا المعهــد الفلامنــكي الهولنــدي عــلى صديقــةٍ اسـمها أمـاني بِبــاوي؛ وهــي متخرجــة في كليــة التربيــة جامعــة عــين شــمس، تعمــل مدرّســة تاريــخ في إحــدى مــدارس البنــات الثانويــة التجريبيــة في شــبرا، وكانــت تشــعر بميــلٍ واضــحٍ لــلأدب والكتابــة، إلا أنهــا لــم تتمكّــن مــن التفــرغ للكتابــة لظــروفٍ شــخصية كمــا حكــت ســارة. وعــلى مــدار ســنواتٍ توطّــدت الصداقــة بــين ثلاثتنــا، فكنــا نلتقــي حــتى بعــد انتهــاء مــدّة الورشــة، الــتي كانــت تُعقَــد مــرةً واحــدةً ســنويًا، وتســتمر ثلاثــة أشــهر. وفي يــومٍ بعــد انتهــاء الورشــة، جلســنا في أحــد المقاهــي لمناقشــة تكليــف د. مارســيل الأخــير بخصــوص كتابــة حــوار قصــير يــدور حــول مفارقــة الظــلّ لصاحبــه. كان التكليــف هــو عمــل جماعــي لكتابــة حــوارٍ مشــترك؛ ســارة ومــاري وأنــا. بعــد انتهــاء الورشــة، أخذنــا نمــشي في شــوارع الزمالــك، حــتى وصلنــا إلى شــارع ٢٦ يوليــو.

اخترنــا مقهــى محشــورًا في أحــد المبــاني الأرســتقراطية القديمــة. كان أغلــب رواد المقهــى مِــن الأجانــب. وســطَ عبــقِ دخــان الســجائر جلســنا

وشربنا قهوة. دخنّت سارة نحو علبة سجائر كاملة. أخذنا الحديث في مسالكَ متشعبة. حكى كلٌ مِنا عن شيء مِن حياته ودراسته واهتماماته، وطموحاته فيما يخصّ مجال احتراف الكتابة. داهمنا الوقت، واكتشفنا أنه بعد مرورِ أربع ساعاتٍ لم نتمكّن مِن نسج حوارٍ منطقي أو حتى الخروج بفكرةٍ مبدئية يمكن البناء عليها أو تطويرها.

والنتيجة صِفر. الشيءُ الوحيد الذي لا زلت أذكره هو العرّافة المغربية، وهي شابّة في منتصف الثلاثينيات تقريبًا اعتادتْ ارتياد المقهى كما عرفنا مِن النادل، تقرأ للزبائن الطالع. قرأَتْ الطالع لسارة ولأماني، ورفضتُ قراءة طالعي.

تنبّهتْ أماني إلى أن الساعة قد اقتربت مِن الحاديةَ عشرةَ وأن عليها الانصراف، فعرضتُ توصيلها إلى منزلها، بصحبة سارة، أو على الأقل إلى أقرب مكان.

وافقت «أماني» بسبب برودة الطقس على توصيلها. أقلّنا تاكسي إلى شبرا. وفي أثناء الطريق تحدّثت أماني حديثًا عابرًا عن زيارتها دير العذراء كل شهرين، وهو الدير المعروف بدير السريان في وادي النطرون بصحبة زميلاتها في كنيسة الشهيد مارجرجس في نزلة السمّان.

- ما رأيكما؟ لماذا لا نسافر يوم الجمعة القادمة إلى الدير، الورشة تُعقَد كل أسبوعين، أي الأربعاء بعد القادم.. أكيد سنصِل هناك لفكرة جيدة، والمكان ملائم تمامًا، الصحراء، والبحر، وسكون الدير.. عناصر مثالية لبناء يصلح لقصّة مثالية.. ما رأيكما؟

انسدل شَعر سارة على وجهها، فلمّته إلى الخلف وعقدته بتوكة حمراء صغيرة، ونظَرَتْ نحوي وهو تضحك قائلة:

- بل مكان مثالي لروائي يعاني مِن أرقٍ مثالي على رأي جويس.

***

على مدار الأسبوع، لم تكُفّ خلاله سارة عن إبداء رغبتها في زيارة الدير، قالت إنها الفرصة الذهبية لرسم خطوط مشروع روايتها، ولم أجد سوى الامتثال إلى رغبتها. صباح يوم الجمعة مررنا على «أماني» بسيارة كنت قد اشتريتها مؤخرًا. كانت أماني تقيم مع والدتها وأختها الصغرى في شارعٍ قريب من ميدان الرماية. قَطَعنا نصف الطريق تقريبًا، ووصلنا أستراحة MASTER في الواحدة بعد الظهر. طلبتْ سارة التوقّف لدخول دورة المياه وشراء قهوة لنا نحن الثلاثة، وعلبة سجائر لها.

- أماني.. ألا يزال الديرُ بعيدًا؟

- إطلاقًا.. لا يبعد عنا سوى أربعة عشرَ كيلو مترات، لو انطلقنا الآن سيكون أمامَنا نحو عشرين دقيقة لبلوغ بوابة الدير.

في أثناء الطريق أخذَتْ أماني تحكي عن تاريخ دير السريان وهي تشرب القهوة. كنتُ ساعتَها مشغولًا بالقيادة فلم أنصِتْ إلى كلامها، ولم أبدأ في الانتباه إلا حينما بدأت تحكي عما يُسمى بباب النبوءات أو باب الرؤى.

نظرتُ إليها من خلال المرآة العاكسة أمامي وسألتها:

- طبعًا يا أماني.. لن يمرّ موضوع باب النبوءات مرور الكرام.. ونحن أولاد مهنة واحدة.. وعلى الروائي الجيّد التقاط أي حكاية جيّدة لينسج مِنها قِصتَه.

- جميل.. ماذا تريد أن تعرف؟

- ما قصة باب النبوءات؟

- البعض يسميه باب الرموز.. وهو أشهر باب هيكل موجود في دير بمصر، صُنعَ في القرن العاشر، وتحديدًا في عام ٩١٤ ميلادية، ويتكون من سِت ضُلَف، الواحدة طولها ٢٧٥ سم وعرضها ٤٥ سم.

لمحتُ في عينَي سارة اهتمامًا مماثلًا بالموضوع. اعتدَلَتْ في جلستها، ودارت بكامل رأسها إلى المقعد الخلفي حيث أماني. واصَلَتْ أماني حديثها:

- إلى جانب الجزء التاريخى، هناك قصص أخرى ارتبطت بهذا الباب العجيب، والذى ينقسم إلى أجزاء، كل جزءٍ يحكي حقبة تاريخية معينة، أغربها حسْب علمي القِسم الذي يوجد فوقه رسمٌ للصليب المعقوف، سمعتُ مِن جدّتي قبل تنيّحِها منذ عشر سنوات، أنَّ هتلر عرَفَ بوجود هذا الرسم في دير موجود غرب القاهرة، وقد دلَّه عليه أحد العرّافين، فعَدَّ الصليب المعقوف، رمزَ النازية، عَدَّه علامةً على انتصاره في معركة العَلَمين، واكتمال اكتساح العالم.

سألتُ أماني:

- وما رأيكِ يا أماني في الموضوع مِن الناحية الفنيّة، أقصد طبعًا بعيدًا عن الجانب العقائدي أو الديني، هل هناك أبواب تُرينا المستقبل؟ الباب دائمًا يسترُ ما وراءه. هل ألهمكِ البابُ يومًا شيئًا؟

- ثراء الحياة يكمن في الذكريات التي تقفز إلى عقولنا.. تعوّدتُ زيارة دير السريان مع أمي وأبي منذ سنواتٍ بعيدة، وكان أبي حين يدخل للصلاة، يديمُ الوقوفَ أمامَ الباب ويتأمله طويلًا جدًا،

كأنّ لـه عينًـا داخليـةً تخـترق الجـدران وتفـكّ طلاسـم الرمـوز، وتترجِـم الرسـوم والرمـوز إلى رسـائلَ تُعيننـا عـلى مواصلـة الحيـاة كان يقـول إنَّ البـاب وإنْ كان مِـن الخشـب، إلا أنـه يحمـل وراءه معـانيَ عميقـة، تريـد أن تنقـضَّ عـلى المتأمـلِ لتُفـشِي لـه الـسرّ.

- ولكن مِن المؤكد أن هناك رموزًا واضحةً فوق هذا الباب.

- طبعًـا يـا يونـس، دون الدخـول في تفاصيـلَ تاريخيـة؛ البـاب مكـوّن مِـن سِـت ضُلَـف، الواحـدة طولهـا ٢٧٥ سـم. وعرضهـا ٤٥ سـم، ومُقسّـمة إلى سـبعة أقسـام، زُيِّنـتْ كل ضلفـة بصـورة للقديسـين كُتِبـت أسـماؤهم باللغـة اليونانيـة وطُعّمـت بالعـاج في الخشـب، وبقيـة الأقسـام بهـا رسـومات هندسـية جميلـة مـن العـاج.. وكل رسـمٍ يشـير إلى رمـزٍ، ولـكلّ حكايـةٍ رمـز.

وبينمـا كانـت أمـاني تواصـل شرحَ رمـوز «بـاب الـرؤى»، سـافرَ ذهـني إلى مـكانٍ آخـر، إلى بـاب الـرؤى الـذي صنعتُـه عـلى عيـني، وصنَعَـه قبْـلي «وجـيـه أبـو لـوزة»؛ سِـتارة الـخَرز.

تذكّـرتُ مـا علّمتـني إيـاه رؤيـة السـتارة بشـكلٍ يوميّ؛ أن الواقـع الـذي يُمكِـن التعايـش معـه حقًـا هـو الواقـع الـذي يجِـد الإنسـان انعـكاسَ صورتـه فيـه، ويلمـس صـدى روحـه داخلـه، ويـرى الحقائـقَ الـتي طالمـا أرادَ إخفاءهـا عـن الآخريـن، ومِـن قبلَهـم نفسَـه. اسـتحضرتُ عبـارة وجيـه:

«صدقـني يـا يونـس.. إن أفضـل جـزءٍ مِـن ذاكرتنـا، وفي حياتنـا، ليـس في أعماقِنـا، بـل خارجنـا، في الأشـياء الجميلـة الـتي نعـثر عليهـا بمحـض صدفـة، أو تُوهـبُ إلينـا دون انتظـار مقابـل.. وأنـا في منتصـف العمـر أيقنـتُ أنّ كل إنسـان محتـاج، في وقـتٍ مـا مـن حياتـه، إلى ذكـرى يذهـب إليهـا، قـد تكـون هـذه الذكـرى كتابًـا، أو لـوحـةً أو أغنيـةً أو فيلمًـا أو

حتى شارعًا في حيّ قديم، المهم أن تطلَّ على ذكرياتكَ من وقتٍ لآخر.. الذكريات صبورة، في انتظار أصحابها».

حين اجتزنا البوابة بصحبة «أماني» التي تولّتْ الحديث إلى أفراد الحِراسة، لمحتُ ساحة انتظارٍ واسعة تغصُّ بحافلاتٍ سياحية، لمحتُ على لوحاتها المعدنية البحيرة وكفر الشيخ، مُحمَّلة بأفواجٍ مِن الزائرين. معظمهم عائلات، نموذج صادق لتواصل الأجيال، الجَدّ والجَدّة يحملان حفيدًا أو حفيدة ويلتقطان صورًا تذكارية. ضحكات وسكينة وهدوء هنا وهناك. على الجانب الأيمن «بارك» واسعٌ للسيارات وأتوبيسات النقل. مشينا قليلًا ونحن نستمع إلى كلام «أماني» حول التجديدات التي أُدخِلتْ على الدير، وأشارتْ إلى قبة أسمنتية هائلة تحت الإنشاء يرْفِع فوقَها صليبٌ كبير بواسطة وِنش عِملاق.

قبلَ أن تكمل أماني حديثها، رنّ جرس تليفونها المحمول، فاستأذنت في الحديث منفردةً، ونأت بنفسها وهي تتهادى بخطواتٍ وئيدةٍ في «الجيب الزهري الطويلة» إلى نخلةٍ بعيدةٍ للحديثِ بهدوء.

- هل أماني مرتبطة يا سارة؟

- لا أظنّ.. كانت تتحاشى دومًا الحديثَ معي في هذا الموضوع فاحترمتُ رغبتها، لماذا؟

- لا على الإطلاق.. لكنها لطيفة جدًا وقلبها طيب.

- وما علاقة ذلك بكونِها مرتبطة مِن عدمه؟

- طبعًا.. انظري لحالنا.

- لا أفهمك يا يونس!

مشينا مسافةً قصيرة، لفتَ نظرنا أثناء السيرِ في تلك البقعة

قِطـعٌ كثـيرةٌ مِـن الحجـارة مسـتندة عـلى صخـرةٍ عاليـة، ومرصوصـة رصًـا هندسـيًا دقيقًـا، دفعتـني هيئتهـا للتفكـير أنهـا مِـن تنظيـمٍ بـشري، وليـس مِـن صنْـع الطبيعـة.

– أعتقـدُ يـا يونـس أن ذلـك التنظيـم مِـن صنْـع الرهبـان الذيـن يسـكنون هـذا الديـر.

- كأنكّ تَقرئين أفكاري.

- كيف؟

- كنـتُ أتسـاءل مَـن رَصَّ الحجـارة عـلى هـذا النحـو الدقيـق؟ مسـتحيل أن يكـون ذلـك صدفـةً مِـن صنْـع الطبيعـة أو الريـاح.

- وما الفرق؟

- طالما شغلني السؤال؟ مَن أقوى؟ الصدفة أم الإرادة؟

- يونس.. هل شممتني يومًا وأنا نائمةٌ إلى جوارِك؟

- كيف؟

- أجِبني.. هل شممتَني يومًا؟

- دائمًا.

- وماذا كنتَ تشمّ ؟

- رائحتـك ممزوجـة بألـوان الزيـت والفحـم. عـلى فكـرة.. لـم أنفـر يومًـا مِـن تلـك الرائحـة.. لا أعـرِف لمـاذا؟

- وهـل تعتقـد أنـني لـم أكـن قـادرةً عـلى إزالـة أثـرِ الألـوان قبـل الانـزلاقِ في فِراشـك.

- لا أفهم.

- كنـتُ أتعمّـد فِعـل ذلـك يـا يونـس.. كنـت أريـد اختبـار أثـر الألـوان

والزيت وعرق الرسم والتلوين وهي تنصهر داخل أحلامي وأنا إلى جِوارك.. أنا مصنوعةٌ مِن الفرشاة والألوان والكلمات.. التجربة التي حكيت لك عنها كانت قاسيةً ومؤلمة إلى أبعدِ حد.. أنت تعلم طبعًا التفاصيل.. كنت أريد اختبار بقايا الألوان والفرشاة على أحلامي.. مَن سيهزِمُ مَن؟ مَن سيُخضِع مَن؟ هل تذوب الأحلامُ داخل ألواني والصور والتهاويم التي تداعب عقلي وأنا أرسُم؟

- ومَن الذي كان ينتصر؟

- الألوان.. نعود إلى حكايتنا.. أحِبُ سماعها مِنْك.. سماع الحكايات منكِ يمنحها سحرًا جديدًا.. صوتك يطهّر أذني مِن دنس ما سمعته في حياتي.

«تعرّفتُ عليك منذ خمسِ سنوات.. كانت ورشةً للتدريب على الكتابة الإبداعية.. لمدّة ثلاثة شهورٍ مُقَدَّمَة مِن المعهد الهولندي الفلمنكي، كان العدد قليلًا.. كانت مصادفة عجيبة أنْ نلتقيَ كل سنةٍ في الموعد نفسِه، وبقينا نلتقي حتى السنة الماضية، حين قرَّرتْ إدارة المعهد تقديم منحة مدتها ستة أشهرٍ لكتابة رواية، واشترطَتْ مُسبقًا مِن المتقدّمين إرسال ملخصٍ عن مشروع الرواية، مع تحديد الإطار الأساسي للفكرة التي يدور حولها العمل. طُلِبَ منّا إرسال نصوص مِن الأعمال السابقة (المنشورة أو غير المنشورة)».

- كان شرطهم صعبًا يا سارة.

- بل كان الشرط الأهم.. ألا يكون المشروع لرواية مكتمِلة أو حتى شِبه مُكتمِلة، كان الشرطُ الأساسي ألا تكون الرواية مكتملة، شذرات كي يكتشِفَ كلّ متدرّب نفسَه أثناء عملية الكتابة.

- لم أسألكِ يومًا.. ماذا كان انطباعكِ عني؟

- في البدايـة كنـتُ أشـعر نحـوَك شـعورًا غريبًـا.. كنـتَ تبـدو لي «مغـرورًا» بعـضَ الـشيء.. ربمـا بسـبب صمتـك الطويـل أثناء الورشـة.. وعـدم الاندمـاجِ معنـا أثنـاء الـ coffee break.. أو عـدم تبـادل النِكات والقفشـات مـع بـاقي المجموعـة.. لكنّـك أثَـرْتَ انتباهـي بالمشـهد السـينمائي الـذي طَلَبـتْ مِنـا د. مارسـيل اختيـاره وإعـادة كتابتـه ليكـونَ أكـثرَ جمـالًا؟

- لماذا أحببتِني.. هل لأن الحُب أعمى؟

- طبعًا.. أعمى مثل الخفاش.

- خفاش؟!

- طبعًـا.. الخفـاش أعمـى.. لكنـه يمتلـك «رادارًا» قويًـا.. أقـوى مِـن كل المُبصريـن.. الخفـاش الأعمـى يـرى في العتمـة مـا لا يـراه المُبـصِرون.

- هـل تعرفـين أننـا لـم يهجـر أحدُنـا الآخـر قَـط .. بالرغـم مِـن خلافاتنـا.. حـتى بعـد أي خـلاف أو «خناقـة»، كنـتِ تأتـين في موعـدِكِ الثابـت، قبـل الفَجـر بقليـل.

- أيـام العُمـر أقـصر مِـن احتمـال الهجـر.. أحيانًـا كنـتُ «أعيّـط» عليـك حـين تتوقـف -أيامًـا- عـن لمـسي حـين أكـونُ في فراشـك.

- تعيَّطي؟

- بالمناسـبة.. «يعيَّـطْ» بمعـنى «ينـادي».. سـمعت الكلمـة مِـن أمـي، وقالـت إنهـم في مسـقط رأسـها بالمنيـا يقولـون يعيّـط عليـك.. بمعـنى ينـادي عليـك.. دعـني أعيّـط عـلى حكايـتي معـك.. كان ذلـك منـذ أربـع سـنوات.. وكانـت المحـاضرة الثانيـة.. طرَحَـتْ د. مارسـيل قبـل مغـادرة الورشـة السـؤالَ التـالي: «احـكِ لنـا عـن عمـل فيلـم أعجبـك بالصـورة الـتي كان عليهـا، ثـم أجـرِ عليـه تعديـلاتٍ تجعلـه في تقديـرك أجمـل».

- صحيح.. تذكّرتُ.. وقع اختياري ساعتَها على فيلم «الاختيار» ليوسف شاهين، ثمَّ...

- هل تحكي أنت أم أكمِل أنا؟

- طبعًا أكمِلي.. أنتِ أجمل ما في الحكاية.. لكن هل أنتِ واثقة أنّك مازلتِ تذكرين كل شيء؟

- أنا الآن لا أملِك سوى ذاكرتي وملابسي.. عُقِدتْ المحاضرة التالية في مكانٍ مفتوح.. مطعم البحيرة في «الأزهر بارك»، طلبَتْ د. مارسيل مِن كلِّ مشارك (كنّا سبعة فقط) الوقوفَ وتلاوة المشهد الأصلي الذي اختاره.. والمشهد الذي يقترح إضافته.. أعجبَني اختيارك للفيلم.. غموضك.. جرأتك في الإضافة لسيناريو «نجيب محفوظ» و«يوسف شاهين».. حين رجعتُ إلى المنزل، بقيتُ ليلتَها أفكّر طوال الليل في هذا المشهد الغريب.. لماذا اخترتَه؟ أكيد وراءك سِرّ.. طريقتك في إلقاء المشهد كانت حماسيّة جدًا.. كنتَ تمثّل المشهد وكأنه يخصّك، أو يروي جزءًا مِن حياتك الشخصية.. ثمّ مَن المجنون الذي يُعدّل على شغل «يوسف شاهين» و«الأستاذ نجيب محفوظ»؟

- يوسف شاهين كان جيّدًا.. لكنّه لم يكن المُفضّل بالنسبة لي.. وماذا كان المشهد الأصلي؟

- أتذكّر كلامَك جيدًا.. دوّنته في الـ note book الخاص بي، وأتّذكرُ وجهك وأنت تحدّق نحو البحيرة وكأنّكَ لا ترى أحدًا سوى نفسك.. أو أنك تسترجع ذكرى.

- ... في فيلم «الاختيار» عن قصة نجيب محفوظ ويوسف شاهين،

مشهد شديد الإيحاء والغموض، في منتصف الفيلم، وأثناء بروفات المسرحية التي كَتَبها بطل الفيلم «سيد الكاتب المشهور -عزت العلايلي»، وفي حضرةِ يوسف وهبي وعبدالرحمن أبو زهرة، يتابع البطل تحضيراتِ مشهد البحّار، إلا أنه يصير منفعلًا بسبب أداء عبدالرحمن أبو زهرة لمشهد صغير، كان «أبو زهرة» يجسد شخصية البحّار وكأنه playboy، شابٌ عابث.. فهو حين يعرِض على الفتاة أن يوصلها للمنزل، كان يحادثُها وكأنه يخاطبُ فتاةَ ليلٍ.. الواقع، لم يكن ذلك ما يقصِده المؤلف/بطل الفيلم. لقد غَضِبَ سيد/ المؤلف من إساءة تأويل أبو زهرة لشخصية البحّار، لأن البحّار أطهر وأشرف وأنقى مِن ذلك.

«افهم يا أبو زهرة، البحّار بسيط.. صلب.. قوّة مِن الطبيعة.. ضحكته زي المياه اللي طالعة مِن النبع الصافي.. البحّار.. يا سلام.. ده البحّار هو الحريّة نفسها (ينساب صوت موسيقى تصويرية؛ صفيرٌ غامض يصدر حين يتحرّك البحّار فوق رصيف الميناء نحو الكاميرا).. المفروض مِن أول الرواية أن البحّار راجل.. صحيح جاف ومتحرر شوية.. لكن قلبه صافي.. طيب.. أحسن فينا حاجة البحّار.. خش جواك هتلاقي البحّار.. أنت البحّار يا أبو زهرة.. أحلى حاجة فيك البحّار.. تخنقه ليه؟».

- وما الذي أعجَبَك يا يونس في هذا المشهد؟

- والله يا دكتور مارسيل.. الفيلم كلّه كان رائعًا، لكن المشهد الصارخ بالعبقرية من وجهة نظري، حين تُسلّط الكاميرا على وجه مجموعة أطفالٍ يلعبون الكرة فوق رصيف الميناء مع البحّار محمود، توأم سيد، يتوقف الأطفال عن اللعب والضحك.. ويقذِفون بالكرة إلى البحّار محمود، وكان سيد يُضمِر غيرةً قويةً

نحـو أخيـه ويتمـنى أن يكـونَ مِثلـه رغـم أنـه صعلـوكٌ فقـير، يُمسـك البحّـارُ الكـرةَ ويقـذِف بهـا نحـو الكاميرا، فيلقفهـا «سـيد» الـذي يجلـس فـوق طاولـةِ اجتماعـات واسـعة وحولـه عـشرات الموظفـين ببـذلاتٍ رسـمية، يخـبئ سـيد الكـرةَ خلـفَ ظهـره، ويضعهـا السـكرتير «سـعد أدرش» في خزينـة حديديـة.

- تمـام.. ومـا هـي التعديـلات الـتي تريـد إدخالهـا عـلى المشـهد يـا يونـس.. ليكـونَ أكـثرَ جمـالًا مِـن وجهـة نظـرِك؟

- تخيّلـتُ اللقطـة مقسَّـمةً إلى مشـهديْن؛ المشـهد الأول: سـيد يجلـس وسـطَ رجالـه، مِـن ذوي الياقـات البيـض عـلى طاولـة الاجتماعـات، وجـدران القاعـة عبـارة عـن مرايـا مصقولـة، مرايـا كثـيرة.. لا نهائيـة.. الجـدران.. السـقف.. الأرضيـة.. وهـي لا تعكـسُ صـورَ الجالسـين، وإنمـا صـورًا لوحـوش يرتـدون بـذلات، وفي المشـهد الثـاني يقتحـمُ البحّـار القاعـةَ، مُمسِـكًا بالكـرة، ثـم يركلُهـا بـكلِ قـوةٍ وجـرأة نحـو المرايـا، فتتهشـم كلّ المرايـا.. تظـلّ الكـرة، وكأنهـا واعيـةٌ قاصـدةٌ، تنتقـل مـن مِـرآةٍ لأخـرى لتكسرهـا، فتتـشظى قِطـعُ الزجاج، ويرى سـيد نفسـه آلافًـا مِـن القِطـع المبعـثرة عـلى السـجادة. ثـم تخـرجُ الكـرةُ مِـن المشـهدِ لتعـودَ إلى بـراحِ المينـاء مِـن جديـد، تُطاردهـا حدقـةُ عـين سـيد، المنعكسـة عـلى قطعـة زجـاجٍ صغـير، وكأنـه يطـاردُ وهمًـا لـن يطالـه أبـدًا.. وهـم الحقيقـة.

- أكمِلي.. هل خانتكِ الذاكرة؟

- توقّفـت الورشـة بعدهـا لمـدة أسـبوعين بسـبب سـفر د. مارسـيل إلى هولنـدا بشـكلٍ مفاجـىء، وطـوال هـذه الفـترة كنـتُ أفكّـر فيـك، ليـس أنـت شـخصيًا، عـلى الأقـلّ وقتَهـا، ولكـن في ذلـك المشـهد.. شـاهدتُ الفيلـم عـلى اليوتيـوب عـدّة مـراتٍ.. وفي كلّ مـرة كنـتُ أشـاهد الفيلـم

فيها، كنت أتخيّلك واحدًا مِن الاثنين..«سيد» البحّار أو «محمود» الكاتب المشهور، وبخيال الرسّامة.. كنت أحاول تخيّل المشهد الذي اقترحتَه ليكون الفيلم أكثر جمالًا.. شغلتني كثيرًا حكايتك.

- هل تصدقينني إذا أخبرتكِ أني نسيت!! شاهدتُ هذا الفيلم أول مرة سنة ٢٠٠٢.. كنت في السنة الثانية في كلية الإعلام.. كان أبي وأمي قد خلدا إلى النوم.. وبقيتُ أنا ويحيى نشاهد الفيلم طوال الليل، شغلتني عبارةٌ جميلة في هذا الفيلم.. كتبتُها في ورقة صغيرة وجعلتها «reading marker».. في دفترَي.

- أي عبارة؟

- «الحريّة.. كلّ الحريّة أن تكونَ عبدًا للحقيقة»، شيء مِن هذا القبيل.. لا أذكر العبارة تحديدًا..

- وهل أنت عبد الحقيقة الآن؟

- هذا مرهون بتعريفكِ للحريّة يا سارة.

- الحريّة هي الحريّة.. تعريف الحريّة يتناقض مع مفهومها.. الحريّة لا تُعرَّف.. الحريّة يُستدل بها ولا يُستدل عليها.. الحريّة تُنتَزعُ وتُمارس.. الحريّة هي أن أرسُمَ حتى أسقط على الأرضِ مِن الإعياء.. الحريّة أنْ أتسلّل إلى شقتك فَجرًا في الأوقات التي أريد الرسمَ فيها حين لا أستطيع عندما أكون وحدي.. الحريّة أن أحوّل إحدى حجراتِ شقتّك إلى «مَـرْسَمٍ»، أضع فيه ملابسي وأدواتي دون إبلاغك أو حتى دون أخْذ رأيك.. والحريّة أن أترك لقلبي وعقلي مساحةً مِن الثقة تؤكدّ أنك لن ترفض ذلك.. الحريّة أن أنامَ إلى جِوارك بملابسي الغارقة في عبقِ رائحة ألوان الزيت وتراب الفحم دون الاستحمام.. الحريّة أنَ أتركَ«هشام الحيني» بأمواله ووساخته

بـلا تفكـير في العـودة أو في المسـتقبل.. الحريّـة أن أغـيّرَ محـلّ سـكَني دون إخبـار أحـدٍ سـوى أمـي.. الحريّـة أن أظـل إلى جِـوارك وأنـت شـاردٌ عـلى الـدوامِ.. الحريّـة هـي أنـا وأنـت هكـذا.. عاريـان.. نهشّـمُ مرايـا الزمـن والمـاضي.

- أنـا آسـفة جـدًا.. تأخـرتُ عليكمـا.. مكالمـة طويلـة وسـخيفة مِـن إدارة المدرسـة الـتي أعمـل بهـا.. يطلبـون مـني قَطـع الإجـازة والعـودة صبـاح الأحـد إلى المدرسـة بسـبب اعتـذار ثـلاث مدرّسـات عـن مراقبـة الامتحانـات.

- لا على الإطلاق.. يمكننا توصيلك لو أردتِ.

- تسـلم يـا يونـس.. سـأبقى في الديـر حـتى صبـاح غـدٍ.. لا تقلقـا.. أنـا بنـتُ الديـر.

مشـينا نحـو بوابـة الديـر حـتى خرجنـا في صحبـة أمـاني. قبـل خروجنـا مِـن البوابـة سـألتُ أمـاني عـن كُشـك أو كانتـين يبيـع القهـوة، فالطريـق حـتى مـنزل والـدة سـارة في حَـي رشـدي طويـل، وأخـشى أن يغلبـني النُعـاس.

- لا تقلق.. موجود.

- تسلمي يا أماني.. هل أطلب لكِ قهوة يا سارة؟

- لا.. سأغفو قليلًا.. وأريد الاستيقاظ على ماكينة الزمن.

- صحيح.. ما حكاية هذه الماكينة التي أحضرتِها مِن القاهرة؟

- ماكينـة الزمـن يـا حُـبّي.. حـين كنـتُ في ليفربـول، رأيـت في مـنزل عمّـي اختراعًـا مذهـلًا، ماكينـة قهـوة توقِظـك وتمنحـك كوبًـا مِـن القهـوة في الوقـت نفسِـه، الماكينـة مِـن ابتـكار مصمـم بريطـاني اسـمه جـوش رينـوف.. وهـي ابتـكار لطيـف جـدًا.. تُعَـدُّ مُنبهًـا ماديًـا لأنهـا توقِـظ

الإنسان في الوقت المحدّد، ومُنبهًا معنويًا لأنها تعطيكَ الكافيين بمجرد استيقاظك.. وأنتَ في سريرك.. ما عليك سوى أن تُعطيها الأمر مِن الليلة السابقة، وتضبط المُنبّه على الساعة التي ترغب في الاستيقاظ فيها، فيدقُّ جرس المنبّه في الوقتِ المحدّد، ويصنع كوب القهوة فورَ رنين جرس التنبيه بعد أن تكون قد وضعتَ قهوتك قبل نومِك، اشتريتُ واحدةً في آخر رحلةٍ إلى ليفربول، وجلبتها معي.

- رائع.. سنجرّبها اليوم.. ولكنني أحتاج الآن فنجان قهوة.. لزوم الطريق الطويل إلى المعمورة.

مِن بعيدٍ، رأيتُ أماني تهمس في أذن حارس البوّابة الذي كان يطِل برأسه مِن نافذة كشكِ الحراسة. كانت سارة جالسةً إلى جِواري. دارت برأسها إلى اليمين باحثةً عن زرّ التحكم في وضعية المِقعد، وضغطَتْ المقعد بظهرها إلى الخلف حتى صار شِبه مستوٍ. بدت عيناها ناعستين تمامًا، فضحكتُ. لاحَت مِنها ابتسامةٌ خفيفة بعد أن لمحتُ انتفاضةً خفيفة مِن كتفيها بسبب البرودة التي بدأتْ تغزو المكان.

- هل أفتح التكييف الساخن؟

- لا.. البرودة تساعدني على النعاس.. أريد النوم قليلًا قبل الوصول للشاليه.

لم تكد تمّر دقائق حتى لمحتُ الحارس يَخرج مِن كُشك الحراسة، حامِلًا معه كوبًا بلاستيكيًا مِن القهوة ويناولني إياه مِن نافذة السيارة، قائلًا: «يسلِّم طريقك يا بيه».

- معك المفتاح يا يونس؟

- ولو لم يكن معي، سوف نعود للمبيتِ في الدير.

***

غَفَتْ سارة مثل الطفل الذي ينعسُ بمجرّد تحرّك السيارة؛ انطلقتْ بالسيارة على الطريق الساحلي الجديد. لم نخبِر أحدًا أننا سنذهب إلى شاليه أبي في المعمورة، وخاصةً «أماني». راودَ كلانا إحساسٌ أنه لا يجوز الكذب في هذا المكان النقيّ. جرعتُ فنجان القهوة في ثوانٍ، وكان لها مذاقٌ مختلِف، مذاق المنبّه، وليس المنوِّم كقهوة الشيخ نجدت المزعومة. فكّرتُ ساعتَها أنَّ وظيفة الحارس تقتضي أن يكونَ للقهوة تأثيرٌ مختلف. أعرِف أصدقاءَ تصيبهم القهوة بالنُعاس، وآخرين لا تؤثّرُ فيهم القهوة، أمّا حارس البوابة المسؤول عن الدخول والخروج فينبغي أن تكون قهوته مِن نوعٍ خاص، نوع غير قابلٍ للهزيمة. كان للقهوة التي صنعها حارس البوابة أثرٌ يشبِه الأثرَ الذي يحدِثه الدشّ البارد على رأسٍ مشغول بقضيةٍ صاخبة. هل يخلطون القهوة في الأديرة بعشبٍ سحري يُزرَع هنا لمساعدتهم على البقاء متيقظين فترةً طويلة؟ قرأتُ يومًا عن «عارفين ومتصوفيّن» كانوا يبلّلون حدقاتِ عيونهم بالمِلح كي لا يُشغَلوا عن العبادة بالنوم، ربما كان يفعل الرهبان شيئًا مشابهًا يمكّنهم مِن البقاء في حالة يقظةٍ للعبادة والصلاة داخل صوامعهم. وماذا كان يفعل البوذا كي يظل متيقظًا ومُنتبهًا طوال فترة اكتشافِه لنفسه؟ هل عَرَف البوذا قهوة الشيخ نجدتْ، التي أسقتني مِنها سارة؟ لا بدّ أنَّ هناك سِرًا.

تسليّتُ بهذه الأفكار طوال الطريق. أشارت الساعة الموجودة في تابلوه السيارة إلى السادسة والنصف، وكانت شرائح الظلام قد

غطّت السماء فوقَنا تمامًا. غمرني إحساسٌ بالملل، فسارة نائمة، ولا أريد تشغيل موسيقى كي لا أزعجها، والليل حَلَّ، والطريق طويل ومظلِم.

أثار شعور الملل مِن الطريق داخلي مشاعرَ مشابهة كانت تعتريني وأنا في طريقي إلى عملي الأول بالجريدة التي بدأتُ فيها حياتي قبل خمسِ سنوات. طالما شكوتُ لأبي مِن طول الطريق الذي كنتُ أقطعه يوميًا مِن وسط البلد حيث عملي الأول في الجريدة حتى بيتنا في مصر الجديدة، وكثيرًا ما كان ينتابني السأمُ مِن الإمساك بالكتاب أثناء الطريق، لم يكن السأم مِن القراءة نفسها، وإنما مِن الزحمة ومِن الفضول اللزج الذي كنت أراه في عيون الواقفين أو الجالسين إلى جواري في الأتوبيس، وكأنَّ متعة القراءة قد حلَّتْ فجأةً على أدمغة الجميع. كان أبي يقول إنَّ هذه الفرصة قد تكون مثاليةً للتأمل:

«تجاهلْ وجودكَ في أتوبيس مزدحم.. تجاهل الطريق الطويل.. تجاهل التفكير في سبب إصراري على عدم إعطائك سيارتي للذهاب إلى المجلة.. عليكَ أن تشتبكَ مع الدُنيا مثل الرجال.. وأن تعرفَ الناس عن قرب.. أخرِجْ رأسَكَ مِن نافذة الأتوبيس وتفحَّصْ وجوه الناس في الشارع.. تأمّل عمارات وسط البلد.. غمرة ورمسيس.. العباسية.. تأمل النطقَ والصمتَ الذي قد تقرؤه على قسمات وجوه البشر الواقفين في الشُرفات القديمة.. **كلُّ واحدٍ وواحدةٍ منهم يملكُ حكايةً ما.. والكاتب البارع -إنْ أردتَ أن تكون كاتبًا- هو مَن يستطيع فهْم منطق الصمت.. استنطِق وجوههم، وخَزِّن في ذاكرتك وجوهَ الناس المتشابهة، وتخيّلَ حكاياتِهم..**

وليكـن قلبـك مثـل الـسرّ الـذي يحـوي كلّ شيء ولا يحويـه شيء.. راقِـب الحيّـاة سرًا لمعرفـة قوانـين اللعبـة.. ثمّـة قانـون سـارٍ بخفـة في الحيـاة مثـل نسـمة الفَجـر البـاردة الـتي تفاجِـئ الجميـع، صحيـحٌ أنـه خفيـف لا تُحتمـل خفّتـه، لكنـه قانـون حـادٌ وصـارِمٌ مثـل السـيف، قـد تظـنّ يومًـا أن قوانـين اللعبـة صيغِـت صياغـةً عشـوائية مرتبكـة.. هـذا لأنّـكَ لـم تراقـب الحيـاة نفسـها، وإنمـا راقبـتَ ردَّ فعلِـكَ أنـتَ عليهـا».

- وما هو هذا القانون يا أبي؟

- لعبة الخيول الخشبية.

- ماذا؟

- لعبـة رأيتهـا في ملاهـي حديقـة اللوكسـمبورج حـين كنـتُ أزور باريس فرنسـا مع أصدقـائي.

- أصدقاؤكَ؟

- أصدقـاء لا تعرفهـم.. اللعبـة مكونـة مِـن مجموعـة خيـول خشـبية مثبّتـة فـوقَ عجلـةٍ تـدور حـول محـورٍ معـدني، وتـدورُ معهـا الخيـول، وبـدوران اللعبـة يغيـب واحـدٌ ويظهـر آخـر، هكـذا الدنيـا يظهـرُ واحـدٌ ويختفـي آخـر، بـطـلٌ يدخـل إلى خشـبة المسرح، وآخـر يغادر.. وتسـتمرّ اللعبـة حـتى تُسـدل سـتارة النهايـة.

ولمـا كـبرتُ وقـرأتُ أشـعار رايـنر ماريـا ريلكـه، ووقعـتُ في سـحر قصائـده، اكتشـفتُ قصيـدةً بالعنـوان نفسـه، قصيـدة «لُعبـة الخيـول الخشـبية»، كانـت تقـول:

«للحظـة وجـيزة.. نشـاهد قطيـع الخيـول دائـرًا تحـت سقـف في الظـلّ، وكـل الخيـول آتيـة مـن تلـك البـلاد.. الـتي تـتردّد طويـلًا قبـل

أن تغـرق».

***

بهـرَ عيـنيَّ ضـوءُ مصبـاحٍ رعّـاش يضـوي بقـوةٍ في الطريـق المقابـل القـادِم إلى السـاحل الشـمالي. كانـت سـارة قـد تكـوّرَت عـلى نفسـها فـوق المقعـد شِـبه المفـرود، ضامَّـة ركبتيهـا إلى صدرهـا، وقـد أولَـتْ وجههـا نحـوي. وددتُ القيـام بفعـلٍ طالمـا خطـر لي.. ولـمَ لا؟

«ألم تفعلها قبلَ ذلك؟».

لـم تكـن تعـوزني الشـجاعة ولا الجـرأة، بـل التركـيز لمـدّة ربـع دقيقة، خمـسٍ وعشريـن ثانيـة أتأكّـد فيهـا مِـن خلـوّ الطريـق أمامـي وخلفـي، لأخطِـف مِـن شـفتيها المضمومتـيْن بقـوّةٍ قبلـةً سريعـة. أمسـكتُ بعجلة القيـادةِ جيـدًا بيـدي اليـسرى وضبطتُ مـرآة السـيارة الخلفيـة، والمرآتيْن الجانبيتـيْن، وتأكـدّتُ مِـن خلـو الطريـق في هـذه الثـوانِي مِـن أي سـيارة. بقيـتُ مثبتًـا بـصري نحـو الأمـام.

واحد.. اثنان.. ثلاثة..

وفي غمضـة عـين، مِلـتُ بجذعـي ناحيـة اليمـين، وخطفـتُ قبلـةً سريعـةً مِـن شـفة سـارة، ومـررتُ بلسـاني في ثانيـة لأمسـح بقايـا لعـابٍ سـكريّ المـذاق سـال عـلى شـدقيها. أحسسـتُ بـبرودة شـفتي سـارة. كانـت نوافـذ السـيارة موصـدةً، ولـم يكـن في وسـعي التوقّـف كي أضـعَ المعطـف الصـوف الـذي أحمِلـه معـي فـوق كتفهـا، فأشـعلتُ جهـاز التكييـف السـاخن. «ألـنْ تسـتيقظي يـا سـارة؟».

ولِمَ لا أسترجع حكايتي معها؟

أولَ مـا لفـتَ نظـري في سـارّة كان وجههـا؛ كان عنقُهـا مثـل عنـق أولئك

الفرعونيات اللواتي نرى صورهنَّ على جدران المعابد المصرية القديمة. كانت طويلة القامة دون أن تكون نحيلة، وجهها كان مخروطيًا مثل قلب، وأذناها مثل صدفتيْن صغيرتيْن كاملتيْن، لها عينان سوداوان تحفّهما رموشٌ دقيقة، ويعلوهما حاجبان رفيعان كأنهما مرسومان بالفحم، وأنفٌ مسحوب. كان سواد عينْها مُلائمًا لسمرة بشرتها الأقرب إلى اللون الخمري الفاتح. شفّتها السفلى كانت بارزةً بروزًا خفيفًا مُنسجمًا -مِن وجهة نظري- مع بروز فكّ أسنانها العلوي، حين صافحتها أول مرةٍ اكتشفتُ أن راحة يدها كانت سمينة مع طول الأصابع. في البداية لم أكن مشدودًا إليها -كأنثى- بالرغمِ مِن جمالها الهادئ، وأسلوبها الصاخب المفعمِ بالحياة، ونقاشاتها التي كانت تنمّ عن ثقافةٍ وذوقٍ رفيعين، وهو ما لم أره فيمن قابلتُ مِن فَتَيات. ومع تقدّمنا في الورشة، بدأتُ أنتبِه إلى أسلوب حديثها وطريقة مناقشة النصوص التي ندرسها، أخذتُ أراقبها سِرًا، كانت عادة المراقبة قد نضجت داخلي واستوت تمامًا بعد سنواتٍ طويلة، وبسبب نصيحة أبي في تأمل حياة الآخرين ومراقبة تصرفاتهم، حتى صِرتُ بارعًا في تأمل الوجوه، وتحليل الشخصيات، وتخيّل الحكايات التي تَسكن صدور البشر، أو في مراقبة قانون الحياة الذي تحدّث عنه أبي.

كان والد سارة يعمل أستاذًا لجراحة العظام والعمود الفقري بكلية الطبّ بجامعة القاهرة، إلى جانب مشاركته بحصة أسهم حاكمة في أحدى المستشفيات الكبرى في المهندسين. والقصّة مكرّرة، وماسخة كما وصفَتها سارة. أبٌ ثري مشغول على الدوام، وابنةٌ وحيدةٌ، وأمٌ منكسِرة. والنتيجة إما/أو؛ إمّا فتاةٌ انطوائية، منقادة إلى أول نداءٍ مِن الطبيعة البرّية، ثائرة بدون قضيّة كما يقولون،

أو نَمِـرة متمـرّدُة ناقمـة عـلى كلّ شيء، لكـن الألـوان أنقـذَتْ سـارةَ مِـن المصيرَيـن.

لمحـتُ تمتمـة شـفتيها أكـثرَ مِـن مـرةٍ وأنـا أنقـل بـصري بـين الطريـقِ وبينهـا كلّ بضـع دقائـق. بمـاذا كانـت تحلُـم؟ مِـن بعيـدٍ لمعـتْ أنـوارٌ قويّـة وسـط تكـدّس عـددٍ مِـن السـيارات؛ كانـت بوابـات الإسـكندرية تبـدو عـلى مسـافة لا تتجـاوز مائـتَي مـتر. «لمـاذا طـال الطريـق أكـثر مِـن الـلازم.. المسـافة مِـن وادي النطـرون حـتى بوابـات الإسـكندرية لا تتجـاوز سـاعة ونصفًـا عـلى أقـصى تقديـر، هـا قـد مـرّتْ سـاعتان؟». ألسـتُ كاتبًـا؟ تخيّـلْ بمـاذا تحلُـمُ حبيبتُـكَ.

- يونـس.. صنعـتُ لنفـسي ولنفـسي عالمًـا آخـر يـا يونـس ألجـأ إليـه حـين تضيـق بِي المَراكـب.. ولكـمّ «ضيقـةٌ هـي المَراكـب».

- وما حكايتكِ مع «هشام الحيني»؟

- تقصد الأستاذ الدكتور المبجّل هشام أشرف الحيني.

- هل كان أستاذًا جامعيًا؟

- لا.. كان تلميـذًا لوالـدي.. قصـة تقليديـة مكـررة أخـرى.. أسـتاذ جامعـي يريـد تزويـج ابنتِـه مِـن تلميـذه المقـرّب حـتى يضمـن أن «البيزنِـس» سـوف يسـتمرُّ إلى مـا لا نهايـة.

- ولماذا لم يكتمل السيناريو؟

- لإنّ هشام ضبع.. وأنا أكره الضباع.

- كان جبانًا؟

- كان دنيئًا.

- ما الذي جرى؟

- أتعرف الضبع الدنيء الذي لا يهاجم إلا ليلًا؟ ولا يأكل إلا الجيف النافقة لإنه يخشى المواجهة.. كان هشام ابن العميد السابق لكلية الطب، وكان الأولَ على دفعته دون مجاملاتٍ أو غِشّ، ذكيًا، لماحًا.. قويّ الشخصية.. إلا أنَّ نهمَه للمال لم يكن ينتهي.

- المستوى الماديّ؟

- بالعكس.. كان والده صاحب أكبر معمل تحاليل طبية في مصر.. لكنّه ضبع.. دنيء.. لا يشبع، ولا ينهش إلا ليلًا.. حاولَ إقناع أبي بإجراء جميع العمليات المحظورة وغير المحظورة.. إجهاض غير قانوني.. زرع أعضاء.. كل شيء يجلب مالًا.

- لكن لا أظنّ أن والدكِ كان سيقبَل ذلك.. ألم يكن المستشفى لجراحات العمود الفقري فقط؟

- أولًا المستشفى كان يضمُّ جميع التخصصات، ثانيًا لم يكن أبي يعلم شيئًا عما يجري في المستشفى بعد أن عُيّنَ هشام عضوًا منتدبًا لمجلس إدارة المستشفى، وصار شريكًا في السجل التجاري للشركة المالِكة للمستشفى بتوصيّة مِن أبي، وصار له حق التوقيع على الشيكات.. أصبح المديرَ الحقيقي لكلّ شيء.

- هل كان والدكِ مشغولًا لهذه الدرجة بحيث لا يَعرف أي شيءٍ عما يجري في المستشفى؟

- طبعًا.. مشغول مَع طالبة امتياز تصغرني بعامَيْن، سافرَ معها إلى لندن كي تُكمِلَ الماجستير على حسابه.

- وماذا حدثَ بعدها؟

- دنيا غرورة يا يونس.. أُصيبَ أبي بالزهايمر منذ سَنة، فرَّتْ «سِتّ الحُسن» النصّابة، بعد أن أقنعته بإيداع مَبلغ ضخم باسمها في أحد

البنوك، غرقَ في الخمر، لم ينقذه سوى المستشار الطبي بالسفارة المصرية في لندن، وكان صديقًا لوالدي منذ أيام الجامعة، حين أبلَغ أحد المصريين العاملين في بارٍ شهير في وسط لندن القنصليةَ المصرية، بوجود طبيبٍ مصري مخمور يقول أنّه «أشهر طبيب جراحة عظام في مصر»، ثمّ عادَ ليعيش معنا مِن جديد، صار يلازِم شُرفة منزلنا في الطابق الأعلى، جالسًا على كرسي عتيق يراقبُ الشجر والبشر مِن بعيد.. لم يعُد يذكر أي شيء.. كان يحسبني أميّ أحيانًا، كنتُ أراه يغرق في وصلة بكاءٍ حاد يوميًا، وهو يطلب مني أنْ أسامِحه على ما اقترفه في حقّي طوال تلك الأعوام التي قضاها بعيدًا عنّا.. اقترف في حقّنا الكثير.. هجر وخيانة وإهمال.. وفي أحيان أخرى.. لم يكن يشعر بوجودِ أحدٍ على الإطلاق، إلا أنه قبل أسبوعين فقط.. عاد ليتذكّرَ بعض الأشياء، طلبَ مني ألبوم الصور الذي كانت تحتفِظ به أمي في دولاب ملابسها، صُوَرنا الفوتوغرافية في حديقة الحيوان، في حديقة الميريلاند أمام البحيرة وأنا أطعِم الإوز.. في ملاهي السندباد، كان الأسبوعان الماضيان أجملَ أيام حياتي، ما أسوأ الحياة التي تجعلنا ننتظر سنواتٍ طويلة كي نصل إلى دقائقَ معدودةٍ من السعادة.

- أكيد بَرَكة قهوة «الشيخ نجدَت».. ألم تقولي إنّه كان يعطي والِدتكِ نصائح سِريَّة؟

- طبعًا.

- والمستشفى؟

-كل سنة وأنت طيب.. كان أبي مجرّد طُعْمٍ كي يصل هشام إلى إدارته والسيطرة عليه سيطرة كاملة.. لم أعُد أهتمُّ.. تركَ لنا أبي شهادات استثمار بمَبالغَ محترمة، تكفل لي ولأمي معيشةً كريمة

لسـنواتٍ طويلـة.. يكفيـني مـا رأيـتُ يـا يونـس.

***

شَـــذرات الــصــمــت

«إنَّ فِعـل الكتابـة لا يتـمّ دون أن يــصمتَ الكاتب. فِعـلُ الكتابـة هـو أن يكـون الكاتـب خافِـتَ الصـوت، وأنْ يكتـبَ يعـني أن يهــبَ الإجابـةَ الأخيرة للآخـــر».

رولان بارت

-١-

«الروايـة هـي ثمـرة تـوهُّمٍ إنسـاني محـض، توهُـمٌ باسـتطاعته فهْـمِ الآخـر، ولكـن مـا الـذي نعرفـه نحـن بعضنـا عـن الآخـر؟»

كتاب الضحك والنسيان، ميلان كونديرا

فيلا المعمورة.. الجمعة.. ٣٠ أبريل ٢٠١٠

الواحدة بعد منتصف الليل..

تعرَّفـتُ عـلى يونـس في أواخـر أكتوبـر سـنة ٢٠٠٥. مـا ذَكَـره في دفـتره الـذي بـين يـدَيّ الآن حـوْلَ تعرّفنـا في منحـةٍ تـفـرّغٍ لكتابـة الروايـة صحيـح، ومـا قالـه حـول تـرددي إلى شـقته فـَجـرَ كلّ ليلـة في منطقـة الفسـطاط الجديـدة صحيـح. أحـداثٌ كثـيرة ذَكَرهـا يونـس في دفـتره هـي أحـداثٌ حقيقيـة، عايشـتُ بعضهـا عـن قـرب، وحـكى لي بعضهـا بنفسـه، حـتى حكايـة الصنـدوق الـذي أخـذه مِـن «وجـيـه أبـو لـوزة». أجلِـس الآن عـلى مكتـب يونـس في شـاليه والـده بالمعمـورة. وصلنـا ليلـةَ الأمـسِ. يبـدو أن التيـار الكهربـائي قـد عـاد أثنـاء نومي. اسـتيقظتُ قبـل نصـف سـاعةٍ عـلى جـرس ماكينـة القهـوة، أو ماكينـة الزمـن.

والآن ماذا بعد؟

بيننـا عهـدٌ قديـم ألا نـروي لبعضنـا سـوى الحقائـق، وحـتى الأكاذيـب الـتي كنـت أسـميها أكاذيـبَ بريئـة، لـم تكـن إلا محاولـة حَـفّ شـوارب الحقيقـة المشـعثة، والمغـبّرة بـتراب الـدروب الوعـرة الـتي سـلكناها في

حياتنا. يونس ممدّدٌ ورائي في السرير، غارقٌ في نومٍ عميقٍ منذ ساعة تقريبًا، ولا أظنّ أنه سيفيق الآن، على الأقل ليس قبل انتهائي مِن تدوين حكايتي معه كما رأيتها. وضعتُ عليه الغطاء، ورفعتُ له الوسادة، وعدتُ إلى مكتبه. قبل أن أبدأ، عليّ أن أبوحَ باعترافٍ جديرٍ بالتسجيل؛ كانت علاقة الحُب التي مارسناها بالأمسِ الأروع على الإطلاق. كان مزاجه معتدلًا، غالبًا ما يتحسّن مزاجُ الإنسان حينَ يخرجُ فائض الجمال المخزون بداخله، نَعم أسمِّي هذا فائضَ جمال، لا فائض رغبة. الكتابة الصادقة التي تَخرج إلى الأوراق هي فائض جمال، والرسم الذي يُنثَرُ على اللوحات هو فائض جمال، وعَرَقُ الهوى الذي نفرِزه معًا في أثناء علاقتنا هو فائض جمال، ومَن لا يُخرِجُ فائض الجمال الذي بداخله، يتخثّرُ ويتحول إلى حليبٍ أسود. ليس أمامي سوى إعادة كتابة حكايتنا مِن جديد.

لن أروي حكايةً مختلَقة مِن وجهة نظري؛ سأحاول تركيب الأحداث والشذرات التي دوّنها يونس في دفترٍ أسماه «لُعبة الخيول الخشبية: شذرات مِن عمل لم يكتمل»، وكان المادة الخام لمشروع الرواية التي ينبغي له (ولي أنا أيضًا) تقديمها إلى د. مارسيل فؤاد، بحلول نهاية مايو.

أرى هذا الدفترَ للمرّة الأولى، كان يونس يدوّن ملاحظاتِه أو ما يخطر بباله ونحن نتكلّم أو نأكل أو حتى في الفراش معًا داخل عقله، أو على قصاصاتٍ صغيرة بالقلم الرصاص، ثمّ يضعها في جيبه، لتتراكمَ في مكانٍ ما لم يخبِرني عنه يومًا. أمامي مباشرة، وفوق الحائط الذي يستند إليه مكتبُ يونس مرآةٌ عريضة أرى فيها وجهي وشطرًا مِن عنقي. حين بدأتُ تأمل المِرآة بدا المشهدُ

غريبًـا؛ مشـهدٌ سـينمائي بامتيـاز، يليـق بالدفـتر وبصاحبـه. يبـدو أن خيـوط الحبكـة تقـترب الآنَ مِـن بعضهـا البعـض لتنسـجَ حـولي قفصًـا ذا جـدرانٍ ناعمـة كي تجـبرني عـلى المكـوثِ فـوق المكتـب للانتهـاء مِـن روايـة يونـس، أو الشـذرات الـتي لـم تكتمـل.

أجلِـس فـوق مقعـد يونـس الخشـبي، أمـامَ دفـتره المفتـوح. تبعـدُ المـرآة عـني شـبريْن تقريبًـا. سـاقاي مرفوعتـان تحـت فخـذَيي، الأباجـورة الهالوجـين تـضيء البقعـةَ الـتي أجلِـس فيهـا ومـا ورائي، وتُـظهِرُ يونـسَ جيـدًا نائمًـا عـلى وجهـه، ضامًّـا مرفقيـه تحـت صـدره تمامًـا. صـارت البدايـة الآنَ مكتمِلـة، ولـم يتبـقَ سـوى امتـلاك الشـجاعة بـل الجسـارة للكتابـة، فمواجهـة النـاس تحتـاج إلى شـجاعة، بينمـا مواجهـة الـذات تحتـاج إلى جسـارة.

أحسسـتُ بتنميـلٍ في قصبـة سـاق قدمـي اليُـسرى الـتي كانـت تحـت الفخـذ اليمـنى فأنزلتهـا إلى الأرض محرِّكـةً مشـط قدمَـي أصابعـي. حـين فـردتُ سـاقي اليُـسرى اصطدَمَـتْ بـشيءٍ صلـب. نهضـتُ مِـن فـوقِ الكـرسي وأزحتـه إلى الـوراء قليـلًا، ثـمَّ انحنيـت أسـفل المكتـب، ووجدتـه. كان الصنـدوق الأبنـوس مَـحشورًا بـين نهايـة قائـم المكتـب الخلفـي وجـدار الغرفـة. وكان مفتوحًـا، أضأتُ كشّـافَ هاتفـي المحمول، ودنـوتُ مِـن قـاع الصنـدوق. مـددتُ يـدي، فوجـدتُ مجموعـةَ خطاباتٍ مربوطـة بـخيـط بلاسـتيك، أشـبَه بخيـوط سـتائر الخـرز الـتي صنعهـا يونـس، وعلّقَهـا في غرفتـه بشـقّة الفسـطاط، وهنـا في شـاليه المعمـورة. كانـت الخطابـات مَطويـةً بعنايـةٍ عـلى شـكل سـفينة! حللـتُ الخيـط. أعـلى الخطابـات اسـم وشـعار لشركـة باللغـة الإنجليزيـة ShaTil for Textile.

شيءٌ غريـب؟ لمـاذا يحتفِـظ بخطابـات شركـة ShaTil إلى اليـوم؟

المفترَض أنّه تشاجرَ مع صاحبتها ولم يتقاضَ أجره، كما حكى لي؟ خشيتُ مِن فقدان مسار السرد أو نسيان بعض الأحداث، فأرجأتُ قراءة الخطابات إلى ما بعد كتابة قراءة دفتر يونس، وطويتها إلى جِواري فوق سطح المكتب.

عُدْتُ إلى الدفتر مِن جديد. كان الدفتر عبارة عن كشكول سِلك مِن القطع المتوسط، يتألف مِن مئة وعشرين ورقة. وكان الغلاف الأصلي قد أزيل، واستُبْدِل بغلافيْن مِن الكرتون البنفسجي المقوَّى؛ أمامي وخلفي. مَرَرْتُ بأناملي على سطحِ الغُلاف، فتنبّهتُ إلى أنَّ عملية الاستبدال صُنِعَتْ بحرفيةٍ عالية، ارتبتُ معها في احتمال وجود مَصنع كشاكيل يصنع هذه الأغلفة بتلك الدرجة مِن الجودة.

كُتِبَ أعلى الغلاف البنفسجي بخطٍ أسودَ ثخين: «لُعبة الخيول الخشبية: شذرات مِن عمل لم يكتمل».

بتقليب أوراق الدفتر تقليبًا عشوائيًا، لاحظتُ أنَّ يونس كانت يكتب على الصفحة اليسرى وحدها، تاركًا الصفحة اليُمنى فارغةً! لم أفهم في البداية السرَّ، هل كانت الصفحة اليسرى هي مسوّدة الصفحة اليمنى؟ مضيتُ في تقليب أوراقَ الدفترِ، فاكتشفت أنَّ جميعها يسير على المنوال نفسِه، الأوراق اليسرى مسوَّدة، واليمنى بيض. ألمْ يجد يونس مشهدًا واحدًا في الرواية التي يكتبها، يرضَى عنه تمامًا، بحيث ينقله إلى الورقة اليُمنى حيث الأفكار أو المَشاهد أو الحوارات النهائية، أو التي استقرَّ عليها، على الأقل؟

كان نسيمُ هواء البحرِ البارِد يخدر رأسي، ويعيد تدوير الأفكارَ داخلها أيضًا. فكرتُ في احتماليْن، الأول أنّ الأفكار كانت لا تزال مضطربّة في ذهن يونس، أو على الأقل لم تختمِرْ لتصيرَ قوامًا

ناضجًا ذا رأسٍ وقدميْن، والاحتمال الثاني أنَّ يونس كان ينتظرُ أحدًا ما، ليأتي في يومٍ ويعيد تركيب قصّته وكتابتها مِن جديد، أي أنْ يقرأ ما كَتبَه، ويعيد حكْيَ المَشاهد والشذرات التي خطّها في الصفحات اليسرى، فيكمل الناقص، ويسدّ ثغرات الحكاية غير المُكتملة. ولكنني إذا مشيتُ وراء الاحتمال الثاني، فهذا يعني أنّه كان يقصد شخصًا بعينه، شخصًا مقرّبًا مِنه، يعرِف ما جرى على وجه الدقّة. والاحتمال الثالث هو أن يكون يونس قد دوَّن القصّة الكاملة في الدفتر الثاني الذي أعطاه لوالده بالأمسِ، ربما أعطاه الدفترَ الأكثرَ اكتمالًا، الدفترَ الذي كان يسطر فيه يونس الصفحةَ ذاتها والمشهدَ نفسه بعد دقائقَ مِن تدوينه للمرّة الأولى، بعد أن يكون قد أضاف إلى المشهد تفاصيل تُكمِلُ الصورة. وهذا هو الاحتمال الأقرب إلى الصحّة.

ما قرأته في هذا الدفتر لم يَخرج عن الخطّيْن التالييْن:

١- سرد وقائع حكاية وجيه أبو لوزة سردًا تفصيليًا.

٢- مقاطع وشذرات مِن حياة وجيه وعلاقته بأبيه ومشاهد مِن الطفولة.

لم تستغرق قراءة الدفترِ وقتًا طويلًا. بعد أن أنهيت القراءة، نما بداخلي احتمال أنْ يكون يونس قد دوَّن الروايةَ الكاملة بكلّ تفاصيلها في دفتره الثاني الذي أعطاه لأبيه، وهو ما يؤكده كلام يونس، أنَّ الذاكرة الثانية مثل قطعة الطين المقذوفة إلى أتون النار كي تنضجَ وتقوَى، لتصيرَ جزءًا مِن نسيج حياة صاحبها. العجيب أنَّه لم يطلعني على دفتره قَط. هل معنى ذلك أنني لم أكن الشخصَ المقصود؟ مضيتُ في قراءة أوراق الدفتر. التهمتُ الصفحاتِ في ساعةٍ، لم أقُم خلالها وكأنني في امتحان مصيري.

بعـد انتهـائي مِـن القـراءة، صرتُ أفهـم بشـكل أكـثرَ عمقًـا مـا كانـت د. مارسـيل فـؤاد تحـاول أن تقولـه في محـاضرات منحـة التفـرّغ لكتابـة الروايـة؛ حقيقـة أنَّ الإنسـان لا يكتشـفُ ذاتـه في أثنـاء الكتابـة فقـط، بـل يعيـد تشـكيلها أيضًـا، وأن الكتابـة هـي محاولـة لإزالـة سـوء تفاهـم أزليّ بـين النطـق والصمـت.

***

الثالثة والنصف بعد منتصف الليل

أمامـي أربـع سـاعاتٍ عـلى الأكـثر حـتى يسـتيقظ يونـس. تعـودتُ عـلى اسـتيقاظه في الثامنـة صباحًـا. لـم أجِـد أمامـي بُـدًّا مِـن الصـبر عـلى الكتابـة، كتابـة حكايـة يونـس كمـا عايشـتها معـه؛ الحكايـة الـتي كان يقصّهـا عـليّ حـين يـشرب أكـثرَ مِـن ثلاثـة فناجـين قهـوة مِـن برطمـان الشـيخ نجـدَت، بعـد أن يكـون قـد مزَجَهـا بالكونيـاك الأرمـني المعتّـق، الـذي كان يحتفـظُ بـه في شـقّة الفسـطاط الجديـدة.

الصبر على الكتابة أم الصبر على الحياة؟

أليـسَ الصـبر عـلى الكتابـة هـو الصـبر عـلى الحيـاة نفسـها؟ أليسـت الكلمـات التي تَخـرج مِنا، بشِـقّ الأنفس، مُـرتبكةً، ومـتردّدة، وشـعثاء مغـبّرة، وشـقاؤنا في ترتيبهـا عـلى الأوراق، ثـمّ الرغبـة في تمزيـق كل مـا كتبنـا، أليـس ذلـك كلّـه محـاكاةً لاشـتباكنا مـع الحيـاة كي نفهمَهـا ونَخبرهـا جيـدًا؟

أليسـت الأفـكار الـتي تجبرنـا عـلى الانكفـاء لتدوينهـا، فتـفـلت منـا بمجـرد الجلـوس إلى المكتـب، وحـين نلاحقهـا تتـلاشى في الهـواء مثـل دخـان سـيجارة، أليسـت هـي ذاتهـا -في مراوغتهـا وهروبهـا

المتواصـل- لحظـات الزمـن المفقـود الـتي نحـاول اسـتعادتها، ولا نقـدر؟

وهـل تمحـو حكايـةٌ حكايـةً أخـرى؟ هـل تفـرِضُ كلمـاتِ الـتي سـأخطّها الآن في دفـتر يونـس نفسِـه حقيقـةً جديـدة، تسـتبدلُ الحقائـق الـتي ذكَرَهـا يونـس في أوراقـه بحقائـقَ أخـرى؟ هـل تـمحـو حكايـتي حكايتَـه؟ مـا المحـو ومـا الإثبـات؟ إلى أي مـدًى تكـون الكلمـات الجديـدة، تلـك الـتي يكتبهـا الحـاضر بجسـده، أقـوى مِـن الكلمـات الـتي سـبقَ أنْ خطَّهـا الغائـب؟

في البـدء كانـت الكلمـة، وفي النهايـة سـتكون الكلمـة.. ولكـن.. كلمـةُ مَـن؟ كلمـة الحـاضِر بجسـده، أم الغائـب بعقلـه، هـذا إذا أسـمينا حضـوري الجسـدي، وملامسـتي لدفـتر يونـس وأوراقـه، حـتى الفارغـة منهـا حضـورًا حقيقيًـا؟ أليـس يونـس حـاضرًا حـتى في نومِـه؟ إذا افترضنـا ذلـك، فالنتيجـة أنَّ الغائـبَ يتحـدثُ عنـه الجميـع، والحـاضر لا يمكـن الحديـث عنـه أبـدًا. يونـس هـو الحـاضر، وأنـا الغائبـة رغـم أنـني أنـا مَـن أكتـب الآن، أو سـوف أكتـب الآن قصـةً أخـرى، تشـتبِك مـع قصّـة يونـس، أو تُكمِلهـا، أو تزيدهـا غموضًـا.

هـل كان يونـس ينتظـر غيـاب ذاتـه، كي أظهـر أنـا وأكمِـل الحكايـة؟ مِن السـهل الانتظـار بضـع سـاعاتٍ حتى يسـتيقظ، ولكـن قانون اللعبـة التي حـكى عنهـا والـد يونـس في آخـر صفحـات دفتره،ينـصّ عـلى أنّ قانـون الحيـاة هـو قانـون لعبـة الخيـول الخشـبية؛ الخيـول الـتي تـدور فـوق عجلـةٍ فيظهـر واحـدٌ ويختفـي آخـر، ومِـن أجـلِ إنفـاذ قانـون اللعبـة، ينبغـى أن تَظهـر المُهـرة في المشـهد، إذا غـاب الحصـان الجامـح، حـتى تُـغـلَـق الدائـرة، وتنهـي اللعبـة، أو تنتهـي الروايـة.

لـم يُطاوعـني القلـم، وكأنَّ يـدي قـد أصابهـا شـلل. بقيـتُ هكـذا

لمـدة نصـف سـاعة، خشـيتُ مِـن فـوات الوقـت، ومِـن اسـتيقاظ يونـس في أيّ لحظـة. تذكّـرتُ كلمـة العرّافـة المغربيـة حـين قـرأتْ لي، ولأمـاني الطالـع، الأسـبوعَ قبـل المـاضي، حـين التقينـا في مقهـى الزمالـك، وقالـت لي: «احتفِظـي لنفسـكِ بـشيء.. تعرفـين بـه كلّ شيء».

***

-٢-

«هناك ذكريات يرفض الإنسان حتى أنْ يعترفَ بها لنفسه»

دوستوفسكي

اعتادتْ الدكتورة مارسيل، مُدرّبة ورشة الكتابة، أنْ تبدأ جلساتِ الورشة بعبارةٍ ثابتة، لا تغيّرها. وكأنّها تحاول تحفيز ذاكرتنا، لنُخرِج ما فيها ونشرع في الكتابة. كانت عبارة لروائيّ ألماني تقول: «الذاكرة تحِبُّ أن تلعب لعبة الاستغماية، أنْ تَفر مبتعِدةً، لأنها تُريدك أن تبحث عنها». كانت تقول إنَّ الذاكرة مُغويّة، مثلها مثل بَصَلةٍ تُقشَّر كي نتمكن مِن قراءة ما عُرِّيَ مِن حقيقتنا، وتحت قشرة البَصَلة، تختبئ الذاكرة الجافّة والمتشققة، لكننا نعثر تحتَها على طبقةٍ أخرى أكثر رطوبةً، ما إنْ تُزال حتى تكشِف عن طبقةٍ ثالثة، تحتَها طبقة رابعة وخامسة تنظران هامسَتَيْن. وكل قشرة تنضح بكلمات طال كتمانها أكثر مما ينبغي. كان الأمرُ كذلك عند يونس. بَصَلةٌ متعددة القشور، وكلّ قِشرةٍ تنضح بكلماتٍ طال كِتمانها أكثر مما ينبغي. في أثناءَ الكتابة لا نكتبُ تفاصيل حياتنا، بل نكتشفها. ليس أمامي سوى النظرِ إلى ما تركه لي يونس مِن حكايات؛ حكاية وجيه أبو لوزة برواية يونس، والشذرات القصيرة التي دوّنها يونس في دفتره. ومهما فعلتُ، ومهما حاولتُ، لن أستطيع كشفَ أيّ الحكايتيْن صادقة، وأيهما كاذبة.

ضبطتُ آلة الزمن على الساعة السادسة صباحًا ووضعتُ كوب القهوة، خشيتُ أن تأخذني قصّة يونس، ولا أكمل تدوين حكايتي معه.

كان ليونس أخٌ يصغره بسنتيْن تقريبًا. اسمه يحيى. لم يُخبرني عنه يونس شيئًا إلا حينما كان يُفرِط في الشراب. كان يونس شديدَ التعلّق بأخيه، وكان يحيى أيضًا مُتعلّقًا بيونس بالدرجة نفسها. عاش يونس سنواتٍ طويلة مع أسرتِه في الخليج، وكان التنقّل المستمرّ سببًا أدعى لأن تقوَى الصداقة بين الأخويْن، فحين يتبدّل الأصدقاء كل سَنةٍ أو سنتيْن، لاتبقى سوى علاقة الأخوّة.

كانا ينامان في الغرفة ذاتها، ويلعبان باللعَبِ ذاتها، ونظرًا لتقاربِ السنّ بينهما، تكوّنتْ علاقة أشبَه بعلاقة التوأم المتطابق، حيث يكون كلّ توأمٍ صورةً مرآويةً لشقيقه، حتى في ارتداء الملابس. حكى لي يونس حكاياتٍ عديدةً حول علاقته بأخيه. لم يبقَ منها في ذاكرتي سوى «قصة سرقة مكعبّات السكّر النبات»، حين كانت تعيش أسرته في «السعودية»، وكانا يقودان دراجتَيهما إلى محل بيع حلويات، مملوكٍ لتاجر «يمَني»، وكان الرجل يتركُ المحلَّ مفتوحًا أثناء صلاة الظهر، فيتسلّل الشقيقان إلى داخل المحل لسرقة «مكعبات السكّر النبات»، ثمُّ يهربان بسرعةٍ قبل أن يأتي صاحب المحل مِن صلاته. لم يكن يونس يحِبُّ السرقة، لكنّه كان يطيعُ أخاه بدافع الحب، كان يخشى إغضابَ أخيه الأصغرِ، فكان يعاونه على السرقة. وفي يومٍ سَرَق «يحيى» كميّة كبيرة مِن مكعبات السكّر النبات، وخبّأها داخل حقيبة بلاستيك وعلّقها في دراجته، ثمَّ عادا إلى حديقة المنزل الذي كانا يسكنانه. فكّرَ يحيى في حيلةٍ لتخبئة مكعبات السكّر، فلفّها داخل أوراق جرائد، ووضعها داخل حفرةٍ إلى

جـوارِ شـجرة صـدأ كبـيرة.

ولمّـا عـادا في اليـوم التـالي كان النمـل قـد أتى عـلى مكعبـات السـكّر كلّهـا، فـراح يـحـــيى يبـكي بحرقـةٍ، أذابـتْ قلـب أخيـه. لـم يُطِـق يونـس رؤيـة دمـوع يـحـــيى، فحمـل بقايـا مكعبـات السـكّر الـتي كانـت أشـبَه بجُحـــرٍ مملـوءٍ بالنمـل. أخـذ النمـل يجـري وينتـشر بسرعـة فـوق ذراع يونـس حـتى مـلأ أذنَـه، لكنـه لـم يبـالِ. ركـضَ بسرعـةٍ نحـو صنبـور الحديقـة. فتـحَ المـاء، وأخـذ يغسـل مكعبـاتِ السـكّر بالمـاء، لكـن مـا تبقّـى مِنهـا كان قـد ذاب وتحلّـلَ مـع انهمـار المـاء الغزيـر مِـن الصنبور، ومـع انهمـار دمـوع يحـيى.

راح يونـس يُقنِـع شقـيقـــه أنَّـــه سيـــدّخِرُ مصروفـه الشـخصي لمـدة شـهرٍ كامـل، ليشـتري بـه «سّـكر نبـات»، لكـنّ يـحـــيى لـم يتوقّـفْ عـن البـكاء، فاسـتقلَّ يونـس دراجتـه إلى محـلِ تاجـر الحلويـات اليمَـني، وانتظـرَ حـتى موعـد أذان صـلاة العـصر، وتسـلّلَ إلى داخـل المحـل، وراح يمـلأ جيوبـه بمكعبـات السـكّر. لكنّـه فوجـئ بصاحـبِ المحـل يَخـرج إليـه مِـن غرفـةٍ جانبيـة كان يصـلّي داخلهـا، فأمسـكَ برقبـة يونـس، وعنّفـه تعنيفًـا شـديدًا، وأصرَّ عـلى اصطحابـه لمنزلـه لإخبـار أهلـه. نـال يونـس عقابًـا قاسـيًا عـلى فِعلتـه. ربـطَ الأبُ قدمَـي يونـسٍ بحبـلٍ إلى طاولـة السـفرة، وظـلَّ يونـس جالسًـا القرفصـاء طـوال الليـل، حـتى حَـلَّ الأبُ وثاقـه قبـل ذهابـه إلى العمـلِ في الصبـاح.

لـم يحـكِ يونـس أي شيءٍ عـن ردّ فِعـل أمّـه. كل مـا ذكـره، أنّهـا لـم تضـع لقمـة خـبزٍ واحـدةٍ في جوفهـا لمـدة أسـبوعٍ كامـل. بحسـب كلام يونـس، لا أوراقـه، كان طمـوح «يـحـــيى» أن يكـون «بحـارًا»، مـارسَ – منـذ صغـره- رياضـة السـباحة وصـار بطـلًا فيهـا، وتفـوَّق في الألعـاب البدنيـة الصعبـة، حتى صـار قـويَّ البِنيـة بشـكلٍ لافـت، تمـنّى يحـيى

دخـولَ الكليـة البحريـة بعـد نجاحـه في الثانويـة العامّـة بمجمـوعٍ يؤهله لدخولهـا، واجتـازَ بنجـاحٍ لافـتٍ، اختبـاراتِ اللياقـة البدنيـة وكَشْـف القبـول، إلا أنّـه سَـحبَ أوراقـه مِـن الكليـة في اللحظـة الأخـيرة.

التحـق يحـيى بعـد ذلـك بكليّـة لا تتناسـب مـع مجموعـه الكبـير في الثانويـة العامّـة، كليـة التجـارة، وتعمّـدَ الرسـوب، كأنّـه يعاقـب أبويْـه. تكّـررَ رسـوب يحـيى عـدة مـراتٍ عديـدة. تخـرّجَ في الكليـة بعـد سـبع سـنوات. وبعـد التخـرّج اتجـه إلى الموسـيقى، والعـزف عـلى الدرامـز، ثـمَّ كـوَّن فِرقـةً موسـيقية مِـن فِـرق الـــ underground، لكنّـه لـم يصـادف نجاحًـا كبـيرًا. جـرّبَ عديـدًا مِـن الوظائـف بعـدَ تخرّجـه في كليـة التجـارة، ولـم يسـتمرّ في أي وظيفـة أكـثر مِـن سـنةٍ واحـدة، فقـرّرَ البقاء في البيـتِ حـتى تـأتي الفرصـة الملائمـة، الـتي لـم تـأتِ أبـدًا. فتحـولَ إلى شـخصٍ شـديد الانطوائيـة، والعدوانيـة أيضًـا. كان دائـمَ الشـجار مـع الجميـع، مِـن أمّـه وأبيـه حـتى «أم عصـام» الـتي تـأتي لتنظيـف المـنزل. أذكـر الآن يونـس حـين روى لي ذلـك وهـو نائـمٌ فـوق صـدري عـلى الفوتيـه الأزرق الضخـم في شـقته، شـاخصًا ببـصره إلى سـتارة الخـرز الـتي وضعهـا عـلى مدخـل غرفـة النـوم:

«كان يحـــيى يقـول لي.. كلّهـم لصـوص.. يريدونـني أن أصـيرَ مثلهم.. شركـة التأمـين عـلى الحيـاة الـتي أعمـل لهـا، يأخـذ المديـر مرتّـب عـشرة آلاف جنيـه، بخـلاف العمـولات والسـيارة، ويرفـض أن يحـدد لي راتبًـا ثابتًـا، أطـوف عـلى قدمَـي يوميًـا عـشر سـاعات، لإبـرام بوليصـة تأمـين، فأنجـحُ في واحـدة، وأخفِـقُ في مئـة بوليصـة، يضربـون لي مواعيـدَ، وأنتظـرُ بالسـاعات، ولا أحـد يـأتي.. إهانـة مـا بعدهـا إهانـة.. أنـا إنسـان نظيـف يـا يونـس.. وسـأبقى هكـذا.. حـتى لـو بقيـتُ عمـري كلّـه في غرفـتي».

إنّكِ لم تعرفي يحيى يا سارة.. وهل هناك أطهرُ ولا أنقى مِن يحيى.

ياااه يا سارة.. يحيى بحّار.. بسيطٌ وصلب.. يحيى قوّةٌ مِن الطبيعة.. ضحكته مثل الماء المتفجّر مِن النبع الصافي.. يحيى.. يا سلام.. ده يحيى هو الحريّة.. صحيحٌ هو جافٌ ومتحرر قليلًا.. لكن قلبه صافي.. أحسن حاجة فينا البحّار يا سارة.. أحسن حاجة فينا البحّار.. ليه نخنقه.. ليه؟؟

***

في تلك السنوات كان يونس قد عمِل بالفعل في أكثرِ مِن جريدة، وبسبب إتقانه لُغتيْن نال فرصةً للعمل في إحدى وكالات الأنباء في القاهرة، كان يحقّق دخلًا جيدًا، وكان نجمه داخل العائلة يسطع يومًا بعد يوم. في مرّات كثيرة، كان يونس يطلبُ مني الجلوس مضطجعةً على السرير، ويضعُ رأسه على فخذي الأيمن، ويشرب كأسًا أو كأسيْن، ويبوح بما في صدره:

- آه.. لو عاد الزمن يا ابن أمي، لقطعتُ يدي قبل أن أدفعكَ إلى هذا المصير.. أنا من سحبتُ ملفّك من الكلية البحرية. وصل يحيى إلى مرحلة كان يدخّن فيها ثلاث عُلب سجائر يوميًا، ولم يكن يغادر حجرته إلا نادرًا. وكان الدخان يعبق الغرفة، ويتسلّل يوميًا عبر فتحة القفل ليسوَّدَ المنزل بأكمله. لم يكن يفارق حجرته سوى لدخول الحمّام، أو بهدف التسلّل إلى المطبخ خفيةً، ليخطفَ أي لقمة طعامٍ في الظلام مثل قطٍّ مذعور. كان يخشى أن يراه أحدٌ وهو يتناول الطعام، لأنّه لم يكن ينفِق جنيهًا في البيت، وكان مصدر دخله الوحيد فوائد شهادات الاستثمار التي وضعتها

أمـي باسـمه في حسـاب بنـكي مسـتقلّ بعـد وفـاة جـدّي، وأيلولـة الميراث إليها بعـد تنـازل خـالي فهمـي. كانـت أمـي حريصـةٌ عـلى أنْ ينفـق يـحـــيى عـلى نفسـه كيفمـا يشـاء دون أن تُجـرحَ كرامتـه.

بـاءت محـاولات أخـي بالفشـل لإعـادة إحيـاء مـشروع فـرقتـه الموسـيقية، وبـدأ أعضـاء الفِرقـة في الانسـحاب واحـدًا وراء الآخـر؛ انـصرف أغلبهـم عـن الموسـيقى والعـزف لأسـباب تتعلّـق بالهجـرة خـارج مـصر، وبالجـدوى الاقتصاديـة للمـشروع. حاولـت أمـي كثـيرًا تحريـر يـحـــيى مِـن طـوق العزلـة الـذي فرضـه حول نفسـه، مـرّة بالمال ومـرّات بالنقـاش الهـادئ والحـوار، لكنهـا لـم تنجـح قَـط. كان اليـأس قـد اسـتولى عـلى قلـب يحـيى وروحـه، فقطـع كل الخيـوط الـتي تربطـه مـع العالـم الخارجـي، فانعـزل في غرفتـه، مُسـدلًا سـتائر معتمـة عـلى حياتـه.

في تلـك الفـترة، كنـتُ لا أزال أعيـش مـع والـديّ، بعـدَ أن خصصـتُ لنفـسي غرفـةً مسـتقلّة في الطابـق الأرضي مِـن المـنزل. رفـض أبي العيـش فيـه كيـلا يـترك شرفتـه، رغـم صعوبـة ارتقـاء درجـات السـلّم بسـبب جراحـة العمـود الفقـري الـتي أُجرِيـتْ لـه، ورفـضَ يـحـــيى العيـش فيها بسـبب ضعـف شـبكة الإنترنـت. سـحَـبَـتْ الشـهور في ذيلهـا سـنوات خيبـة طويلـة، زادتْ مـن عُمـق الهـوّةِ؛ لا بيـني وبـين يحـيى فحسـب، بـل بـين يـحـــيى وأبي وأمـي، رغـم أنّـه كان يعيـش عـلى بعـدِ خطـواتٍ مِـن حجـرة نومهمـا. وقتهـا، كنـتُ غارقًـا في أعمـال الترجمـة التحريريـة الحـرّة لتحقيـق اكتفـاءٍ مـاديّ، بعيـدًا عـن أبي حـتى التحقـتُ بوكالـة أنبـاءٍ عربيـة أوائـل سـنة ٢٠٠٨.

كان مِـن الطبيعـي، والحـال هكـذا، أن تـزداد شـكوى أمـي مِـن قسـوة يحـيى وسـوء معاملتـه، في الأوقـات القليلـة الـتي كان يَخـرجُ فيهـا مِـن

غرفتـه لدخـول دورة الميـاه، أو للخـروج مِـن المـنزل لـشراء السـجائر، كانـت تـراه ويراهـا، العـين في العـين، إلا أنّـه كان يشـيحُ بوجهـه كأنّهـا شـيطان. بينمـا اكتفـى أبي بملازمـة الشُرفـة، محدّقًـا في شـجرة الصـدأ العجـوز الـتي كانـت فروعهـا الشـائكة تتسـع وتتمـدّد كل يـوم.

ومـا كانـت أمـي لتلقِـي بـالًا، لا إلى شـجرة الصـدأ ولا إلى مـا وراءهـا، كانـت تبـثُّ همهـا إلى مقـام «السـيدة نفيسـة» حـين تلقاهـا كلّ سـنة، ولـم يكـن بالهـا سـوى ولدهـا، يحـيى، الـذي كان يتحـاشى النظـرَ إليهـا. لـم أنـسَ يومًـا يـا سـارة كلامهـا:

- «أصعـب إحسـاس يـا ابـني.. إن ابـن بطنـك.. الـذي أطعمته وسـقيته مِـن دمـي، يلفظـني هكذا مثـل...».

- وأنـا أيضًـا أحِـسُّ بذنـبٍ كبـير تجـاه أخـي.. لا يفارقـني ذنـب أنـني كنـتُ وراءكِ، ووراء أبي لرفـض التحاقـه بالكليـة البحريـة.

- لا يـا ابـني.. لـم أكـن سـأترك أخـاك يلتحـقُ بالكليـة الـتي تـوفيَ جـدّكَ بسـببها.. صحيـحٌ أنَّ جـدّكَ مـات بطـلًا وشـهيدًا.. لكنّـه مـات في البحر.. ليـسَ لـديَّ سـواكِما.. «يبقـى ابـني عـلى كتفـي وأروح أدوّر عليـه».. ليـسَ ذنبـكَ.. إنْ كان أحـدٌ مذنبًـا.. أتحمّـلُ الـوزر كلّـه.

- ومـاذا عـني؟ أنـا الـذي سـحبتُ بيـدي ملـف يحيى مِـن الكليـة البحرية بعـد حديثـكِ الهاتفـي مـع مديـر الكليـة الـذي كان يعمـلُ تحـتَ قيـادة جـدي لسـنواتٍ طويلـة.. أشـعرُ أنـني كنـتُ قـادرًا عـلى فعـل شيء.. أي شيء.. عـلى الأقـل.. ألا أمـلأ دمـاغ أبي بالـكلام عـن خطـورة التحـاق يحـيى بالكليـة.. الذنـب ذنـبي أيضًـا.. أشـعرُ أنـني فقـدتُ يحـيى إلى الأبـد.. أنـا مـنْ خنقـتُ البحّـار يـا أمـي.

***

أثناء عمله بوكالة الأنباء، تعرّفَ يونس إلى سيدة أعمالٍ مصرية، تعمل في استيراد الملابس الجاهزة، اسمها شهيرة التِلاوي. كانت تمتلك وتدير سلسلة محلّات شهيرة في مصر الجديدة. بدأ التعارف حين تردّدت هذه السيدة على أخيها، المدير الإقليمي لوكالة الأنباء التي التحق يونس بها منذ سنتيْن.

كانت السيدة قد توسّعت في تجارتها، وأسّستْ فرعًا لسلسلة محلاتها في مدينة فيسبادن الألمانية، وكانت تبحث في هذا الوقت عن مترجمٍ فوري بأجرٍ يقلّ عن أجرِ مثيله في ألمانيا، ليرافقها هي وزوجها في رحلات العمل، للقيام بأعمال الترجمة الشفهية في مكتب الموثّق، وفي ترجمة المراسلات مع المستشار الضريبي للمحل، وفي ترجمة عقود إيجار المحل والمخازن، واتفاقيات التوريد، ومراسلاتها مع العملاء في أنحاء ألمانيا، باختصار كانت تبحث عن مترجم ومساعِد لمدّة شهرٍ كامل. طلبتْ مِن أخيها، مدير وكالة الأنباء، أن يُرشِّح لها شخصًا موثوقًا، يجيد اللغة الألمانية. فرشّح مدير الوكالة يونس، على اعتبار أنّه مترجمٌ مِن الإنجليزية والألمانية. وكان يونس قد حكى لمدير الوكالة عن زيارته لألمانيا عدّة مراتٍ، وإقامته مع خاله قرابةَ سنةٍ كاملة على مدار فتراتٍ متقطعة.

رنَّ جرس منبّه الآلة، مُعلنًا السادسة صباحًا، وبالتوازي امتلأ كوب القهوة، وفاحَت رائحتها النفّاذة، حتى أني خشيتُ أن توقظ رائحتها يونس. ببصرٍ مصوّبٍ نحو الدفتر، مددتُ يدِي اليُمنى لأرفع كوب القهوة، فاصطدَمت كفِّي بالرسائل التي تركتُها دون قراءة.

تذكّرتُ كلام يونس عن عادته في كتابة رسائلَ إلى والديه حين كان يزور خاله في هامبورج. قال إنّه اعتاد على هذه الطريقة القديمة

في المراسلة، وتحديدًا بناءً على طلبٍ مِن أمّه، التي كانت ترى أنَّ الرسائل المكتوبة بخطٍّ اليدّ هي الرسائل الحقيقية، هي أكبر دليلٍ على وجوده على قيد الحياة، وأنَّ التواصل عبْر البريد الإلكتروني لا يعدُّ بالنسبة لها برهانًا على كون ابنِها بصحةٍ جيّدة، أو أنَّه يأكل جيدًا، أو أنّه سعيد بعمله. ولم يكن التليفون هو الوسيلة الفضلى بالتأكيد للتواصل بالساعاتٍ بين أمٍّ وابنِها. كانت والدة يونس تعرِف أحواله كلّها مِن مجرد قراءة خطِّه.

فتحتُ الرسالة الأولى، وشرعتُ في القراءة:

«فيسبادن.. السبت.. ٢٣ أغسطس ٢٠٠٨

أمي الحبيبة.. أبي.. يحيى.. أنا بخير وصحّة.. اليوم إجازة.. الأمور تسير بشكلٍ جيّد. أولًا.. اعذروني.. نفدَتْ الأوراق البيض كلّها، ولم أجد ورقًا مناسبًا لكتابة الرسائل؛ المحلّات مغلقةٌ اليوم.. فأخذتُ بضع ورقاتٍ بيض مِن ورق المخاطبات الرسمية لسيدة الأعمال التي أعمل لصالحها (وليس عندها.. هناك فرق). في اليوم الأول لوصولي إلى فيسبادن، اعتذرَتْ مدام شهيرة التلّاوي، عن عدم تخصيص إقامةٍ بأحد الفنادق القريبة، لأن هذا الشهر هو موسم الذروة high season على حدّ تعبيرها، وقالتْ إنّها ستمنحني حجرةً كانت مخصّصة لجليسة طفليها: كريم وهانيا، كِدتُ أستشيط غضبًا حين سمعتُ هذه العبارة.. شقة جليسة الأطفال!! لكن لم يكن أمامي سوى الصبر، كنتُ أمام أمرٍ واقع، وحين فتحتُ باب الغرفة.. لم أصدّقْ ما رأيت، كانت الحجرة أشبَه بجناح داخل قصر.. فخامة وأبّهة.. أثاث فندقي، للشقّة ثلاث غرف، وحمّامان، وشُرفة واسعة تطلُّ على شارع Wilhelm Strasse.. أشهر شوارع فيسبادن، سيدات الأعمال في مصر هذه الأيام أشبَه بأميرات الأسرة

العلويـة.. المهـمّ.. أعمـلُ عـشر سـاعات يوميًـا.. آكل جيـدًا.. ولا أعـرف إن كان ثمّـة وقـت قـد يتوفّـر لي لـشراء بعـض الهدايـا.. أفكّـر في زيـارة خـالي «فهمـي».. لكـن المسـافة مِـن فيسـبادن إلى «هامبـورج» بعيـدة، سـتكلّفني ثـروة إذ اسـتقللتُ قطـارًا.. الأسـهل أنْ يـأتي هـو لزيـارتي.. ومـا أخبـار يـحـــيى؟ بالطبـع لا جديـد تحـتَ الشـمس.. أعـرفُ أنـني لـم أسـافر سـوى بضعـة أيـام.. لكنـني أحِـسّ بوحشـةٍ غريبـة لـم أشـعر بهـا مِـن قبـل، رغـم أنـني كنـتُ أقـضي فيمـا مـضى ثلاثـة أشـهرٍ كاملـة عنـد خـالي.. وحشـتيني يـا أمـي جـدًا.. وأبي أيضًـا.. وأنـت يـا يـحـــيى إنْ رقَّ قلبـكَ عـلى أخيـكَ وقـرأتَ الرسـالة.

يونس..

الرسالة الثانية:

فيسبادن الأحد..٣١ أغسطس ٢٠٠٨

«أمـي.. لـم يصلـني ردٌّ عـلى رسـالتي السـابقة كمـا تعـوّدتُ منـكِ، رغـم إرسـالها بالبريـد السريـع.. اتصلـتُ بهاتِفِـكِ المحمـول، كان مغلقًـا، اتّصلـتُ بتليفـون المـنزل، أخـبرني أبي بصـوتٍ مجهـدٍ واهـنٍ أنّـكِ في زيـارة «لخالـتي راجيـة» في الزيتـون، وأنـكِ سـتقيمين معهـا أسـبوعًا مِـن بـاب تغيـير الجـوّ.. هـل حـدثَ شيءٌ جديـدٌ مِـن يـحـــيى؟ طمنيـني يـا أمـي لـو سـمحتِ».

يونس..

فيسبادن الأربعاء.. ٣ سبتمبر ٢٠٠٨

«تـراودني أحـلامٌ غريبـة.. بـل كوابيـس متكـرّرة.. لا أعـرف لهـا سـببًا.. لـم أسـمع صوتـكِ يـا أمـي منـذ أسـبوعيْن تقريبًـا. صـوتُ أبي غـير مطمـئن تمامًـا.. لا يقـول سـوى «الحمـد للّه.. الحمـد للّه.. الحمـد للّه».. طبعًـا الحمـد للّه عـلى كلّ حـال، ولكـن.. لا أعـرف.. تشـاجرتُ مـع مـدام شـهيرة بسـبب رفضهـا نـزولي إلى مـصرَ عـلى وجـه السرعـة دون إنهـاء مـا أقـوم بـه، تركـتُ لهـا العمـل، ولـم أتقـاضَ أجـري.. لا يهـمّ.. أريـد الاطمئنـان عـلى أمـي.. سـأكون يـومَ الجمعـة القـادم ٥ سـبتمبر في القاهـرة.. سـأصل في السـابعة والنصـف مسـاءً.. صالـة ١.. أراكِـم في المطـار».

يونس..

***

أنهيـتُ قـراءة الرسـائل، لينتهـي الدفـتر عنـد هـذا الحـد. لـم يُضِـف يونـس أيّ تفاصيـل، ولـم يـشر أو يُلمـحْ إلى مـا جـرى بعـد ذلـك. ثمّـة انقطـاع كامـل في مسـار الـسرّد، ينتهـي عنـد يـوم الجمعـة ٥ سـبتمبر ٢٠٠٨، اليـوم الـذي وصـل فيـه يونـس إلى القاهـرة. شـعرتُ بلفحـة هـواء بـارد تصفـع ذراعَـي. كـوبُ القهـوة الـذي اسـتيقظتُ عليـه، لـم يكـن ذا أثـر. فكّـرتُ في إعـداد فنجـان قهـوة تـركي مِـن برطمـان الشـيخ نجـدَت. وضعـتُ الشـال الـذي جلبتـه مِـن القاهـرة فـوق ذراعَـي، ونهضـتُ لألقـي نظـرةً خاطفـةً عـلى يونـس. كان لا يـزال نائمًـا، مُـوليًا وجهـه شـطرَ مدخـل الغرفـة، حيـث سـتارة الخـرز. اقتربـتُ مِـن السريـر،

حيث الناحية اليُمنى، وجه يونس. تناهَى إلى سمعي صوتُ نهنهةٍ ضعيفة؛ شيءٍ أشبَه بالبكاء الخفيف. هل كان يحْلُمُ؟

لدى اقترابي مِن الستارة، لفتَ انتباهي تمايل خيوطها يمينًا وشمالًا تمايلًا مُنتظمًا. تذكَّرتُ كلام يونس عن الستارة التي كانت تتحدث إليه، وأنَّ كل شيءٍ في العالم يتحدث، وما علينا سوى أن نرهِفَ السمع إلى حديث الكائنات، أنَ نتعلّمَ كيف نفكَّ شِفرة الكون مِن خلال الأشياء الصغيرة.

لوهلةٍ قصيرة، بدَتْ لي فِكرة عبثية. هبطتُ درجات السلَّمِ، وصنعتُ قهوةً مِن برطمان الشيخ «نجدت»، وصعدتُ إلى الغرفة. قعدتُ فوقَ البساط المفرودِ على عتبة الباب، وشربتُ القهوة ببطء. تمايلَتْ خيوط الستارة، وتمايلَتْ معها حبّات الخرزّ الملوَّنة. خِلتُني أرى أطيافًا تتحرك مِن وراء الستارة. لزِمتُ مكاني، فداهمَني شعورٌ قويّ أنَّ الحكاية تقترب مِن نهايتها، ولا يفصل بيني وبين تلك النهاية سوى حاجزٍ صغير، أقامه القَدَر، وفي وسِع أيّ نسمة هواء، أنْ تقوَّضَ هذا الحاجز. حين لزمتُ مكاني رأيتُ السرَّ؛ السرّ الذي لا ينكشفُ إلا بين النطقِ والصمت:

منزل تنطبق تفاصيله على المنزل الذي كان يعيش فيه يونس مع أسرته.. أبٌ وأمٌ يقِفان أمام سُلمٍ ذي درجات رخامية، يقفُ بينهما شابٌ قويّ البنية، كأنّه توأم يونس، لكنّ شَعره أكثر سوادًا.. صياحٌ عنيف.. أصواتٌ تتعالى.. الشاب يكيل الشتائم والسُبابَ لوالديه.. بين النطقِ والصمت برزخٌ فيه قَبر العقل.. وفيه قبور الأشياء.. يتصاعد الصخب والعنف.. يقتربُ الشاب مِن أمّه، وسورة غضبٍ محمومٍ تسيطرُ عليه.. الأمُ واقفة على حافّة أول درجةٍ مِن درجات السُلَّم الرُخامي، فوق بساط صلاةٍ فيروزي لا يزال مفرودًا.. مُوليةً

ظهرها ناحية درجات السُلّم، تُمسِك بيدها سبحة ذات حبّات خرزٍ زرقاء، وجهها ناحية الشاب..

بدَت الأمّ بلا حولٍ ولا قوّة..عاجزةً عن الدفاع عن نفسها.. كل جزءٍ في جسدها مذهولٌ، يرتعدُ بعنفٍ، بينما كان الأبّ يمُسِك بعكازِه الخشبي مُحاولًا إبعادَ الشابِ وإرجاعه إلى الوراء، لكنّ الشاب يدفعُ يدَ أبيه بقسوةٍ، مواصِلًا الاقتراب مِن أمّه، ووجهه مشتعلٌ بجذوةٍ مِن الجحيم، وعيناه مصوّبتان ناحية الأمّ، يصرخُ الشاب في وجه الأمّ بكل عنف وحقد الدنيا:

«أنتِ السبب في الضياع الذي أعيش فيه.. أضعتِ مستقبلي مِن أجلِ أوهامكِ.. وحرمتني مِن حُلمي الوحيد.. لن أسامحكما أبدًا.. أنتِ وهذا المتصابي الذي لا يهمّه إلا الستّ صاحبة قفص اليمام.. يظنُّ أنّنا لا نعلم شيئًا.. والحَي كله يعلم فضائحَه.

صوتُ الأمّ مُنهك.. مخلخل.. نازِف، كأنّه قادمٌ مِن أقصى العالم ليسقط في غورِ مياهٍ باردِة.. كانت الأمّ على شفا حفرةٍ مِن السقوطِ.. يجذبُ الأبُ الشابَ مِن ذراعه اليسرى كي يرجعَ للوراء، فتثور ثائرة الشاب، ويزيدُ مِن اقترابه.. تلطمُ الأم الشاب على وجهه كي يرجع، يدفعُ الشيطان أمَّه في صدرها دفعةً قويّة عنيفةً، يتشنّجُ لها جسدُ الأمَّ تشنّجًا هائلًا في محاولةٍ هزيلة يائسة للحفاظِ على توازنها.. لم يكن هنا سوى السقوط.. تسقط الأمُّ على درجات السُلَّم الرخامية الحادّة.. بدَتْ أنّها تسقط في بئرٍ لا نهاية لها، وتنفرط حبّات السِبحة.. لتتناثرَ على درجات السُلَّم».

***

ينتهي المشهد عندَها، لتعود خيوط الستارة إلى وضعِها الثابت، وكأنَّ ستائر مسرحٍ قد أسدِلتْ على آخر فصلٍ مِن فصول مأساةٍ انتهت إلى الأبد، ولا مزيدَ يُقال. لا أدري كم مضى مِن الوقتِ وأنا قاعدة أحدّقُ في الستارة. اقتربتُ بيدي مِن حبّات الخرز الملوّنة، هززتها مرةً.. مرّتين.. ثلاثَ مرات، مُحاوِلةً استنطاقها كي تبوح بالمزيد، لكنها لاذت بصمتٍ أبدي، كأنّها تقول: «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا».

ما الذي جرى بعدها؟ كيف لم يتصلوا بيونس في ألمانيا لإبلاغه بما حدث، على الأقلّ ليدفنَ والدته؟ هل أخفى والد يونس عنه ما فعله يحيى بأمّه؟ وهل خشي والد يونس إنْ أخبَره بالحقيقة أنْ يقتتلَ الشقيقان؟ هل حكى الأبُ لابنه ما جرى، ولم يستطِعْ يونس تدوين ذلك في دفتريْه؟ أمسكتُ بحبّةٍ مِن حبات الخرز الملوَّنة، وتفحصّتها جيدًا. كانت خرزةً عاديةً تمامًا، كسائر حبّات الخرز التي أراها كلّ يومٍ في ستائر شقتي، وبين إكسسواراتي الشخصية وعلى ثيابي.

ما الفَرق؟ هل كان يونس يبكي منذ قليل أثناء نومِه، لهذا السبب؟ هل رأى في نومته ما رأيته أنا الآن؟ هل كان ذلك ما كان يكتمه، ولا يريد البوح به حتى لنفسه؟ هل كان يونس يصارعُ تفاصيل قاسيةً غير مرئية، تفاصيل أقوى مِنه بكثير، مرادفٌ لسرّ عميق سيبقى دون إفصاح؟

نهضتُ مُسرِعةً نحو المكتب. كان كلُّ جزءٍ مِن جسدي يختلجُ، ويتألّمُ كأنني أنا مَن دُفِعتُ للتوّ وسقطتُ على درجات السُلَّم. شعرتُ بصداعٍ عنيف، كما لو كنتُ أنا مَن شُجَّ رأسي. فَتحتُ الدفتر، ورحتُ أدوِّن التفاصيل كما رأيتُها، فوق صفحات الدفتر

الفارغـة، الـتي ربمـا تُرِكَـت لذلـك. أعـترِف أنَّ ثمّـة كثـيرًا مِـن الأشـياء لا تـزال غامضـةً في حيـاة يونـس. ثغـرات الحكايـة واسـعة. واحـدة مِـن تلـك النقـاطِ الأكـثر غموضًـا، والـتي شـغلت عقـلي، هـي حكايـة «وجيـه أبـو لـوزة»، والحـيّز الكبـير الـذي احتلّتـه في دفـتر يونـس، والـذي ربمـا يكـون أكـبر مِـن التفاصيـل الـتي كتبهـا يونـس عـن حياتـه الشـخصية. هـل كانـت شـخصية «وجيـه أبـو لـوزة» حقيقيـةً أم مِـن وحـي خيـال يونـس؟ هـل كان وجيـه أبـو لـوزة قناعًـا يختـبئ يونـس وراءَه، لـيروي مِـن خلالـه الحكايـة الأقـرب إلى الحقيقـة، بـل إنَّ حكايـة وجيـه أبـو لـوزة في حـدّ ذاتهـا غريبـة. مـا سِـرّ الصنـدوق ومِـن أيـن أتى؟ ومـا اليمامـة المخنوقـة الـتي عَـثر عليهـا الشـقيقان بداخلـه؟ ولِـمَ اختـار وجيـه أن يُعطـي الصنـدوقَ ليونـس تحديـدًا؟ وأيـن اختفـى؟ أعـدتُ قـراءة الدفتر مرّتـيْن ولـم أعـثر عـلى إجابـة، وربمـا لـن أعـثر يومًـا.

***

البحـر الـذي يمتـد أمامـي، وأنـا أكتـب الآن، يفـورُ بأمـواجٍ قويّـة، تتقـدّم ببـطءٍ وهـدوء، وكأنّهـا تحمـل حوتًـا ضخمًـا سـيخرجُ بعـد قليـلٍ ليُلقِـي عـلى الشـاطئ سِـرًّا طـال كِتمانـه. لـم تَقـوَ عينـاي عـلى الاسـتمرار. رنّ جـرس آلـة الزمـنِ مِـن جديـد، مُعلِنًـا السادسـة صباحًـا. كاد جفنـاي يتلاصقـان مِـن النُعـاس. مِـن فتحـات شـيش النافـذة مرقَّـتْ نسـمةٌ فَجـرٍ بـاردةٍ، مُفعمـةٌ برائحـة البحـر، أسـكرتني مثـل قهـوة الشـيخ نجـدت، وشـعرتُ برغبـة في النـوم.

قبـل إغـلاق الدفـتر، عاودتـني الفكـرة الـتي كانـت تـراودني طـوال كتابـة الجـزء المسـكوتِ عنـه مـن حكايـة يونـس؛ مـاذا دوَّن يونـس في الدفـتر الأول الـذي أعطـاه لأبيـه صبـاحَ أمـسٍ، وفقًـا لِما ذَكـره في هـذه الأوراق؟

هـل أتى عـلى ذِكـر قصّـة صديقـة أبيـه «نـعمــت علـوان»؟ هـل أشـار يونـس إلى معرفتـه بأسـفارِ أبيـه إلى فرنسـا مـع عشـيقته؟ وهـل كتـبَ شـيئًا عـن حقيقـة علاقتـه بأخيـه يحـيى، البحّـار؟

صـداعٌ عنيـفٌ يهشّـم رأسي، ربمـا مِـن أثـرِ نهـر القهـوة الـتي جرعتهـا اليـوم؛ القهـوة الزائـدة هـي أشـواك الـورد، الـتي قـد تقتـل. نهضـتُ مِـن فـوقِ الكـرسي، وجـررتُ قدمَـي الثقيلتـين نحـو السريـر. اسـتلقيتُ عـلى السريـر بهـدوءٍ وغطسـتُ تحـت غطـاءٍ خفيـف يغطّـي طرفًـا مِـن جسـد يونـس. كان الألـم الـذي خلّفـه مـا رأَيتـه وراء السـتارة يتمـدّد في كلّ أنحـاء جسـدي. انتظـرتُ الـدفء، وعقـلي يُصغـي إلى ذلـك الصمـت الأبـدي؟

ألصقْـتُ نصـفَ جسـدي بنصـفِ جسـدِه، حتى صِرنـا واحدًا، فشـعرتُ بـدفءٍ، دفءِ الفجـر، وبينمـا كان النعـاسُ قـد تمكّـنَ مِـني، أحسسـتُ بيونـس يتململ في الـفِـراش.

***

-٣-

اِرْمِ خُبْزَكَ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ

العهد القديم

اليوم نفسه..

شاليه المعمورة.. الثامنة والنصف صباحًا..

ولمّا أحسستُ بدفءِ جسدِ سارة إلى جواري عرَفتُ أنّه النهار. كأني أصِبتُ بما أطلَقَتْ عليه سارّة متلازمة الدفء والفَجر، لا أشعر بمذاق النهار إلا حين تقترب سارة، ولا تقترب سارة إلا ويطلع علينا فَجرٌ جديد، حتى ولو كان الوقت ليلًا. شخصتُ ببصري نحو النافذة، فرأيتُ لوحَ الزجاج كأنّه يرتعشُ أمام شروق الشمس الشاحب. لوحُ زجاجٍ مسحور، يجلبُ الشروقَ والغروب في آنٍ واحد. تناهتْ إلى سمعي أصوات ابتهالاتٍ تنبعث مِن البحر، ودعاء نوارسَ وعصافير، وارتطام قواربَ شراعيةٍ بحائطِ المَمشى البحري. نهضتُ مفعمًا بنشاطٍ عجيب. نسِيَتْ سارة إطفاءَ الأباجورة الصغيرة فوق المكتب. اقتربتُ خطواتٍ مِن المكتب لإطفائها، فلمحتُ دفتريَ الذي تركته بالأمس. أمسكتُ الدفتر وفررتُ الأوراق. كانت الأوراق الفارغة على اليمين مسوَّدةُ كلها، الخطّ جميل ومنمَّق، لم يجذبني مضمون ما كُتِب. كنتُ على يقينٍ أنَّ شخصًا ما سيأتي ذات ليلة، ليسدَّ الثغراتِ التي تركتها في حكايتي، لذا تركتُها فارغة. ربما كان هذا هو الشيء الوحيد الصادق الذي سمِعته مِن أبي: حكاية الطائر

النسّاج، الذي يجمع شذراتِ الأوراق، وتأتي أنثاه لتكمِل عمله ليلًا، أثناء نومِه.

أردتُ التأكدَ مِن شيءٍ واحد. أحصيتُ الصفحات التي كَتبَتها سارة بخطّها في الدفتر، كانت صفحات الصمتِ أقلَّ عددًا مِن صفحات النطق. انشرحَ صدري لهذه النتيجة. الصمتُ دائمًا أبلغُ مِن النطق.

أطللتُ مِن النافذة على المَمشى البحري، الذي كان خاويًا تمامًا. سكونٌ مطبق يلفُّ المكان، باستثناء صوت أمواج البحر، التي ترتطم بالصخور. ارتديتُ أولَّ ما طالته يداي، وخرجتُ مِن باب الشاليه.

***

أشباح؟ مستحيل.. الأشباح تأكلها الشمس. دنوتُ وتدليّتُ إلى الممرّ الفاصل بيني وبين البحر.

أبصَرتُ أبي وأمّي جالسيْن فوق حافة سور المَمْشى، وبينهما يحيى، ظهورهم ناحيتي، يلتفِتون إليّ بحركة واحدة، ويبتسِمون مرةً واحدة، ثمّ يعاودون النظرَ إلى البحر.

أقتربُ مِنهم ببطء، حتى أكون إلى شمال أمي. نتبادل نظراتٍ صامتة. فهِمتُ مِن أبي كلّ شيء بإيماءةٍ مِن رأسه، لم يقوَ يحيى على النظرِ إليّ، ولم أقوَ على النظر إليه. كلانا يحمل ذنبًا، وكلانا يعاقب نفسه.

تُخرِج أمي مِن حقيبتها القماش الوردية رغيفَ خبزٍ تفركُ الرغيفَ بين كفيّها برفقٍ وتُلقِي بالفتات إلى البحر. يتناثر الفتات على صفحة

الماء. يتعامل الموجُ مع فتات الخبز برفقٍ وحنوّ، لا يسحقه ولا يسحبه إلى الأعماق. يقترب سربُ أسماكٍ صغيرةٍ مِن الدائرة التي رسمها فتات الخبز على صفحة الماء، تأكل وتأكل. يقترب سربٌ ثانٍ، وراءه ثالثٌ ورابع.

صفحة الماء البللورية الرائقة تكشِف تفاصيل المشهد. تتوافد أسراب السمك، حتى خُيِّلَ إليّ أنّ أسماك البحر كلّها أتت تبحث عن طعام، هنا، تحت قدميَّ أمّنا.

البحرُ هادئ لا يثور. والموج يلعبُ لعبةً غريبة لا أفهمها، يمرّ بطيئًا حول فتات الخبز، لكنّه بمجرد الاقترابِ مِن الصخور تحت أقدامنا يرتطم بها بعنفٍ، وكأنه يخشى الاقتراب مِن فتات الخبز، أو ربما يخشى إغضابَ أمي.

يستمر المشهد كأنه شريط سينمائي يُعاد كل دقيقة. ينحني يحيى بجذعه نحو الماء ليلتقط قطعة خبزٍ مبلّلة ويضعها في فمِه، يلوكها بشهية، ثمّ يقفِز إلى البحر، ويعبُّ الماءَ عبًّا ليغسل قدمَيّ أمّنا بالماء، مرةً تلو الأخرى، بينما تواصلُ أمي إلقاءَ فتات الخبزِ إلى الماء. تتبقى قطعةٌ مِن رغيف الخبز. تخلعُ أمي سبحة مِن حول كفّها وتمزِّق الخيطَ، تفرِط حبّاتِ الخرزِ في كفّها لتلقي بها إلى البحر، مُحتفِظةً بخرزة الوجيهة، تنادي أخي أنِ اصعد مِن قلبِ الماء. ترفعُ الخرزةَ أمام وجهيْنا؛ لنرى ذلك المشهد الذي رأيناه في ظهيرة ذلك الصيف البعيد.. يحيى وأنا.

يبكي أبي في صمتٍ وهو يقرأ الدفتر الذي أعطيته صباحَ أمس. يهمِس في أذنها اليمنى بكلماتٍ قليلات فتبكي، ثمّ يهمِس بكلمتيْن في أذنِها اليُسرى فتضحك. ترفع أمي وجهها إلى السماء. أتركهم جميعًا وأهبِط مِن فوق سور المَمر. شبَعٌ هائل يملأ روحي، وكأنني أكلت

الخبزَ المبلّل كله بدموع أمي وأبي.

***

مِن استواء الشمس وسط السماء، خمّنتُ أننا في منتصف النهار. هل مضى كلّ هذا الوقت؟ التفتُّ، فرأيت سارة واقفةً وسط الممر حافية القدميْن، مُمسِكةً دفتريَ الذي كتبَتْ داخله ما تعتقِد أنّه الحكاية الكاملة.

-اجلسي إلى جِواري.. لقد كتبَنا حكايةً واحدة.. ولكنني أريدكِ أن ترسمي الحكاية، ارسُمي بورتريهًا واحدًا يضمّ الرواية كلّها.

- من أي فصلٍ مِنها؟

- اختاري ما يروق لكِ، ولكن بشرط أنْ ترسمي أبوابًا مفتوحةً على الدوام، لا حواجز ولا ستائر، ولا ترسمي وجوهًا، لأنها تفسدُ روعة الغموض، كلما خلَتْ الصور من الوجوه، ازداد سحرها، وجوه البشر تكذب.

- ستصير الحكاية ناقصة!

- الحكايات كلّها ناقصة، كل راوٍ يحتفِظ بجزءٍ خفِيّ مِن الحكاية لنفسِه، الحكايات كلّها شذرات.. مَن مِنا يملك حكاية مُكتملة؟

- على فكرة.. لم أخُطّ كلمةً واحدة في مشروع الرواية، الذي مِن المفترض أن أسلّمه بنهاية الشهر إلى د. مارسيل!

- اختاري حكايةً مِن الحكايتيْن اللتين قرأتِهما.. حكاية وجيه أبو لوزة أو حكايتي، لتكونَ مشروعكِ.

- هذا سطوّ على مشروعك.. وأنتَ؟ ألن تقدّم شيئًا؟

- يكفيني ما رأيتُه على البحر، لن أكتب شيئًا بعد اليوم.. مَن يكتب بصدقٍ يتدفأ بصمتِه، الصمت هو سجلات عدن.. هذه الحكاية لم تَعُد تنتمي إليَّ.

***

عُدنا إلى الشاليه. لزِمنا الحجرةَ الواقعة أسفل السُلَّم، التي حوّلتها سارة إلى «مَرْسَم» أيضًا. لم نشعر طوال النهار بجوعٍ أو بعطش. بقيتُ جالسًا إلى جوار سارّة، وهي تواصل الكتابة والرسم داخل الدفتر، وتعيد ملء فناجين القهوة. لم يداهمني المساء كما كان يفعل. كنتُ مستعدًا له هذه الليلة. لم تلحظني سارة وأنا أنسحب من المشهد، صاعدًا إلى غرفتي.

مَررْتُ مِن بين خيوط الستارة، وقعدتُ على الأرض، مُحدّقًا إليها. سَرَتْ في كياني رعشةُ حزنٍ للتفكير بأنَّ أمي لن تعود أبدًا عبر هذه الستارة، ولن تأخذَ مكانها المعتاد وسطنا.

بصيصٌ مِن سنا القمرِ ينفذ مِن فتحة الشُرفة التي ورائي، ليصنعَ رقعة نورٍ عند مدخل الغرفة. أبصرتُ طيفَ أمي خلف الستارة، تتطلّع نحوي؛ بيدها اليُمنى رغيف الخبز الذي كانت تُلقي بفتاته صباحَ اليوم إلى البحر، وبيدها اليُسرى الزهرة التي رأيتها في منامي.

- أمي.. لكنّ شُرفة منزلنا تسدّها شجرةَ الصدأ.

تنظرُ نحوي عبرَ فتحات الستارة، وقد انعكسَ على وجهها نورُ القمرِ الآتي مِن النافذة، وتقول:

-شذّب شجرة الصدأ، بُرعمًا بُرعمًا، وستبزغُ الزهور طوعًا.

- هذا عن أبي.. ماذا عن يحيى؟ أنسيتِ ما جرى؟

مـدّتْ أمـي يدهـا مِـن بـين فتحـات السـتارة، وأعطتـني رسـالةً. اختفـى طيفُهـا. فتحـتُ الرسـالة، وقـرأت:

- مَـــن يـركُل كلّ شيءٍ إلى البحـر، يـغــفِر كلّ شيء.. اذهـبْ إلى أخيـك، وافتحـح بـاب غرفتـه

غفوتُ في مكاني. كم مضى على هذا الوضع؟ لا أدري.

عندمـا أفقـتُ وفتّحـتُ عيـنيَّ كان القمـرُ قـد أفـل. سـمعتُ صـوتِ طقطقـة حبّـات الخـرز، تـردّدُ ثرثـرةً غامضـةً غـير مفهومـة. وصلتـني رسـالتها الأخـيرة. رأيـتُ سـارة واقفـةً إلى جـواري. جَذَبَـتْ يـدي لأنهـضَ، فطاوعتُهـا. أشـارَتْ إلى الشـمسِ، مِـن وراء سـتارة النافـذة وهـي تـشرق مِـن قلـب الظـلام.

- يونـس.. عكفـتُ طـوال الليـل عـلى كتابـة مـشروع الروايـة.. سـوّدتها في دفـترٍ جديـد. ألـن تقرأهـا؟

- لا تستهويني الروايةُ المُنتهية.. بل تلكَ التي ستأتي.

- يونـس.. خطـر لي سـؤال وأنـا أعيـد كتابـة الروايـة.. هـل أنـا جـزء مـن لعبتـك؟ مُهـرة داخـل لُعــبة الخيـول الخشـبية؟ بديـلًا لامـرأةٍ اختفَـتْ مـن حياتـك؟

- تقصديــن أمّــي؟ قانــون اللعبــة ينتهــي بنهايــة اللعبــة، ســأخرق قانـون لعبـة الخيـول الخشـبية، سـأحطّمها كمـا يفعـل أي طفـلٍ يسـأم مـن لُعبـة شـبع منهـا، لسـتِ بديـلًا لأحـد يـا سـارة.. انـسي الروايـة.. هـل تذكريـن أغنيـة فـيروز: «كلّ الجمـل والحـكي والـكلام فيـك»؟

- سـمعتها، بالأمـس، فيمـا يشـبه الحُلْـم، وأنـا أيضًـا عنـدي أمـل فيـك.. وعنـدي ثقـة فيـك.. اليـوم إجـازة مـا رأيـك لـو قضينـا اليـومَ عـلى الشـاطئ؟ البحـر.. البحـر..

-سأسبح معكِ بشرط!

- شرطٌ جديد؟

- بل رجاء.. تعالي معي.

صعدنا إلى غرفة النوم. فتحتُ النافذة المطّلة على البحر على مصراعيها. حملتُ صندوق وجيه، وعُدت لأضعه على عتبة باب الغُرفة. رحتُ أجذِبُ خيوطَ الستارة إلى أسفل بأقصى ما يمكنني مِن قوّة، حتى تمزّقتْ الخيوط، وانفرطتْ حبّات الخرز لتسقطَ فوق الأرض. بدأنا نجمع حبّات الخرز ونضعها برفقٍ داخل الصندوق. حين انتهينا، طلبتُ من سارة إحضار دفتريَ البنفسجي، الذي أكملَتْ فيه سارة نصف الحكاية القديمة، والدفتر الثاني الذي دوّنت فيه الحكاية الجديدة. لثمتُ الدفتريْن بشفتيّ.

قلتُ لها:

- لن يحتاجهما أحد يا سارة.

- ماذا ستفعل بهما؟

- هذه سجلات عدن.. ويجب أن تختفي إلى الأبد.

- ومشروع الرواية؟

- عندي حكايات أخرى سأرويها لكِ.

- رواية جديدة؟

- نعم.. كذبة بريئة تُعينني على مواصلة الحياة.

دسستُ الدفتريْن في قاع الصندوق أسفل حبّات الخرز، ثمّ أغلقتُ الصندوقَ بالحبل الأصلي الذي وجده صاحبه؛ بحبلٍ مِن الصوف الأحمر الملفوف على شكل الرقم (٨)، وأولجتُ طرفيْ

الحبل بين المِقبضين المستديرين على جانبَي الصندوق، حتى بات الغطاء مُحكمَ الغلق. حملتُ الصندوقَ وحدي، ونزلنا السلالم. تقدّمَتني سارة وفتحَتْ باب الشاليه. كان الطقسُ باردًا في هذه الساعة المبكّرة، والشاطئ خاليًا تمامًا. اجتزنا الممر الأسفلتي حتى وصلنا إلى شاطئ البحر.

- أتخشى فقدانَه؟

سألتني سارة.

خلعتُ نعلَيّ.

لم أشعر ببرودة الماء وأنا أتقدّمُ، خطوةً تلو الأخرى، حتى تجاوزَ الماءُ ركبتَي. ألقيتُ بالصندوق، ورحتُ أراقبه. أخذَت الأمواجُ تهدهِد الصندوق، وتَسحبُه بعيدًا.. بعيدًا جدًا.. حتى ابتلَعَه البحر تمامًا.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublish.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublish.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpubishing

+KayanPubishing

KayanPublishing